رواية
أمس اليوم
وضّاح شرارة
نوفل

رواية

أمس اليوم

وضّاح شرارة

نوفل

جميع الحقوق محفوظة.

صدرت عام 2022 عن **نوفل**، دمغة الناشر هاشيت أنطوان

© هاشيت أنطوان ش.م.ل.، 2022
info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
facebook.com/HachetteAntoine
instagram.com/HachetteAntoine
twitter.com/NaufalBooks

لا يجوز نسخ أو استعمال أيّ جزء من هذا الكتاب في أيّ شكل من الأشكال أو بأيّ وسيلة من الوسائل – سواء التصويرية أو الإلكترونية أو الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات أو استرجاعها – من دون الحصول على إذن خطّي مسبق من الناشر.

صورة الغلاف: **© Neil Overy / Trevillion Images**
تصميم الداخل: **ماري تريز مرعب**
تحرير ومتابعة نشر: **أحمد محسن**

ر.د.م.ك. (النسخة الورقية): 978-614-060-010-2
ر.د.م.ك. (النسخة الإلكترونية): 978-614-060-011-9

إلى غَلَس

الفصل الأول

لا أذكر ومنذ ذلك اليوم لم أتذكّر، كيف خرجتُ من الليلة التي نمتها في هذا المكان، وتحت هذا السقف، إلى النهار الغريب والحادّ الذي ثبت فيَّ وفي ذاكرتي مَعْلَمًا فريدًا. فبين البارحة المديدة، المشتملة على نهار يوم قضيته في سيارة أُجرة جالت في ما لا يُحصى من مدن الساحل وقراه القريبة قبل أن تحطّ بعد الظهر في البلدة، وعلى نصف يوم سابق قضيت أوّله في صف المدرسة والشطر الثاني منه في بيت قال الرجل الناحل والمكفهرّ الوجه إنّه بيت أخيه، أي بيت عمّي، بتنا فيه ليلتنا تلك وركبنا في غداتها السيارة – بين هذه البارحة وبين الصباح الكبير، قِطَعُ وقتٍ تطفو مثل كتل ثلج على سطح مجرى ماءٍ عميق وكثير الشُّعب والأذرع. وأجزاء الوقت التي أذكرها – تركُ المقعد الخشب المشترك مع الزميلة ذات الوجه النحاسي الذي تلوّحه استعادته والعينين الخضراوين المليئتين دهشة وحسبتهما مليئتين أسىً لحظتذاك، ومَسكُ يد الرجل النّاحل الذي لا أرى منه إلّا ظهره المستقيم ومشيته الثابتة ورأسًا معتم الشعر ينظر إلى موضع آخر وبعيد، يدي وشدّه قبضته عليها، اجتياز الطريق وحديد الترامواي إلى الجهة الأخرى حيث تصطف سيارات صغيرة تحت شجرة جمّيز ضخمة وركوب سيارة منها... – أجزاء الوقت هذه لا تلبث أن تغرق في ما ليس مكانًا ولا وقتًا، فاصلًا بين مكانين أو وقتين. فبعد ركوب السيارة، وقبل النزول منها والسير في طريق تراب ضيّقة بين رصيفين مُعشِبين وبستانين، وبلوغ درج يصل الطريق بباب الطبقة الأولى من غير انعطاف ولا استراحة، لم ينقضِ الوقت الذي قطعت فيه السيارة المسافة بين بوابة المدرسة العريضة، وفي مقابلتها الشجرة الملتفّة والمائلة

الأغصان الغليظة إلى الإسفلت والرصيف المتصدّع، وبين المنزل الريفي الأبيض والمكعّب، المتهادي على سطح الخضرة المديدة مركبًا راسيًا في حوض ميناء جاف، هذا الوقت لم ينقضِ.

وعلى شاكلة مضيّ هذا الوقت في أمكنة من غير علامات ولا جسور، بتُّ ليلتي الأولى في بيت عمّي، أو هذا ما عليّ افتراضه. وتلا النزولَ من السيارة، ثم صعود الدرج الطويل والمستقيم درجة درجة، ودخول بيت غريب اجتمع على بابه خمسة أو ستة أشخاص، بعضهم أولاد، وجوههم مشدودة إلى الولد القادم وعليها عبارات يتنازعها الفضول والانتظار والشفقة – إحساسٌ غامر بانطباق المصيدة على الحيوان المذعور ووقوعه في فخٍّ فات أوان التملُّص منه. ولم ينفع البكاء حين أيقنتُ بحقيقة الأَسر، ومناداة الأم ومناشدتها الخلاص، إلّا في استثارة الرجل الناحل المظلم الوجه والمرتجف الشفتين المنشقتين عن أسنان صفر وكبيرة، على شتم الأم، واستدراج تشفّيه بها، وإبلاغ ابنها أنّ زوجها الثاني، التوتو، أكلها وابتلعها فلم يبق بعد ما يناديه الولد، ولا جدوى من التعلُّق بالنداء. وخرج أخو الرجل، وهو يسمع أخاه يردد أنّ «التوتو أكل الماما» ويهتزّ مثل قصبة جافّة، عن مراقبته المشفقة، ورجا أخاه بصوت عاتب وطالع من الصدر أن يترك قوله:

– بلاها! شو بدك فيها!

وإلى صبيحة اليوم التالي، وركوب سيارة أخرى كثيرة المقاعد يقودها رجل ثخين الرقبة ومتّصل الكلام، على صلعته الملساء والمستديرة طربوش داكن الحمرة يميل إلى أمام أو خلف أو جانبًا ويعدِّل ميله في كل مرة، شَطَبَت الوقت لطخة سوداء فاحمة. وبعض اللطخة ليل نومٍ خلا من المنامات، وبعضها الآخر عتمة سدّت المنافذ على النائم. وابتدأ صبح اليوم الثاني نهارًا لا بقية فيه من اليوم السابق. فالرجل الناحل استبدل طقمه القاتم بطقم فاتح ويكاد يكون أبيض ناصعًا لولا سمرة قطنية عَرَت بياضه وسكنته. وتخففت ابتسامته العريضة، المنفرجة على الدوام عن أسنان أقلّ صفرة، من ارتجافٍ وانفعال غلبا بالأمس عليها، وعلى وجهه وعينيه الضيّقتين. وأخذ بيدي ونحن نجتاز الباب، ووقف بجانبي واستعرضني وكأنّه يتثبّت من كوني من أكون ومن نسبتي إليه. ورفع يدي، واتسعت ابتسامته وعمَّت وجهه. وقال: «أهلًا بالشب!»، مستعرضًا فرحه. وبعض عدوى حاله انتقل إلى إحساسي بالنهار

النّديّ ونحن ننزل السلّم إلى السيارة، ونطلّ على حقل ذرة من ناحية وحقل قصب من ناحية أخرى. وسأل السائقُ، قبل إمالته طربوشه الكبير وهو ينحني ليجلس في مقعده، عمّن يكون الولد وأجاب أنّه لا شكّ المحروس، وهل هذا سفره الأوّل إلى البلد ولا شكّ في أنّه سفره الأوّل إلى البلد، وهل له إخوة وأخوات يلحقون به أو هم ربما سبقوه مع أمّهم إلى بيت جدّهم في البلد.

وتماسكت حلقات الوقت تماسكًا ضعيفًا طوال شطر من النهار انقضى بين ركوب السيارة وبين النزول منها، ثم عادت إلى الغرق في خلاء عريض جراء حركة أو كلمة صدرت عن جنّيّة خفيّة. فلم يبقَ من أحاديث التعارف في السيارة المطوّفة في أرجاء الساحل والبلدات والقرى المطلّة عليه من قرب وبعض البعد، غير نُتفٍ مسموعة تجاذبها ركاب لا وجوه لهم، تبدّلوا مرّات في أثناء الرحلة الطويلة، ركوبًا ونزولًا في محطات وقوف لا تحصى. ودار معظمها على الرجل الذي أسافر في صحبته، ويقصد بلدته وأهله مع ابنه المستعاد بعد غياب. وخاطب بعض الركّاب الرجل مخاطبة معرفة أو تكهّن، وردّدوا اسم عائلته. وكان السائق يُسرع، في كلّ مرّة يلوح فيها ظلّ معرفة بالرجل، إلى الجزم بصحة هذه المعرفة، وإلى تعليل تردّد المتعرِّف بالسهو أو ضعف الذاكرة. وفهمتُ، على ظنّي، من كلام بعض الركاب الذين طالت صحبتهم وطال ركوبهم، وبدا الشيب في شعورهم وعلى أنف واحد أو اثنين منهم نظارات أنيقة تشبه السترة التي يلبسها المتحدّث – أنّه يلمح إلى شيء كتبه الرجل وخالف رأيًا سائرًا في نكبة حلّت بالناس. ولما تلفّظ المتحدثون باسم البلد المنكوب، رجعت اللفظة بي إلى وقت قريب وغائم كنتُ في أثنائه في مدرسة سابقة غير المدرسة التي غادرتها البارحة، وفي الصف الذي كنتُ فيه يومذاك وقف ولد شديد السُّمرة وبياض الأسنان وحليق الرأس وممشوق القامة في بنطلون أبيض لصيق بجسمه، أمام اللوح وطاولة المعلّمة، وقال: «أخوكم من البلد الحرام، إِلي الشرف!».

وغاب شطر كبير، الشطر الغالب من نهار السفر والأحاديث والتعريج على القرى وإنزال الركاب والوقوف لآخرين وأخريات في الساحات وعلى المفترقات والهوامش الرملية، في عتمة خرساء خيّمت على بقيّة كلمات وسكنات وإشارات لا أثر لها فيما أتذكر. وحين وقفتُ في فناء دار واسعة، تحت عريشة عارية وقبالة حديقة زُرع نعنع وبقدونس وخس في مساكبها

الصغيرة والعالية شبرين عن أرض الفناء، بهرني ثلج لم يسبق أن رأيتُ مثله في المدينة الساحلية التي قضيتُ فيها ما مرَّ من أعوامي. وعَلِق الأبيض الذائب، الجامع نسج القماشة إلى بعثرة الخيوط، برؤوس النباتات الضئيلة وعلى أوراقها، وسال حباتِ ماءٍ على أطراف الورق، فتلمع في الضوء لحظة خاطفة قبل أن تهويَ في التراب البنّي الفاحم. وجاء من ورائي، وكنت أحسب أنّني وحدي في الدار الخالية، صوت بنتٍ رقيقٌ وجليّ:

– شفت التلج؟ هاي تلج! تعا فرجيك عَ الدجاجه الطَّوزه... صارت إرأه، نايمه عَ بيض، صار أكثر من عشر تيام نايمه عَ البيض...

وبدت البنت الكثيرة الكلام، حين التفتُّ إلى مصدر المخاطبة، مستديرة الوجه استدارة تامة تبعث على القلق، وممتلئة الملامح والشفتين على الأخصّ، تحت شعر قليل وأشقر وضع على جلد رأسها وشكلها الظاهريْنِ من غير عناية، وتكذِّب عينان طافحتان سوادًا خفة هذا الشعر وسفوره عن خطوط الجمجمة الماثلة. وقرنت وعدها بحركتها. فأمسكت يدها الباردة بيدي قبل أن أجيب بحرف أو بنيّة قبول دعوتها إلى أشياء أسمع بها أوّل مرة في اللحظة المفاجئة هذه. وأبصرتُ يدها وهي تطبق برفق لا تردُّد فيه على يدي، ورأيت ساقيها النحيلتين والعاريتين تحت فستان رقيق يشف عن الركبتين وأوّل الفخذين، وقدميها في قبقابين من خشب، حسبتهما جزءًا من جهاز لعبة. وفَشَخَت سريعةً من أرض الممرّ المبلّط إلى الحديقة ومساكبها، وتمهّلت تنتظر لحاقي بها، وأشارت عليّ بالمشي على حدود المساحات المزروعة، وسمَّت وهي تسبقني النباتات التي نحاذيها، ونقّلت عينيها الكبيرتين بين مواضع قدميها وقدميّ وبين تلك التي عليّ أن ألحق بها وهي تنظر إلى الخلف وتراقب مشيي بجوار البقدونس والنعناع وبين رؤوس البصل، على قولها، وظلٌّ ابتسامة باطنة يطوف على شفتيها الزهريتين والمائلتين إلى الزرقة.

وبلغنا معًا شريطًا يلفّ مستطيلًا ضيّقًا من الأرض بإزاء حائط مقشور ومفاجئ يفصل الحديقة عمّا وراءها أو بعدها. ويمتدّ الشريط من حجرة صغيرة معتمة يصطفّ عدد من الدجاجات، ألوانها قاتمة وزاهية، على رفوف بعضُها من طين وبعضها من خشب، ويملأُها جوق الدجاجات أصواتًا كثيرة التنغيم، إلى قفص يستظلّه فرخان أو ثلاثة في الجهة المقابلة. وصعدتْ من أرض المستطيل روائح حب القمح المتآكل والتراب المبتلّ وما لا يُحصى من أجسام

تُخرجها الدجاجات من خلف وهي تنتقل وتفرش بها ممشاها. ووقفنا بإزاء الشريط، أنا متسائلًا عمّا يكون هذا المكان الذي أحسب أنّني رأيتُ شبهه من قبل تحت درج من غير درابزين، في خاصرة مبنى يتربّع في قمة رابية تطلّ على البحر، وهي شابكة أصابعها بخروم الشريط الكثيرة، وساندة جبهتها إلى المعدن الدقيق والبارد، ونظرها يجول بين الحجرة الصغيرة إلى يمينها وبين القفص إلى يسارها، قبل أن تخلص إلى القول:

– هيدا كلّه إسمه إنْ، من الأوضه للأفص، إن دجاج وصيصان وكم ديك، بس أْلال... إنت ابن عمّي عبدالله، نزار، أنا بنت عمّك، مها، بيي كريم، نمت إنت وعمّي عبدالله عنا بالبيت بالرواحنه، مبارح... تعا تَ فرجيك عَ الإرأة بالأوضه التحتانيّه...

ومرّت خلفي، وهي تقصد بخطى تحاذر الوحل ودوس الزرع معًا جدارًا عريضًا وحجريًّا، رماديًّا، يميل إلى الأسفل، صوب باب موصد وواطئ، في زاوية الجدار اللصيقة بأرض الفناء وبالحائط الفاصل بين دارنا وبين البيت الآخر. وأحسستُ بطراوة أجزاء جسمها الناتئة، كتفها ومنحدر أضلاعها ووركها وأعلى فخذها، وبحرارتها وهي تحاذيني وتسبقني إلى الحجرة وبابها والدجاجة الغريبة والموعودة. فجمّدتني لذّة المحاذاة المفاجئة في مكاني. وكنتُ أحاول انتزاع عينيّ وسمعي من غرائب حركات الدجاج وأصواتها في القن، وألتمس مواقع قدميّ في إثرها. فأدرتُ رأسي في الاتجاهات كلّها وأنا أغالب دوخة وخدرًا أصاباني بالارتخاء، وأريد التثبُّت من حقيقة المكان الذي أنا فيه ومن جهاته الغامضة. وحسبتُ أنّني أفيق من منام طاغٍ وخالٍ من الصّور والحوادث حين أبصرتُ يدًا ممدودة قبالة وجهي، تنتظرني، ووراء اليد عينا مها الليليتان، وقد ازدادتا ليلًا ووسعًا، وطيف ابتسامتها القادم من خلف حجبٍ بعيدة. وأعطيتها يدي مستجيبًا دعوتها، وتركتُ البحث عن مواطئ أضع فيها قدميّ مسَلّمًا هدايتي لها. فتكشف ابتسامتها عن أسنان حادة البياض، ويظلّل عينيها غبار رمادي خفيف يُبرز شحوب الوجنتين الخفيّ. قالت:

– ليش مستغرب؟

فأدْركَتْ من غير جهد أنّني أشعر بغربة عن هذا المكان الواسع والبارد والمتقلّب بين شح الضوء وانفجاره، الخالي من الناس، ما عدانا، والمنقطع من أوقات سابقة ومتّصلة أوصلتني إليه، رغم قول مها أنّني ابن عمّها وهي بنت

عمّي الذي بتُّ ليلة سابقة لا أعلم محلّها من سلسلة الليالي السوابق، في بيته، في مكان أجهل محلّه من أماكني الأليفة: المدرسة التي ينقلني إليها باص رصاصي وكثير المقاعد يقف صباح كلّ يوم على باب طريق ضيقة ومغبرة، أخرج إليه من بيت تسكنه أمّي مع عائلة رجل تزوّجته وجاءت من مدينتها إلى مدينته، وأعرف سائق السيارة، سركيس، وبعض ركابها الأولاد مثلي، وأحزر الطرق التي يسلكها الأوتوكار في رواحه صباحًا وعودته ظهرًا ثم رواحه وعودته ظهرًا وعصرًا، وأعلّمها بعلامات وصور وكلمات مثل الكوب الكهربائي والراقص الذي كُتبت فوقه كلمه «هلتسن» في صدر ساحة عريضة، وأتوقع المفترقات وأنتظرها وأقدّر الثواني التي على سركيس أن يقفها، ويفحص إشارات الشرطي وحركة السير في أثنائها، قبل أن يسترخي في مقعده، ويستطلع الجهات كلّها ويدير المقود مقتصدًا ويقدّم ذراع الفيتيس أو يؤخّرها. وأتذكّر البيتين السابقين اللذين أقمتُ فيهما في المدينة الأولى، والجسر المتداعي الجدارين وجنبيهما على نهير جاف ومليء المجرى بالحجارة، ومدفعَ الإفطار في أماسي رمضان وانتظارَه مع أولاد الجيران نيامًا على الإسفلت الدافئ ووجه واحدنا إلى حضن سماءٍ بيضاء الزرقة وتكاد تُلمس بالإصبع لولا الحياء والرغبة في الإبقاء على متعة الاختبار... واستردّني من الغربة ركض مها نحو الباب الحائل اللون الأزرق والمهيب الانزواء، وقفزها فوق حاجز الإسمنت بين تراب الحديقة وحجارة هذه الناحية من الفناء، وإصرارها على أخذها بيدي ودلالتي. وأعادني الفضول والجهل بما قد تكونه الدجاجة القرقة والطّوزة التي تحضن بيضها منذ عشرة أيام وراء جدار الحجرة المائل على جنبه، على ما أوهمني وصف الحجرة التحتانيّة، على شاكلة مركب كبير غرزَ مقدّمته في رمل الشاطئ هياجُ الموج واجتياحه أشرعته وتكسيره صواريه.

ودفعت مها الباب بيدها الحرّة. وحرصت على مراقبة أثر حركتها، فانتظرت هنيهة قبل دخولنا الحجرة التي تشتمل على عتمة عميقة تجبه الداخل فيها وتستولي على عينيه. ونظرت إليّ، أنا ابن عمها الجديد الذي تتولى دلالته وتعريفه بما يجهل من خبايا الدار وأسرار حضانة الحياة وإنضاجها وراء قشور البيض الصفيقة والملساء وإخراجها على صورة خلقة هزيلة ومتعثّرة. ونبّهتني وهي تحول دون عودة الحاجز الخشب إلى الغلق، إلى الحفرة الغارقة في ظلمة عارية، والمتربّصة بمن يجتاز حاجز الباب من غير دراية ولا سابق

معرفة. وقالت، وهي ترعى بنظرها وحركة رأسها تلمس قدميّ عمق الحفرة وعرضها، أنّهم يسمّونها «الإسطبل» وهي لم ترَ يومًا حيوانًا مربوطًا ولا غير مربوط في اسطبل هذه الحجرة أو في اسطبل الحجرة الفوقا، وبغلة عمّي الشيخ في دار عمّي، هنا وراء الحائط الفاصل بين دارهم ودار جدّي التي نحن فيها، ليست في اسطبل بيتهم، فهي مربوطة أمام معلف مليء بالتبن في بناء لم يكتمل وسُقِف بورق تين وخروب يابس فرش على قضبان وعيدان سُلخت من شجر البُطْن والكشن والزنزلخت – ومالت إلى الوراء وأشارت برأسها إلى شجرة عارية وجافة في وسط الحديقة وسمّتها شجرة زنزلخت، وهو، قالت، شجر لا يثمر ولا يؤكل ويحطب وقد تبيت فيه العصافير فجأة وهي تحلّق في الفضاء الواطئ.

ووقفنا في وسط جورة الاسطبل، إذا كان هذا اسطبلًا، وعليّ أن أُدخله في معارف وأسماء جديدة تلقّنني إياها هذه المعلمة المدركة من غير شكّ تفوّق ما تعرف على ما لا أعرف. وتركتُ معها البوابة تنزلق إلى مستقرها، وتسدّ مصدر الضوء خلفنا. ونبّهتني، وهي تكاد تكون لصقي وأحسّ أنفاسها التي تختلط بكلماتها في أذني وأعلى رقبتي، ويدها الرطبة تمسك يدي المستكينة على خدر وخشية من أن تتخلّى عنّي، إلى أنّ العتمة ستغمر الغرفة قبل أن نعتاد عليها وتنجلي، وعليّ ألّا أخاف في الأثناء، والدجاجة النائمة على بيضها تستقبل زوارها المتطفّلين بالمقاقاة المتسارعة وإظهار الاحتجاج على طريقتها، ولكنّها لن تفعل شيئًا غير هذا. وما قالته مها سرعان ما بان صدقه. فالعتمة المخيّمة تبدَّد معظم سوادها، وخرجت غيماتها الملتفّة والمحوِّمة من باطن الرأس وترسّبت في قاع راكد. وتصوَّر في الجهة الأخرى، في مقابلة المدخل والباب، مربع ضوء عكر يغالب حاجزًا زجاجيًا موحلًا، فلا يُرى وراء الشباك الضيّق ومنه إلّا قطعة ضوء معلّقة تطل على قش نافذ الرائحة. وانحسر الشباك النهاري والعتمة المتبدّدة عن طاولة خشب طويلة، متجعّدة الصفحة وغارقة في كراكيب وأجزاء أثاث: عجلات عربة أطفال، وعرى ستائر ممزّقة، وأقدام كراسٍ، وبقايا لحاف مبعوج، ورفش كامل ممدد، وأواني ماءٍ معدنيّة، وأشياء متفرقة أخرى يغلّفها كلّها غبار صفيق. وفي وسط الركام، تقريبًا، كيس أو وعاء كاوتشوك أسود مستدير، على جنبي حرفه أذنان كبيرتان، يسبح فيه طرف شراع أحمر يظهر في موضع ثم يختفي ويعود إلى ظهور

خاطف في موضع آخر. فدلّت عليها مها، ونحن على ثلاث خطى أو أربعٍ منه، بالقول إنه القُفّة التي تبْرُك فيها القرقة، وعُرفُ القرقة هو الشيء الأحمر الطافي والمتنقّل في القفّة...

وأوقفتنا مها بحركة يدها حيث في وسعنا أن نرى القرقة، القلقة العينين والزائغة النظرات، رابخة على قعر القُفّة كلّه وفالشةً ريشها المنتفخ عليه، فلا يبدو منه إلّا تِبْنٌ أصفر قليل لا يغطيه الريش. وأسرّت، وهي تنظر إلى الدجاجة الثقيلة والرافلة في ثوبها الفضفاض وتراقب وقع المشهد عليّ، أنّ حضانة البيض ينبغي ألّا تقلّ عن ثلاثة أسابيع أو واحد وعشرين يومًا، وإذا نهضت الدجاجة قبل تمام أيامها مَوْدَرَ البيض – وظهرت عبارة قرف على شفتيها وهي تقول مودر، وأوكلت إلى العبارة شرح اللفظة القاسية الحروف والمُبهمة –، وقالت: فجفّ زلاله وصفاره ولم يتكوّن منهما فرخ طَيْر بعد، أو مات الفرخ قبل أن تتمّ خلقته ويبس. وأمات شرحُها معنى الحال القبيحة التي يسبّبها قيام الأمّ عن البيض وتركها حضانة صيصانها وأولادها، الفضولَ الحارّ الذي أدخلني، جنبًا إلى جنب مها ومعلَّقًا على شرحها، الحجرة الغامضة والمنطوية على ما هو أغمض منها. والأغمض من الحجرة هو أُنثى الطير التي تهجر صواحبها وأصحابها ورواحها ومجيئها الحائرَيْن في القنّ وخارجه بحثًا عن حبوب وجذور نبات وديدان وعيدان تُسابق عليها. وإلى هذا، تحتفل – بصياحها وولولتها ودحرجتها أصواتًا متقطّعة ومحشرجة في زلعوم متقطّع الأوتار ومجاري الهواء – بالسباق والمنافسة. فتهجر هذا وغيره ثلاثة أرباع الشهر، وتنزوي في موضع قليل لا تغادره في انتظار ولادة صغارها من بيض ليس كلّه بيضها. وربّما انتبهت مها إلى برود انفعالي بمشهد القرقة، بعد شرحها مصير البيض المُموْدر، فنبّهتني إلى افتقار مؤخرة الدجاجة الباركة إلى الريش المنعوف الذي يتوّج مؤخرة إناث الدجاجات والدِّيَكة، وتتمايل به هذه على وقع اختيالها ودبّها على قدميها. وقالت إنّ مثل هذه الدجاجات تسمّى طوْزة. وإلمامي بكلمة لم يسبق لي علم بها ولا بمعناها لم يجدّد حماستي، ولم يتغلب على الفزع الذي خلّفته صورة يباس المولود المنتظر وهو لم يتكوّن بعد.

وفزعي الذي داخله قرف مرغَم لم يحجب عن فضولي الضعيف استدارة الأمّ الحاضنة. وما رأيته عيبًا، أو حسبت من نبرة مها المتردّدة بين السخرية وبين الدهشة أنّه دعوة إلى العيبة، جعله هدوءُ القرقة بعد قلقها وارتخاء ريش

رقبتها وانكماشه، وتوسّعُ دائرة حضانتها، تتمّة مناسبة لهذه التفاصيل وليس نقصًا أو قصورًا. وسبحت الحجرة كلّها في ضوء انبعث من زجاج الشباك تحت القنطرة، وردّد صدى انقشاع الغيم في الخارج. فخرجت إلى البصر جدران الحجرة المتينة، تحت كلس شديد البياض على رغم عروق النيلة التي خُلط الكلس بها. ومع الجدران سقف يربض على عوارض خشب ثخينة وقديمة تتدلّى بينها أكياس قماش وسخة تشبه بطونًا متهدّلة، وأرضيّة ملساء تلتمع بلون زيتي تُركت عليها من غير قصد ولا ترتيب أسرَّةُ حديد عارية، وحُصُرٍ ملفوفة غليظة القشّ وأجزاء آلة تدفئة متفرقة. فعاودني شعور بالدخول في شيء غامض ودافئ، مها هي الوسيط بيني وبينه وجزء عميق منه، وليس عليَّ إلّا تركُ نفسي، حواسي ومشاعري، إليه وإلى استيلائه. فتكون جائزتي ذوباني كلّي في فوار مياه حارّة ومتجدّدة وفقدي إدراكي الجهات ومكاني منها، وتمييزي باطني من الخارج. وخطر لي، على شكل بارق قاطع التمع في ذهني وصدري وأحشائي معًا، أنّ مها على علم بهذا. وعلمها سبق مجيئي وظهورَها لي في فناء الدار تحت عريشة لم ينبت الورق على عروقها بعد، ثم أخذها بيدي وإشهادي على مسرح الطيور الطليقة تمهيدًا لتعريفي بانقطاع إحدى إناثها إلى أمومة مفرطة في حنانها البذيء. وليس طواف ربع ابتسامة بين شفتيها الزهريتين والزرقاوين، وامتقاعُ حبر الضوء في عينين شرهتين يملآن معظم وجهها، إلا علامة ظاهرة على علمها هذا.

وجمدنا، جنبًا إلى جنب، ونحن واقفان خاشعين أمام القفّة في برد الغرفة الجاف وضوئها السابح والمتردّد بين الصلابة القاسية والسيولة المبتذلة. ومن غير أن أرى مها أصابتني ارتجافتها ببرد أحسستُ دبيبه في جسمها وفي جسمي. وأدرتُ وجهي، متعاطفًا، إلى وجهها وعنقها الطويل والناعم. فلم تبادلني إشارة جواب إلّا من طرف عينها. وسرى في حاجبها ورمشها وخدّها وفي رسم شفتيها المتلامستين من غير إطباق، انفراج سرور قد يتحوّل إذا شاءت وحين تواتي الحال، لعبًا ومرحًا، أو هو بداية اللعب المؤجَّل. ومثل مها، نظرتُ أمامي وأضفتُ إلى نظري المستقيم نظرًا جانبيًا أحْوَل مثل نظرها. وحين لمحتها بطرف عيني رأيت على رأسها إكليل عروس وطبقات دانتيل أبيض، تعلو الطبقة منها الطبقة كأدوار الشرفات، وتتوّجها جميعًا طبقة ضيّقة وعالية، وعلى دائر الوجه والعنق، إلى الصدر والكتفين الرقيقتين، خمار من

شبك دقيق يحجب قسمات العروس الفتيّة. فلا أرى، تخمينًا، إلّا طيف هذا الوجه، وتعاقب الضوء والظل على صفحته، واختلاط سكوته بهمهمته.

وهذه الطفلة، في سنّي على الأرجح، ليست مها، أو ينبغي ألّا تكون مها إن صحّ أنّني لم أرَ مها من قبل ولم ترني، هي عالية، على رغم خفائها واحتجاب وجهها وراء الشبكة، زميلتي في المدرسة وفي صفّي، وتُرى قصيرة القامة في الصورة الفوتوغرافية لأنّ حصّة رأسها الكبيرة من قامتها كلّها تقلّل حصّة جسمها إلى كتفيها من طولها. وعالية هي عروسي وأنا عريسها في تمثيلية حفل آخر السنة المدرسية. وأُلبسنا، على سبيل التمثيل، هي طرحة العروس – الإكليل على الرأس ما عدا خصلة شعر طويلة ومعقوفة خارج الإكليل وستارة على الوجه – وأنا بنطلون أسود قصير وقميص بيضاء أُدخل زرّها الأقرب إلى العنق في عروة مقابلة فالتوَت شعبتا القبة، وسُرِّح شعري الملبّد على جهتَيْ مفرقي المستقيم – واستدارةِ خدَّيْ الظاهرة في الصورة الشحيحة الإضاءة والمحترقة الثلث الأدنى، والمنتفخة تحت عين قلقة، ولا بدّ خالط قلقَها، أمام جمهور وصالة خفيا على التصوير، بعضُ الزهو. فقبل دخول المسرح الحار والوقوف في وسطه، وأداء أغنية مع الحركات المناسبة في مديح الزواج والسعادة والوفاء، بداهة، أُدخلنا غرفة في أحد أجنحة المدرسة، وأشرف بعض أهلينا على تمام هندامنا وإعدادنا. ودخل معنا بعض رفاق الصف ورفيقاته، وفي صحبتهم إخوة يكبرونهم سنًّا أضحكهم زيُّنا والحمرة والبودرة والكحل التي زوقتنا ألوانها، وسخِروا من تمثيلنا دور الزوجين. ومع هؤلاء بعض أهل استنكروا ضحك الأولاد وسكَّنوا زعلنا، فملأوا الغرفة، وحالوا دون خلوة عالية وعريسها. والعريس حَسِب أنّ تمثيله الدور الذي أُعطيه يُملِّكه عروسه. ولمّا بادر إخوةٌ وأهلٌ إلى إخراج الجمع من الغرفة الضيّقة والخانقة، أظهر العريس المستعجل ضيقه، وشارك في دعوة زملائه وزميلاته إلى إخلاء الغرفة. وحين كادت تخلو من الفضوليين الساخرين والعابثين، ألحّ العريس على هؤلاء في ترك المكان لخلوته المرجوّة.

والتفت صوب مها مستجيبًا وضعها سبابتها على فمها، وزمّها شفتيها على نحو أبرز امتلاءهما وقشبتهما، وتنبيهها إلى التزام الحذر والصمت. وجدّدت حركتها وهي تنحني قليلًا إلى أمام وتشير إلى كيس ورق مستدير ثُني حرفه على الطاولة قبالتنا، وظهر منه حَبٌّ جاف. وخطت خطوة لم يتعدَّ عرضها

طول القبقاب في قدميها النحيلتين، ومدّت يدًا بطيئة إلى الكيس، وجمعت بين أصابعها، وهي لا تنفكّ تتوجّه إليّ وتدعوني إلى مراقبتها، حبّات قليلة نثرتها داخل القُفّة، وقالت إنّها زوان قمح وشعير وذرة. فأجابت القرقة الحركة بتلفّتٍ غاضب ونفخ الجناحين ومدّ العنق والتحفُّز لإعمال المنقار ومدّ المنقار إلى الحبوب المنثورة، فالانشغال بها والانصراف إليها وحدها. ووقفنا بين جناحي الدجاجة الحاضنة ويديّ القفّة والطاولة المقشورة والرفش والشباك الموحل الضوء وخِرَق الستائر وعارضات السقف وأكياس القماش المتدلّية البطون والمَدْخنة المنزوية والأرضية اللامعة ورائحة الرطوبة الحادة وكأنّنا في قلب مركب حطّمه الموج، ورمى هيكله الضخم على شاطئ جزيرة صخري وأليف. ودخل بعدها الوقت، ودخلت الحوادث في سواد وبياض مَرَضيّيْن يمحوان الأجسام والأشكال، ويطمسانها في عمى لا قاع له.

لم يبقَ في وقت تالٍ من مها ومن الثلج ومن الحجرة التحتا، ولا بقي من اليومين السابقين، شيء. وبدأ يوم، بمفرده، كثير الضوء ومبكر الصباح، لم تجتز الشمس فيه بعدُ سطح الحجرة الفوقانيّة، ولا شاعت في جزء الفناء الشرقي الذي يتقاسمه سطح البئر وحاووز الماء في الزاوية الشرقية الشمالية والمطبخ الذي بُني من طين بالقش، وسُقف بألواح تنك متعرّجة ومائلة، ورُقِّع بابه الخشب بألواح وتدلّى من وسطه مغلاقه الحديد. فوقفتُ بين شباك الحجرة المشرَّع خلفي وبين باب المطبخ أمامي. ويكاد رضًا يشبه الخدر يملأني ويلبسني جلدًا على مقاسي، ويعبئ رأسي بغيم قطني دافئ. وقرفص أمامي، ليسهل عليه وعليَّ مكالمتنا ووجه واحدنا إلى وجه الآخر، الرجل الذي قال في تعريف نفسه إنه أبي ونقلني إلى بيت أخيه، وفي اليوم التالي ركبتُ معه السيارة إلى بلده، وفي اليوم الذي يليه أخذت بيدي بنتٌ في مثل سنّي أو تصغرني قليلًا وسمّت الثلج وقالت إنّها بنت عمّي وأنا ابن عمّها وحيث نحن هو بيت جدّنا المشترك، وصحبتني إلى قنّ دجاج وأرتني قرقة طوزة من غير ريش ذيل تحضن بيضًا يخرج منه قريبًا على قولها صيصان كثيرة. والرجل المقرفص عظْمِيّ الوجه وحليقه، تنمّ قسماته البارزة والمتناسقة، ونظرته المباشرة التي تترصّد قلقةً ويقظةً نظرات الولد قبالته، رجاءً وانتظارًا. وينحيهما، الرجاء والانتظار، ويغلب عليهما سخريةٌ وضحكة تكشف فجأة ومرّة واحدة عن صفّي أسنان كبيرة وصفرٍ، وعن مرارة تطفو على سمرة شفتيه الحادة حالَ ذواءِ

الابتسامة العريضة. ووضع الرجل يده على ذراعي، وهو يتّكئ على ساقه الأخرى ويقدّم ركبة لامستني، وتصفّح وجهي من قرب، وسمعتُ نَفَسَه حارًا يخرج من صدره وفمه وأنفه وتوهّمتُ أنه يلفحني، وخمَّنتُ أنّه يريد تقبيلي ويهم بتقريب شفتيه من خدي، ورأيتُ اللعاب بين باطن شفته السفلى وبين لثّته، فانكمشتُ قرفًا.

ولم أجد ملجأً أحتمي به من أنفاس هذا الرجل، ومن شفته السفلى المندلقة ولعابه وأسنانه. ولم يفتهُ انكماشي، فهو غالَبَ حنقًا على ابنه المتحفّظ ولكان حنقه عاصفًا لو تُرك إلى طبعه ولم يُمسك الرجل عن مجاراة هذا الطبع والانفجار. فارتجفت شفته السفلى، تلك التي تطفو عليها المرارة، قليلًا وأطبقت على صف الأسنان التحتيّ وعلى الشفّة العليا، وخبا التماع العينين، والتفتَ جانبًا، متنصّلًا من إلفةٍ قرَّبت بينه وبيني إلى اللحظة الفائتة، ورأيتها تتبدّد وأنا ألوي رأسي هربًا من إظهاره حنانًا حسبتُ أنه يضطرني إلى تحمُّل لعابه وأنفاسه على خدّي أو عنقي أو أذني. ومن غير أن أعلم ماذا يخسر إذا هو وقف، وتركني حيث أنا وانصرف تمامًا عنّي، أشفقتُ على الرجل الذي خيّبه انقباضي. وأدركتُ أنّ ما أظهرتُ من تجنُّبي علامات عطفه آلمه وأغضبه. وانتبهتُ من غفلتي عن حضور أهل الرجل مشهدَنا. فحولنا تحلّقت امرأتان، واحدة مسنّة وقصيرة ومتلفّعة بثياب سود وغطاء رأس أسود، والأخرى قوية الشبه بالرجل، رأسها صغير قياسًا على قامة طويلة تنتفخ عند البطن بعد خصر دقيق ويزيدها انتفاخًا لبسها تنورة فضفاضة فوق ساقين طويلتين يلفّهما جوربان بلون الجلد. ووقفت مها مع المرأتين صفًا واحدًا. وفي آخر الصف رجل يتّكئ على الحائط ويداه في جيبيه، ويبتسم من غير انقطاع ابتسامًا عريضًا يكشف عن أسنان بيض، ويعض بصفّي اسنانه على أنبوب في آخره سيجارة تومض وتُخرج دخانًا متعرّجًا.

كان هؤلاء شهود الفصل الذي رأيت فيه أبي للمرّة الثانية وحفظت هيأته على الصورة المتقطّعة هذه. وما عدا مها والرجل المتكئ والمبتسم، جارت المرأتان إقبال الرجل عليَّ وسروره وتقرّبه ثم زعله وتنصّله وربّما غضبه. فانطباعاتي الجانبية أو الخلفية ولّدها إحساسي الخالص بانفعالات لا سبيل للتحقُّق منها إلا بإدارة الوجه إلى الخلف. ويلزم إدارةَ الوجه علمٌ بالمكان وبناسه، وجرأة عليه وعليهم. فعلى رغم امتلاء جسمي ورأسي بقوة بعثها نوم

طويل وعميق وبرد شتاء ناعم، وفوق هذين يقين بأنّ الولد الحالي ليس منقطعًا من الولد السابق الذي انتُزع لتوّه من حياة أليفة حارّة وعامرة بروابط البيت والأهل والأصحاب والمدرسة والرحلات بين هذه وبين هؤلاء، قيّدني جهلي بالمكان الذي أنا فيه الآن، وبمحلّه من أماكن أعرفها وبمن هم هؤلاء الناس حولي، وأشعرني ببعض الرخاوة والضعف. ورأيت، حين همّ الرجل قبالتي بترك القرفصاء وتوجّه بوجه خائب إلى الحلقة ورائي، في جيب سترته الرمادية قرب العروة غطاء قلم حبر تطوّقه دوائر زجاجية بنّية ويثبته في الجيب لسان مذهّب. فمددتُ يدي إلى الغطاء، ونزعتُ القلم من الجيب، وتأملته كاملًا، وأطبقتُ عليه بيديّ الاثنتين وشددته على صدري جازمًا في الاستيلاء عليه. فافترّ فم الرجل قبالتي عن ارتياح يفوق دلالة ربّما العبارة المتردّدة والمتواضعة على الوجه. وعاد إليه اطمئنان إلى حقيقة رابطةٍ تربط بيننا، وإلى الجسم وضعُ القرفصاء المتعب. وحاكى بيديه وقسماته، وهو يلعب ويمزح، حركة اللحاق بالقلم واسترداده. وأبقى على الحركة معلّقة وأرفقها بأصوات تسندها: «شِه! شِه!» و«ييه! ييه!». وتعالت خلفي ضحكة مها مكركرة. وتبعتها ضحكة الرجل من الأنف، مختصرة، وبدأ قولًا غلب عليه الضحك وأكَلَه، وعلّقت إحدى المرأتين بصوت دقيق يشبه الصفير:

– منيح! هيّي بيعرف يمزح ويلعب... غير الأوّل...

ووقف أبي وأمسك يدي. فبدا وهو يتوسّط الفناء المشمس طويلًا ورشيقًا وأنيقًا في بدلته وكرافات ياقة قميصه البيضاء، وناسبت هذه شعره الأسود المصفّف والأجعد، المُلتمع بالبريلكريم. ودرنا كلنا صوب باب الحجرة الواطئ، فرأيت من قرب وجوه المرأتين والرجل. وأجمع الثلاثة على استقبالي بودٍّ ظاهر، وإن تباينت عباراته. فالمرأة المسنّة، المتغضّنة الوجه والحائلة لون العينين والمنحنية، أحاطتني عيناها المترجّحتان بين الفضول وبين الحزن بإشفاق أبعدها منّي. فرأيتُ نفسي في مرآة استقبالها المتحفّظ ولدًا خائفًا ينتظر، مثل عصفور غلبه المطر والريح، انطواءَ راحة يد رحيمة عليه، ومرّتَ أصابعُ صديقةٌ على ريشه وعظامه. ولم أرَ لحظتذاك أنّني هذا العصفور. ونبّهتني عينا المرأة المشفقتان والخاليتان من العطف، في وسط وجهها الكثير التجاعيد، إلى حملي في ثناياي الداخلية وضلوعي طائرًا كسيحًا. أمّا المرأة الأخرى، فلم يتكتّم ترحيبها المقتصد والفاحص على اعتيادها ضيوفًا

مثلي، ولا على حفظها، على حدة، احتياطًا وفيرًا من القسوة على هؤلاء الضيوف إذا حان الوقت وحين يحين. ووقف الرجل الشاب يستعرض المارّين إلى الداخل، ثابتًا على ابتسام وانحناءٍ إلى الوراء، ويداه في جيبيه، وفي فمه طرف سيجارة. وحين حاذيتُه، استوقفتني ذراعه على كتفي، ويده على رأسي ثم في شعري، وغمغمته كلامًا غير مفهوم، صادرًا من قاع حنجرته وصدره.

وجلسنا على طراحات فُرشت على أرضية واسعة تراكمت عليها بُسُط صغيرة وحُصُر بعضها غليظ القصب وبعضها الآخر دقيق النسيج كأنّها قماشة لامعة. وخيّم صمت بدا تمهيدًا لكلام أو أمر مهمّ اتّفق الآخرون عليه وأنا موضوعه، وأجهله وحدي. واستنتجتُ هذا من جلوس مها على كرسي قش واطئة بجنب الرجل الباسم، وتنقيلها عينيها بين وجوه الجالسين في انتظار إعلان تتوقّعه ويمتحنها الصبر عليه. وأطرقتُ مقيّدًا بالصمت الذي عمّ الحضور وحجز بينهم وبيني بحاجز مطبق. وحين بادر أبي إلى الكلام، متّكئًا على مسند وراءه وطاويًا ساقيه عند ركبتيه البارزتين، شرد نظره قبل أن يستردّه وحل جِدٌّ متجهّم بقسمات وجهه ووجوه الآخرين. فقال إنّ على نزار، ومرَّ بنظره على المرأتين بجنبه، أن يفهم بوضوح أنّ حياته الماضية انتهت إلى غير رجعة أبدًا، والحياة المائعة التي كان يعيشها مرّة في بيت أهل أمه وبين النساء خالاته، ومرّة في بيت زوج أمه الغريب والعجيب والمتلعثم المتأتئ، ليست الحياة التي تليق بأولادنا وأهلنا، ومن يتربّى في بيتنا عليه أن ينسى تربية من سرقوه وأخذوه من أهله وأصله وبيت أبيه، وحاولوا تلبيسه اسمًا غير اسمه فيظنّ أنّه منهم وليس من أهله الحقيقيين، ولا يعرف أنّه بذلك أصبح أسوأ من اللقيط المجهول الأب وصار مخلوقًا دنيئًا وحقيرًا أو بزَّاقة تزحف مثل المخاط على الأرض وتلتصق بها، ولا عظمة في داخلها تلتفّ حولها وتعطيها كيانًا...

وعادت شفتاه إلى الارتجاف، على نحو ما كان عليه حين حطّت بنا السيارة أمام الدرج المستقيم، وصعدنا إلى بيت أخيه. وفي مطلع كلامه الذي قاله وهو ينظر إلى الشبّاك المطل على الفناء والمطبخ، وعلى وجهه حزن يخالط بشرته، وجوزة زلعومه تضطرب صعودًا ونزولًا، أفهمني أنّني أنا المقصود بما يقول. وفاتني ما يعنيه بالسرقة والاسم والأصل. ولم أفهم ما يعني ومن يعني بالبزّاقة والمخاط ولا كيف يصل هذه بي ويصلني بها. ووجوم المرأتين والرجل الذي يبس ابتسامه، ومها التي عاودتها زرقة البرد فأدخلت يديها تحت فخذيها

وتنورتها، وجوم هؤلاء لم يسعفني على الفهم. وكان قلم الحبر لا يزال في يدي، وألفتُ استقراره بين أصابعي المطبقة عليه. فلمّا ظهر الانفعال على أبي، وكاد يتلجلج في كلامه، قلت ربّما أغضبه أخذي القلم من جيب سترته. فأبرزتُ القلم على مرأى منه وعين الحضور. وكنتُ جالسًا بجنبه، قمتُ واتّكأتُ على ركبتيّ، ورددتُ إليه قلمه وأنا أحسب أنّني أشكره على تركه لي، هذا الوقت، غرضًا أزعجه، على ما بدر من مفاجأته، أخذُه منه. فتردّد قبل أن يمدّ يده بدوره ليستردّ قلمه، واتّسعت عيناه دهشة. واستهلّت يده التي وضعتُ قلمه فيها حركة عصبية صوبي، تُعيد إليَّ ما تخليتُ عنه للتوّ القريب. وبينما لاح على وجهه وفي جلوسه اضطراب من لا يفهم القصد ممّا يرى، ولم يحسم ردّه عليه، انفجر الشهود الأربعة ضاحكين. فسترت المرأة المسنّة بيدها اليمنى فمها الذي انشقّ عن أسنان متآكلة وكبيرة يتقدّمها في الفك الأعلى سنّان متزاحمان ومتراكبان، ومال جلوسها الموارب إلى الاتكاء على المسند قبل اعتداله. وانفرج وجه المرأة الأخرى تحت ملامحه الثابتة والآسية، وأدارته صوب المرأة المسنّة وفحصتها وكأنّها تعاتبها على مماشاتها الهرج الذي شاع في الحاضرين وخاطبتها: «عجبك؟ منيح اللي إجا مين يضحكك يا إمّي!» ولم يمسك الرجل العريض الابتسام عن ضرب يدٍ بيد، ومحاكاة رفع رجليه عن الأرض احتفالًا، والقهقهة المتقطّعة، والميل على جهة مها وإشهادها على «روعة» الحركة، على قوله:

– لو كان أكبر سنتين تلاته، وبعرف أنه بيحضر سينما، كنت أكدت إنه عم يألّد شارلي شابلن... هاي...

– ... خيي رضا ما بيفوِّت خياله شبَه صحيح ولا شبه بيشوفه وحده... علقت المرأة.

وبين التهمة والمزاح، قال أبي وهو ينقّل عينيه بيني وبين رضا والمرأتين:

– خلَقْتُن ببعض لعمك رضا وعمتك فاطمه ولإمّ جواد ستك؟ من طلعتك من الأوّل؟

فردّ رضا:

– شو خص نزار بيللي بيني وبين فاطمه؟ أنا وإختي مش روسيّه بالخليفه بس روسيّه بالطبع... وهـَ الشي من...

– ... بعد إلك نفس تلِتّ الحكاية؟ كم مرة صرت حاكيها؟ قالت فاطمة وهي تدير رأسها صوب أمّها وتشهدها على صدق ملاحظتها. فلما لم تجب الأمّ، وحدّقت في عيني ابنتها صامتة، وعيناها تمسكان دمعًا قديمًا بارقًا، انفجرت فاطمة في أمّها:

– إنتِ بس يحطوك على الزعل والتطليع! مش إنت بتئولي لما رضا ما بيكنش هاون... ليش هالصبي ما بيعرفش يكبر؟ صار محامي ودَرَس ولسان بيعرف يحكي ووجّ حلو متل وجه جدّه، وبيضلّه يتولدن؟ وهاييه عم يتولدن مع ابن خيُّه وإنت مطنّشه لايه؟

– منَيْن ةَ اللسان... سبحان ألله لسان الحيّه مش مسِمّ ةَ الأد...

قالت الأمّ، وهي تشدّ طرف غطاء الرأس على فمها، كما في سرها. فتركت فاطمة الإجابة. وطافت سخرية متشقّية على زاويتي شفتيها المزمومتين، وصرفت وجهها عن جهة أمّها وكأنّها تدير لها ظهرها، وسألت فجأة:

– تعلّمت الئرايه؟ بتعرف تئرا؟

وأشارت إلى خزانتين خشبيتين عاليتين وراءها، صُفّت المساند بإزائهما، ولم أكن انتبهت إليهما، ولم أرَ صلتهما بالقراءة التي تسألني عنها. ولمّا لم يجب أحد، توجّهت بوجهها إليّ:

– شو أطرش؟

وكلّمت أبي:

– لو فحصته أبل ما تجيبه... لما بيتربى ببيت غير أهله مش بس بيضيع أصله، عَ أَوْلة خيي عبدالله، هيأته بيطرش وبيخرس... هاي مها، أزغر من ابن خيي بسنتين، فرْجيه كيف بتعرفي تئري...

فضحك رضا وهو يضع يدًا على كتف مها، مستمهلًا ومهدئًا وقوفها على قدميها وحماستها، وقال:

– ليش مها، يا إختي، مش إنت؟

– لأنه، اسم الله عليك وعلى إخوتك، كان لازم البنت الكبيره، الأمّيّه متلي، تخدم الولاد متل فضلك تيصيروا رجال ويتعلّموا ويروحوا عَ المدارس... وتحملهن عَ خصرها وتشتشهن، وتمشي فيهن رَوْحه مجْيه تَتِطْلع روحها ويناموا تيبطلوا يبكوا من المغص... وتمخطلن لَ ما ياكلوا مخاطن، وكنت تحب

مخاطك، يا خيي يا حبيبي، مخاطك أد الكل، وإمّي تئول: ليش يا فاطمه ةَ الولد بياكل المخاط كأنه عم يرضع من صدري؟... وتنضِّف، إنت أجلّ أدر يا خيي، خراهن اللي بيسلح عَ فخادهن وبيوصل لكعب جرايهن وبيطلع عَ خصرهن، وتغسّل الغيارات بالميّ الغاليه، وتجيب الحطب والبلان للخلئينه... بيكفي هاي لتضلّ الوحده أمّيّه طول العمر، وفَوْءْ هالشي كلّه، بس يكتروا ولاد جواد بالبلد اللي عَ النهر، وتفتر همة مرت جواد تعي يا فاطمة وسافري لوين؟ عَ مدينة النهر طبعًا، وكأنها حد البحر المحطه، والسفر بالصحرا والبولمان مشوار عَ ضهر البغله، ويتعلموا ولاد الشيخ أحمد، أبو جواد وكريم وعبدالله وزينب...

– ... كمان بيِّك؟ لسان...

– ... بعدك آيلتيها! ليش ضليتي ساكته لمّا حكي رضا حكياته اللي كلّها لَأْمنه وعمل حاله مش عارف؟ ما إنتِ بتعرفي أكتر من الكل ليش ما تعلّمت وما رحتش عَ المدرسه، وشو كنت عم ساوي لما ولادك عم يدرسوا بالهنا ويصيروا واحد ورا التاني أساتزه، وهلأ ولاد ولادن وتعتيلن... قالت العمة وهي تتجنّب النظر إلى أبي.

– بلا هالسيره... علّق أبي من غير مبالاة. هلأ مها بتفرجي نزار شو يئرا، وحكي رضا ولدنه... بعد بدك إياه للألم؟ سألني أبي وهو يأخذ خدي بين إصبعين ويفتح عينين قلقتين من غير رموش... بتستعيره جمعه وبتخليه عند عمتك فاطمه...

– ... شو بدها فيه عمته فاطمه...

– ... وبس إرجع من المدينة بترجّعلي ياه، منيح هايك؟ من بكره بتروح عَ المدرسه، عمتك زينب بتكون حكيت اليوم مع الأستاز عبدالكريم مدير مدرسة الصبيان وبيسجلك بصف أعلى من صفّك اللي كنت فيه، وعمك رضا بيساعدك وعمتك وجدك والبائي عليك... من هلأ ورايح هون البيت، وهون المدرسه، وهاو أهلك، رِئت؟ «سافا؟»... وضحك أبي وهو يسألني بالفرنسية عن حالي.

وجمع أبي أغراض سفره، حقيبة يد من جلد ومعطفًا سميكًا. وانحنى على يد أمّه ليقبّلها ويطلب رضاها، فسحبت يدها خفيفةً، وقبّلت رأسه من غير أن تمسّ شفتاها المزمومتان حردًا وهرمًا شعره، وتمتمت «... يرضى عليك!».

وهمّ بأخذ يد فاطمة مازحًا، وقال بصوت صاخب:

– ... رضا ربي وألب فاطمه!

فندّت منها حركة يد عصبيّة، ومالت برأسها إلى خزانة الخشب، واحمرّ جفناها وبرزت عين ظاهرة من محجرها:

– ... لهون وبس!...

فوقف أبي مستقيم الظهر وبيده حقيبته وعلى ذراعه معطفه، والخيبة تقلّص وجهه، واستدار صوب إطار الشباك وبيته وراءه، ورمى الحقيبة والمعطف فيه، وعاد قبالة فاطمة، وسكت لحظة طويلة، وتشارك كلّ من في الغرفة الظليلة وما فيها سكوته المضطرب:

– كنت جبته للصبي وفتّ بهالكركبه المئرفه لو ما حكيتك وحكيت مع خيي أبو جمال؟ شو صاير عليي كلّف حالي وجرجر الولد من بيت لبيت، ومن بلد لبلد ومدرسة لمدرسة، لايش؟ لأنه المحكمه الشرعيه والسيد محسن الخليلي، والناس بتعرف وين بتزوغ عينيه، حكم لي بالحضانه، يا فرحتي!... إنتِ وأبو جمال، مش هيك يا إمّي، جيتوا بفكرة إنه الصبي وإخته لازم يعيشوا مع بيّهن، وببيت بيّهن، هايك الأصول وهايك الصحيح...

– ... ومش هايك الأصول ومش هايك الصحيح... هايك غلط؟ ردت فاطمة، وأدارت رأسها الوقت الذي دامه تلفُّظها بكلامها، ثم رجعت إلى وضع جلوسها المنتحي. ووقف رضا، وخطا خطوة صوب الباب ودعا أخاه وأخته إلى الخروج والتمتُّع بالشمس والدفء قبل عودة الغيم وندم السماء على زرقة لا يُحسن الناس استعمالها. فلم ينتبه إليه أحد.

– ... نعم! هايك صح، كان صح وبعده صح... بس الصبي والبنت بدهن بيت، والبيت بدّه مرا...

– ... والطاحونه مسكّره... علّق رضا وهو يسرع إلى الباب. وضحكت مها فنهرتها عمتها:

– ... إنت تخيبي... بلا فهم...

– ... منين بجيب مرا بين يوم والتاني؟ تابع أبي، متناسيًا تعليق رضا وأخته وغافلًا عن ضحك مها. زلمي عمره تلاتة وتلاتين سنة وتزوج وترك وعنده ولدين وعايش لحاله ببيت بلا عفش...

– ... هاول النسوان اللي بتكتبلن وبيكتبولك، شي بمصر شي بالعراق، ومتلك بيكتبوا بالجرايد والمجلات... من كم يوم كانت زينب أختك عم تئرا عَ صوت عالي مكتوب من المرا اللي بتكتب شعر وبتزور بيت خيك ببغداد

وبيحبوها بنات خيك، كتبت إنها عايشة متل اللي مش عايشة لأنكن بعاد عن بعض... عال! تجي تعيش متل اللي عايشين، ويلعن البعد ويللي بيبعدوا! العواطف بس من بعيد وبالمكاتيب!

– لا حول ولا... شو بيعرِّف ملاك بالبيوت والخبز والعجن والكوي...

– ... وتشطيف الولاد... والكناسه والتمسيح عَ فاطمه...

– ... خلينا بلا الولاد... صار المخلوءه عمرها أربعين سنه لا تزوجت ولا فكّرت بالزواج وعايشة عند أهلها ومع إخوتها وكلهن عزّابي وواحد منهن واعِد بنت خيك من عشر سنين... ولما الواحد بيكتب، وخصوصًا إن كان وحده، مش معناها إنه اللي عم تكتبه لح ترتب حياتها عَ أساسه ومتله...

– ... إنت أعلم...

– ... ولما إنت وخيي أبو جمال حكينا إنه ما بيصير يضلوا الولاد عند أمهن بعد ما تزوّجت وعايشه ببيته للرّجال، ما حدا فتح سيرة زواج خيِّك...

– ... إنت نسيت...

– شو نسيت؟

– نسيت إنك إلت كم شهر وبترجعي يا أختي عَ بلدك وعَ بيتك وحد أهلك... وإنه يمكن تئنع معك الصبيّه اللي مستأجر ببيروت عند إخوتها وتتزوجوا بعد كم شهر، وبتعرفوا بعض من سنين ومين إنت ومين هنّي... وإلت إنه لح يصير عمرها ثلاثين سنه وطول عمرها عايشي مع خيها وخيها التاني، ومن لما ماتت أمهن وكانوا صغار وما حدا منهن بيعرف ياكل أو يضهر أو ينام لحاله دون البائيين...

وناقش الأخ والأخت بعض الوقت خلافهما الذي بدا بعضه غامضًا. ففاطمة، على ما فهمت من أقوالها الحانقة، كانت وعدت أخاها بالإقامة معه، وتدبير بيته الذي ينبغي أن يجمعنا، أختي وأنا، إليهما، ويقوم غير بعيد من بيت أخيهما، كريم، أبو جمال. واشترطت فاطمة – لقاء سفرها إلى الرواحنة، والإقامة غريبةً لا إنسيًّا فيها تصبّحه وتمسّيه، أو يصبّحها ويمسّيها، إلّا بيت أخيها الآخر، القريب والمحبّب إلى قلبها ومزاجها ولا عيب فيه إلّا زوجته الساكتة معظم الوقت والساهية عن الدنيا حولها والكثيرة الولادات المتعاقبة – اشترطت ألّا تزيد إقامتها في غربتها عن الأشهر الباقية من السنة المدرسية. وفي أثناء الأشهر الستة أو السبعة المتبقية على دخول السنة المدرسية القادمة،

وتحصى فيها أشهر الصيف، على عبدالله أن يتدبّر أمره ويعثر على امرأة «أصليّة» وليس «إعارة»، على قول فاطمة، تتولّى شؤون بيته وولديه على باب العام. فتحرّرها من الغربة والإقامة بين ناس لا تفهم عليهم ولا يفهمون عليها، أبواب بيوتهم مردودة، ووجوههم مهمومة، وإذا تكلّموا خرجت الألفاظ من أفواههم بالورب، وطعامهم لا يؤكل لكثرة السمن فيه وكأنّهم يشبعون مِعدهم من السمن ويوفّرون مواد الطعام، وهي لم تذقه، فهم لا يَدْعون غريبًا إلى مائدتهم، فقدّرت ذلك من روائح البصل المحروق التي تنبعث من بيوتهم، إذا هم فتحوها اضطرارًا. ولكنّ أبي أخلف وعده على زعمها فلم يؤجّر بعد بيتًا قرب منزل أخيه، ولا يزال يقيم إلى اليوم على الكنبة الضيّقة في بيت الإخوة الثلاثة. وهم نزلوا له عن شرفة زجّجوها له، من إيجاره الذي يسدّده وليس من جيبهم، ورضي بالنوم أشهرًا على الكنبة حتى قبل أن يركّبوا ستارة معدنيّة تحجب النائم عن أعين الجيران الكثيرة وعن شرفاتهم المطلّة كالأفواه الفاغرة من أربع نواحي الحوش عليه. ويحسب أنّ هذا المكان الضيق الذي تخرج روائح المطبخ منه إلى الخلاء، وهو منشر غسيل الشقة القديمة والمعتمة، يصلح مسكنًا تقيم فيه عائلة. ولكنّه يعلم أنّ كنبته وشرفته لا تصلحان مسكنًا، لا اليوم ولا بعده.

ولعلّ السبب في تردّده هو إحاطة الإخوة الثلاثة إيّاه بعواطف حارّة وخالصة، لوجه الله على وصف فاطمة أو رضا أو ربّما أمّ جواد الساخر، لا ترى فاطمة ما يسوّغها. فأخوها عبدالله لا يتشارك والإخوة الثلاثة شيئًا تقريبًا: الأَخَوان قَدِما المدينة في انتظار عمل لا يعلمان ما عساه يكون، يميل كبيرهم إلى التمثيل القنصلي وقد يحول دون أمنيته تقديم استقالته من المدرسة، في روايته، بعد رسوبه مرّتين في السنة المتوسطة الثانية وضعف إلمامه بالإسبانية، على رغم إقامته سنتين ونصف سنة في الأرجنتين مهاجرًا وتاجرًا في بلدٍ أهله كلّهم خواجات ونشّالون معًا وعاد هو منه راكضًا في الطائرة خوفًا على سويّة أخلاق العاملات. ولا يعلم الثاني ما يريد وهو لا يستحي من الإجابة عن السؤال الذي يلاحقه، ويثير فيه حنقًا خفيفًا يحمرّ له خدّاه الكرويان وصفحة جبهته المنحنية سرعان ما يتبدّد، بأنّ التفكير في الأمر مجهد، ولا جدوى فيه فالمقادير هي الحاسمة ولا بأس بوظيفة حارس بلدي نهاري طبعًا على مقاس شهادته الابتدائية. والأخت رافقت وترافق أخويها وحبيبيها وطفليها

وتاج رأسها، بل تاجَي رأسها لو عاد أمر التتويج إليها، فكلّ أخ شقيق من الإثنين يستحقّ وحده رأسًا وتاجًا، ولا تطيق ولو على سبيل التخيُّل أو رغمًا عنها في المنام أن تعتني بعبد المنعم وعبد الكبير امرأة غيرها بعد أن عهدت إليها بالمهمة العظيمة والحلوة على قلبها المرحومةُ والدتها. وهؤلاء الثلاثة حضنوا عبدالله لما زارهم ساعيًا في إقامة مشتركة في أسرة لقاء مقاسمتها أعباء الإيجار والتوابع، وربّما الطعام إذا لم تحُل عادات وضوابط عملية دون ذلك. وحاط الثلاثة، من تلقائهم ومن غير مشاورة، ضيفهم المتحفّظ الذي يكبر عبد المنعم بكرهم بنحو سبعة أعوام أو ثمانية، بإعجابٍ حارّ حالَ معرفتهم بأنّ المعلّم الابتدائي يوقّع باسمه مقالات في مجلات أدبية وصحف لم يسمعوا بها من قبل، وأخبرهم أنّه يكتب كتابًا في مسألة نسوا ما هي وهو لم ينتهِ بعد من تسميتها، ولكنّهم حفظوا أنّ مُساكنهم مؤلف وكاتب وأديب، أي أنّه عالم مثل أبيهم الشيخ ولكن من صنف جديد. وهو قبل هذا وبعده موظّف، راتبه ثابت ويتقاضاه من غير شكّ ولا سؤال، وفي كلّ الظروف، اليوم الأوّل من الشهر، ولقاء عمل الشهر الآتي، على ما شرح المستأجر متواضعًا لمؤجّريه.

فمزجوا كلّ هذا، الشعور العائلي بالقرب والإعجاب بشيوع الاسم والأنس بغريب رفع تكاليف الغربة منذ أن دخل الباب وقال إنّ أصحابًا أشاروا عليه بسؤالهم عن قبولهم مساكنًا شريكًا. فلم يشكّوا منذ اللحظة الأولى، وتعريف صاحبهم الجديد بنفسه، في أنّ صاحبهم أكبر كاتب بل أكبر أديب في البلد أو في البلدان، من غير نسبة. وتناقلوا هذا الوصف في أحاديثهم مع من يعرفون ولا يعرفون. وحين عزم عبد المنعم، بعد عشرة أعوام أو أكثر على نزول عبد الله، أبي، لهم على خطبة امرأة شابة أنيقة في سنه أو أكبر منه بأشهر، متوسطة الجمال وعلى سُمرة ونحل ومن عائلة عريقة أو كانت عريقة، أصرّ على تصدّر أبي الوفد الذي أوكل إليه طلب يد المرأة، واحتجّ للصدارة بإحجام أبيه الشيخ عبد المطلب عن مغادرة دارته والضيعة في الأحوال كلّها، وقسمه على ذلك. وبادل أبي مودة مؤجّريه الغامرة بما أراده مثلها أو يشبهها. فقال إنّهم أروع مضيفين وأكرم إخوة وأحبّ جُلساء وألذّ مؤاكلين، وأمتع من يُقيّض لواحد من الناس أن يلعب معهم ورق الشدّة أو حتى البرجيس. وسابَقَ معجبيه المنزليّين على إعلان العواطف، والتلويح بها، والقول إنّها من طينة واحدة، طينة البساطة والعفوية والصدق النابع من القلب والطبع. وكان هذا، على

أغلب ظنّ الراوي وتأويله المتأخّرين وقتًا، ردّ جواب عبد الله على شكّ أهله، وأهله ومراقبوه هم أوّلًا وعلى الأخص كريم وفاطمة، في حقيقة العواطف المتبادلة بين أخيهم الذي تسكنه أحلام الاصطفاء والإلهام المجنونة، بعض الشيء، وبين جماعة من البسطاء الجاهلين والبطّالين والمتعيّشين على فتات ميراث كانوا بدّدوه منذ زمن لولا حرص والدهم المسنّ على توريث زوجته الثانية الفتيّة وولديه منها. وكان زواج أبي بأخت عبد المنعم وعبد الكبير، العبدين على قول فاطمة الذي يحاكي الشتيمة، سلمى، بعد نحو تسع سنوات من مجادلة الأخ والأخت. وكانت سلمى بلغت الخامسة والثلاثين وتزوّج أخواها، وبلغ أبي نحو الخامسة والأربعين.

أمّا الإشارة إلى مراسِلات يكاتبن أبي ويكاتبهنّ، ويصلحن على زعم فاطمة الغاضب والساخر زوجات على أخيها اختيار واحدة منهنّ وانتخابها زوجة، فلم تبقَ لغزًا وقتًا طويلًا. فغداة فصلي الربيع والصيف اللذين قضيتهما في البلدة الكبيرة وبيت أهل أبي ودور العائلة، وفي مدرسة البلدة، نزولًا على رفض فاطمة القاطع الرواح إلى المدينة والإقامة ببيت لم يبادر أخوها إلى إيجاره بعد، ولا يعلم عنه أحد شيئًا غير موقعه بجوار منزل أبي جمال، غداة هذا أجَّر أبي أخيرًا المنزل المنتظر. وهو أجّره نزولًا على إرادة مدبّرة البيت في الرواحنة، وعلى بُعد عشرات الأمتار من أبي جمال وأسرته وبناته. فهذا، عمّي، لم تلد له أمّ جمال، إلى بكرهما، صبيانًا يعدل عددهم البنات الثلاث اللاتي وضعتهنّ امرأته تباعًا، إلّا في الجزء الثاني من حياة الزوجين، على قول فاطمة، مرتّبةً الحياة على أجزاء الكتب المدرسية التي يؤلفها أخوها الأثير. وفي الأثناء، أي غداة عقد وبعض العقد، تزوّجت اثنتان من الثلاث، وباشرتا ولادة الأبناء والبنات في صحبة أمّهما، وفي وقت واحد تقريبًا معها. ولم يدم الجوار الدافئ والمصبِّر على فراق أهل لا يطاقون، لا تطيقهم فاطمة، إلّا أسابيع قليلة محاها الوقت وفجواته، ولم يبق منها أثر يُروى ويعود على بدء. فالعمّ حمل رحله وأهله قبل نزولنا بجواره أو بعده بقليل، وانتقل به وبهم إلى محطة قريبة على طريق المدينة الكبيرة، البياري. ولم يُلمّح أحد إلى علاقة الانتقال بسكننا، سكن أبي ونحن معه، فاطمة وأختي مروة من بعدي. والأرجح أنّ مثل هذه العلاقة ظنٌّ وتخمين خالصان. فأبو جمال لم ينفكّ طوال السنوات العشر اللاحقة يخطو الخطوة تلو الخطوة، والبيت تلو البيت، ميمّمًا وجهه

وعائلته وراءه صوب المدينة، وساعيًا في دخولها من طريق ضواحيها المتعاقبة على شاكلة حلقات السلسلة، إلى أن بلغ فعلًا قلبها أو الحيّ الذي يقيم به أهلها الأوائل، المتحدّرون من أوائل متحدّرين من سلف أوّل.

ولم يعرقل انتقال أبي جمال إلى محطته الجديدة زياراتُنا المتواترة إليه. وهذه الزيارات، في أيّام العطل الأسبوعية وفي أواخر بعض أيّام الأسبوع المدرسية، لم تكن متبادلة. فنحن الزائرون على الدوام، من غير استثناء، ولا نُزار، لا يزورنا أحد من بيت عمّي، ونزوره حين نفعل من غير أبي. ولم يتكلّم أحد في الأمر، لا تلميحًا ولا تصريحًا. ولكنّ برمًا وعتبًا شديدين دَاخَلا وجه عمّتي وصبغا ملامحه بمرارة تكاد تكون سوداء، وقلّصاه إلى مجسّم وجهٍ واستقرّا فيه. وكان هذا يظهر في بعض الأماسي، حين عودتنا من المدرسة. فنلفي عمّتنا بخيلة الكلام ما وسعها، مطبقة الشفتين الرقيقتين والجافتين، وتجيب إذا اضطرها إلحاح أحدنا أو خشيت ضررًا قد يترتب على خرسها، بإيماءة مختصرة باليد أو بالشفتين وبوميض العينين، وتتوكأ على حرفين أو ثلاثة من لفظة تبلع ما بقي من حروفها، ويخرج ما تفرج عنه صغيرًا أو صرخة مكبوتة وزفرة، بحسب الأحوال. وغالبًا ما وقّتت دعوتها إيّانا إلى حمل كلاكيشنا، بعض جهازنا المدرسي من دفاتر وأقلام وكتب، ولبس الحذاء والثياب اللائقة والمشي في إثرها إلى بيت أخيها، في الوقت الذي وصفته بالكئيب وهي تكلّم أبا جمال أو زوجته أو بكر أبنائهما. وكنّا، أختي وأنا، نستثقل الرواح إلى بيت عمّنا حين عودتنا من المدرسة بعد تكاثر دعواتها إليه. وزيارات أيّام العطل نفسها خسرت بعض غوايتها بعد التعرُّف بأولاد جيران جمع اللعب بيننا وبينهم، ثم مع استكشافنا البيت الذي نقيم فيه والتحري عن بعض ما يخبّئ.

في بعض ظهر يوم عطلة أسبوعية، غادرت فاطمة وحدها البيت. ولمّا سألتنا بلهجة فظة عمّا إذا كنا نود مرافقتها، على خلاف عادتها الآمرة، وانتبهنا إلى أنّ السؤال يشبه دعوة مُضمرة إلى رفض المرافقة، ولاحظنا أنّ أبي لم يخرج من غرفته لا في الأثناء ولا قبلها، ورائحة البن وسجائر اللف تملأ البيت، قلنا فرِحَيْن إنّنا نرغب في اللعب حيث نحن. فلم تحذّرنا من كوارث يجرّها علينا ضعف حيلتنا في معالجة حوادث لا محالة طارئة مثل انفجار بابور الكاز أو طوفان حاووز الماء على التتخيتة ثم على البيت كلّه، أو طفرة الفئران من جورة بيت الماء أو بيت الخلاء واجتياحها الغرف ومن فيها، أو الموت جوعًا في

غياب من يطبخ ومن يُطعم. غادرت فاطمة من غير تخويف ولا إغراء، وصفقت الباب وراءها نصف صفقة كانت كافية لترمي النقزة فينا من غير أن تكبح سرورًا مطمئنًا ومتواطئًا خيّم علينا حال إيقاننا بأنّ العمّة، النّاقمة والعاتبة على ولَدَيْ أخيها وعلى أخيها على الأرجح، ذهبت لبعض الوقت. وأقلقنا قلقًا خفيفًا، سرعان ما مرّ، سكون الغرفة التي ينفرد بها أبي، بينما نقتسم نحن الثلاثة حجرة كبيرة تتوسّط الممرّ، بين باب المدخل وبين الداخل، والمطبخ، وشرفة الشقة الغربية، وغرفة نوم ربّ البيت. وغلبنا سريعًا إحساس بتحرّرنا من قيود العمّة ومراقبتها الصارمة على حركاتنا وسكناتنا، وأحكامها القاطعة والصاخبة في لفتاتنا وأقوالنا. وقصدنا، ربّما عن تصوّر مبيّت، المطبخ. وأضأنا لمبته العارية، والمتدلّية من طرف شريط ملتفّ ملأه الذباب بقايا وسخة.

ووضعتُ إحدى قدميّ على درجة السُلّم الخشبيّ أمام باب الحمّام، وأمسكتُ بيديَّ الدرجة التي تقابل رأسي، والتفتُّ مزهوًا إلى أختي الواقفة ورائي وقريبًا منّي. فنقّلت نظرها بيني وبين أعلى السلّم، بإزاء حافة التتخيتة، وخالط إعجابها بأخيها بعض القلق عليه. واستغرق استعراضي وقتًا خاطفًا ملأ بعضه استراق سمعي صدى حركة قد تصدر عن ناحية من نواحي البيت الأخرى، حيث أبي والباب الخارجي. وأتممتُ صعودي السلّم. وانكمشتُ حين لمست أصابعي وبطن يدي أرض التتخيتة، وغرقت في طبقة غبار رخوة حوّلت الرطوبة بعض مواضعها وحلًا. ومن طريق اللمس وحده أدركت الأصابع من تلقائها، ومن غير أن يسعفها النظر، لون طبقة الغبار الرمادي، وقرابته بلون الجراذين التي تركض، وأنوفها تشمّ الأرض وعينها تدور جانبًا في محجرها أسفل جدران الحمّامات. وبعد قرف أول، أطللتُ على التتخيتة كلّها. ورأيتُ في ضوء نافذة مستطيلة وضيّقة تتوسط الجدار، وفي ضوء اللمبة المضاءة ورائي، صناديق مختلطة، بعضها من خشب وفيها خليط من أواني المطبخ البلاستيك والفخار والزجاج وسماور فضيّ صغير، وبعضها من كرتون أسمر داكن السمرة أو مشوب بحمرة خفيّة، تخرج منها أوراق وأغلفة دفاتر.

واستدرتُ حذرًا على عقبي، وسندتُ قفاي إلى السلّم، وأشرفتُ على التتخيتة وحيطان المطبخ وأرضه معًا، وعلى أختي الواقفة أسفل السلم ويدها تُمسك إحدى درجاته وعيناها معلّقتان قلقًا حيث أنا. وحين ثبتُّ في موقفي وركنتُ إليه قالت أختي مختالة إنها منعت السلّم بيديها من الاختلال وربّما من

الوقوع، وأنا معه. ولما لم أجبها بشكرها، ردّدت ما قالته. فمدحت صنيعها. وقبل أن أنتقل من السلّم إلى أرضية التتخيتة وصفتُ بصوتٍ مسموع الأشياء الغريبة التي كُدّست في صناديق الخشب والكرتون ولا يُرى منها إلّا القليل والمألوف، بينما يبدو من غير شكّ أنّها تحتوي على عجائب تُشتهى وهي في متناولنا، وعليها أن تتبعني. ولكن لا بأس بإلقائها عينًا على غرفة والدنا قبل أن تتسلّق إلى حيث أنا، إذا شاءت وقدرت. ففعلت متحمّسة ومتحدّية. ولم تكد تغيب عني وراء درفة المطبخ المغلقة حتى ظهرت من جديد، وطمأنتني إلى أنّها لم تسمع حركة وراء الباب، وهي تريد اللحاق بي فعلًا، وهذا لا يفوق قدرتها ما دام أنّه لم يفق قدرتي، فما أقدر عليه أنا تقدر عليه هي، ولست أكبرها إلّا بأقلّ من سنتين.

فركعتُ على ركبتيّ ووضعت راحتَيْ يديّ على الأرض أمامي، وزحفتُ خطوتين على الأربع، ووزّعت قلقي على السلّم الذي بدأت مروة مستخفّة تتسلّق درجاته المتباعدة، وعلى الغبار المتراكم والبادي الأثر في ملمس راحتي. ونبّهتُ مروة إلى ما ينتظرها حين تبلغ أعلى السلّم. ودعوتُها إلى إعداد ركبتيها ويديها وثيابها للسباحة فيما أنا أسبح فيه، وإعداد نفسها لصراخ عمّتنا فاطمة عليها حين تعود وتشاهد حالها. وكنتُ أحسب وأنا أكلّم مروة بصوتٍ عالٍ أنها لا تزال في أسفل درجات السلّم، فلما أجابت أنّها لا تخاف صراخ عمتها، وهذا الصراخ مقسوم علينا نحن الإثنين وحصّتها منه لا تزيد عن حصّتي، جاء صوتها قريبًا منّي. وإذا يدها ورائي، وتدعوني لكزتها إلى اقتسام المكان بيننا وإخلاء جزء منه لقعودها. وأردتُ إقناعها بالبقاء حيث هي، فأتولى أنا تقريب الصناديق منها، وإخراج ما تحتويه وفرده أمامها. فيكون في متناولها، وتتجنّب بهذه الحال لمَّ التراب والرمل على ساقيها وركبتيها، وتدلّي خيوط العنكبوت على رأسها ووجهها، وإيلام البحص المدبّب ووخزه ركبتيِ الراكع عليه أو قفا الجالس. ولم تُجب مروة رجائي ولا بالت بتحذيري. فدبّت على راحتيها وركبتيها، مثلما رأتني ربّما أفعل قبل لحظة، وشدّت فستانها الزهري وغطّت بحركة خاطفة فخذيها وهي تلاقي نظري وانتباهي وتحاول اعتراضهما وصدّهما. وجلست على قفاها وهي تغالب ظهور عبارة اغتباط على وجهها. وتردّد اغتباطها فيَّ على صورة انتصار وزهوٍ، وأرادت مدّ يدها إلى صندوق ورائي وكأنّ في وسع ذراعها القصيرة بلوغه. فتركتها تميل عليَّ وجاريت

حركتها وملتُ معها. فلمّا التصقت بي أحسستُ بطراوة جسمها، ووطأة طراوته الحييّة داخل جلدي وفي نفس نفسي. فكركرت ضحكة مائيّة وصافية من وجهها وجسمها معًا. واهتزّت كلّها وهي تتعمّد الالتصاق بي. وصحب ضحكها تعليلها له بحسبانها أنّ يدها طويلة وتستطيع أن تبلغ أعلى الشجرة وتقطف ثمارها وهي مستلقية على جذعها، وأنا علّلت ضحكي بتصديقي زعمها أوّلًا قبل أن تُدرك بنفسها قصورها. ونسينا معًا حنقنا واحدنا على الآخر، نسيتُ أنا إلحاحها في محاكاة ما أصنع ومساواة نفسها بي. ونسيتْ هي، على ما رَجَوْتُ، إدلالي بامتيازي أو امتيازاتي بسبب سَبَقَي السنّ والذّكورة.

وآخى بيننا الضحك واللعب والتآمر في غياب الأهل. وتمادينا في الضحك بعد أن فقدنا الرغبة فيه والهمّة عليه. وصار واحدنا يرمي جسمه كلّه على الآخر مفتعلًا التفتفة باللسان وهزّ الرأس والدوران به، والتشبير باليدين في كل الجهات، والخبط بالفخذين والساقين على الأرض. وعفرنا أيدينا في مزيج الغبار والتراب وذرّات الكاز المحترق في البابور على المجلى وفي الحمام. ومددنا السيقان على المزيج هذا. وتشاركنا، على ظنّي، اختلاط القرف ممّا نفعل ونحن فيه بإرهاق عرّى أعصابنا وحملنا على البكاء والضحك من غير علّة. فأصابنا، في وقت واحد، همود لم ندرِ كيف نخرج منه، وإلامَ نخرج. وبدا على وجه مروة انكسار خائب، واستندت إلى كفّيها، وأخّرت كتفيها كمن يريد التوجّه إلى رأس السلّم والتخلي عن حصّته من التتخيتة، ومن اللعب، وقالت إنّها تعبت، ولا شيء يستحق البقاء هنا، ونحن لا نلعب ولا نرى بماذا نلعب. فاستوقفتها بيدي على كتفها، واستدرتُ صوب صندوقين خلفي وفي متناولي، واستطلتُ راكعًا على ركبتيّ ما طالته يداي من أشياء محشورة فيهما: كرّاسات مطبوعة من غير غلافات، وأوراق ملوّنة بعضها ظاهر من مغلّفات بريديّة ممزّقة، ومناشف مكرمشة عليها بقع حمر وسود وصفر، وقطع صابون مكعّبة وجافّة، وعلبة علكة صفراء فارغة، وساعة يد من بلاستيك، وخرقتي قميصين داخليين من غير كمّ، وضمّادات جروح، وقارورة عطر نيلية الزرقة، وإبريق شاي مقوّر من غير غطاء... وعمدتُ إلى نشر هذه الأغراض والتدليل عليها قبل رميها وتكديسها، وإلى تسميتها بصوت عالٍ يعلن ظهورها ويُشهد مروة عليه. وأرفقتُ النشر والتلويح والتسمية بالتفافة صوب رفيقة اللعب المتحفّظة. واستدرجها إخراج ركام الأشياء هذا من بطن الصناديق الخفيّ،

وعرض الأشياء على أسمائها. فاستوت بدورها على ركبتيها، وعاودها سرورها وهي تلوّح فوق رأسينا بقطعة معدن ينزلق عليها عقِبُ القدم حين يُدخَل في الحذاء.

وراح كلانا ينبش ما في الصناديق، صندوقًا بعد آخر، من بقايا حراتيق مهملة، ويُستِّفها في كتلة على حدة وهو يكاد يصرخ باسمها، ويدعو شريكه إلى مراعاة الهدوء ويلمّح إلى الجهة التي لا يزال أبي على الأرجح معتصمًا فيها. وفي قعر صندوق كرتون عميق اضطررتُ أنا بيدي الطويلة، مستجيبًا دعوة مروة، إلى سبره، ركدَتْ مغلّفات بريدية وأوراق رسائل كثيرة مرّ مثلها متفرّقًا من قبل. فاستوقفنا عددها أولًا، وحرص مودعها الظاهر على إبعادها من فضول المتطفّلين. ونبّهتُ مروة إلى أنّ هذه الكدسة من الأوراق قد تكون كنزًا خفيًّا في متناولنا، وما علينا إلّا أن نفكّ سرّه لنفوز به. فردّت بأنّ الكنوز لا تكون من ورق، وليست كنوزًا إن لم تكن من ذهب خالص، وأنا أوهمها بخلاف ذلك لأنّني سئمت اللعب، وأريد قراءة الأوراق فأستغني بها عن اللعب مع البنت الصغيرة التي لا تفهم. فلم أسترضِها ولم أحاول إقناعها بغلط ظنّها.

واستوقفني سماعي أصواتًا خافية ونحيلة صادرة عن موضع غامض بين الصناديق أو فيها. فأشهدتُ مروة، العائدة إلى انزوائها وتهديدها بنزول السلّم وانسحابها من التتخيتة وصناديقها، على غرابة الأصوات وظهورها في هذا الوقت، بينما نحن، هي وأنا، على وشك فكّ سره. وتردّد وجهها في ضوء عينيها الطافح بين استرسال ساخرٍ وبين إمساك متهيّب، فسكنتْ وانتظرتْ. وانهمكتُ بالتحرّي عن مصدر الأصوات، وأزحتُ الصناديق القريبة عن محالها. ونحّيتُ أغطيتها، وانثنيتُ إلى الوراء، وصنعتُ الشيء نفسه في صناديق خلفي. وفي الأثناء، ضعفت الأصوات أو تقلّصت. وميّزت أذني كثرة مصادرها حين تعاقَبَت صوتًا بعد صوت، وانقطع صوت ومدّ صوت آخر. ولم تنفع الحركات المضطربة على غير هدى في الدلالة إلى المصدر أو المصادر. وظهرت بوادر بكاء على وجه مروة. فنصحتها بنزول الدرج على مهل وحذر، وهكذا تترك لي وحدي معرفة ما في الأوراق، ومن أين تأتي الأصوات الضعيفة وغير المؤذية حتمًا، فمثلها لا يمكن أن يكون صاحبُه إلا شيئًا ضئيلًا ولا يستطيع إيذاء أحدٍ ولو كان شديد الخوف مثلها، وفي الأحوال كلّها لا بأس بشهودها من بعيد على ما أنوي صنعه وحدي، ولن أخفي عنها شيئًا ممّا أقع عليه، وإذا أصابني أذىً انحصر

بي ونجت هي وأعلمت أبي بذلك فلعله هو ينجدني وينقذني بدلًا من أختي المتخاذلة والمتخلّية عن أخيها.

ونويت المضيّ على إيلامها والثأر من خوفها، ومن انتقال عدواه إليّ. إلّا أنّها لم تنتظر تتمّة تداعياتي ونُذُري بالمصائب الواقعة عليها وعليَّ بسبب فصمها صحبتنا. فاتكأت على راحتيها، ودبّت على ركبتيها، ومرّت بجنبي من غير أن يبدو عليها، ما عدا زمّها فمها وتجميدها نظرها، أنّها تمرّ بأحد. وأولت السلّم وجهها ونزلت درجاته وخفيت عنّي الوقت الذي استغرقته الدرجات الثلاث أو الأربع الأخيرة. وعادت إلى الظهور وهي تتوسط المطبخ، وتعقد ذراعيها على صدرها، وترفع رأسها صوبي وتمدّ لسانها وذقنها، وتشدّ جسمها كلّه، وتوالي الاتكاء العصبي على قدم ثم على الأخرى تحدّيًا. فتعرض بقعَ الغبار الرمادية في وسط جبهتها وعلى أنفها وذقنها وكمَّيْها ومواضع متفرّقة من فستانها، من غير أن تعلم أو تبالي. ولمّا أردتُ إعلان سخريتي بها، وتعييري إياها بالخوف والهرب، انقلبت شماتتي في اللحظة، وأنا أرى مروة ورقة سقطت من شجرة وعارية إلا من اعتدادها، ومن غير أن أنتبه إلى الانقلاب، حنانًا أليمًا وإعجابًا بها ينوء بتحمّل تبعتها. ولبثنا بعض الوقت يُثبت واحدنا الآخر، وكلانا يُظهر التحدّي والحطّ على العين، بينما يحسّ تسلُّلَ الابتسام من نواحي الوجه إلى العينين والشفتين ويشهد انفراجه وانبساطه قبل تناثره ضحكًا. وقلت لها إن كان يرضيها أن تبقى حيث هي وتراقب ما أفعل، فلتبقَ، وإن رغبت في العودة إلى التتخيتة فلا بأس بذلك، وننسى الخوف والضعف والهرب ونرجع أخَويْن. فقالت إنّها تركت اللعب معي ضجرًا وليس بسبب شيء آخر. ولاحظَت، وهي تكلّمني وتحني رأسها، ما علق بفستانها. فتابعت كلامها وهي تنفض الوسخ عنها، وقالت إنّها باقية حيث هي، وقد تلقي نظرة عليَّ، لكنّها ربما فكّرت في تسلية أخرى. أي أنّها تعود إلى المناكفة، أو هي لا تريد رجوعَها في ما كانت تفعل وتقول، ولا ترغب في الإقرار به، أو هي لا تعلم فعلًا ما تنوي حقيقة.

وأكملتُ فحصي عن الأنين المنبعث من موضع أو مصدر غامض، أقلقني أن يكون قريبًا وتكاد الأذن تحسّه داخلها وتحضنه، ويستمرّ خفيًّا ومن غير اسم. وكنتُ فلشتُ معظم ما في الصناديق الخشب والكرتون. وأرجعتُ بعض ما فيها إلى محالّه وتركتُ بعضًا آخر حيث حطّ، بعد رفع اسمه. ولم يسفر تنقيل بعضها وربّما معظمها عن كشف موضع مستور قد تكون لجأت إليه كائنات لا بدّ

أنّها حية وأنّها مرئيّة. فقلتُ لمروة، وهي بقيت واقفة ومشدودة إلى حيث أنا، أنّه لم يبقَ إلّا قلب الصناديق كلّها على أفواهها، وإخراج ما فيها كلّه، وأرجوها مساعدتي على هذا. فأسرعتْ إلى السلّم، وفي وقت خاطف ركعتْ إلى جنبي وقالت إنّ في وسعها قلب الصناديق الصغيرة وأنّ عليّ أن أتكفّل أنا بالكبيرة. وباشرت بالأقرب إليها ولم تنتظر ردًّا بالقبول. ودبت حماسة واحدة في كلينا أنستنا بعض الشيء الغرض من صنيعنا، وشغلتنا بما ولّدته الحاويات المندَلقة من ركام أوانٍ وأدوات وخِرَق وأوراق وألبسة وأحذية وأظهرت من بقاياها. ولم تكن مقاومة الانبهار بمعرض الأشكال والأنواع الكثيرة وجوارها الغريب يسِيرة. وعجبتُ لأبي كيف جمع هذه النُّتف وأبقى عليها، وحمَّلها في انتقاله من إقامة في غرفة مؤجرة إلى إقامة في شقّة، وربّما ضيفًا على قريب أو صديق أو شريكًا في إيجار أو نزيلًا في فندق. وهو قد ينسى محلّ المنفضة التي وضع لتوّه سيجارته على حرفها، فيدير نظرًا حائرًا في البحث عنها بينما يتنشّق سحابة دخانها المنتشر ويكاد يختنق به. وقعدنا في وسط الركام لنرتاح، على دعوة مروة التي رأت أنّ اللعب لا يخلو من تعب. وسايرتها طوال ثانية، استأنفتُ بعدها عملي الذي تفوق أعباؤه، شرحتُ لمروة المستنكرة انتهاك هدنتها، أعباء عملها. وداخلني شكّ، بعد إنجازنا معظم المهمّة التي أوكلناها إلى أنفسنا، في قدرتنا على استدراج الصوت الشاكي إلى العلن.

وفي الأثناء، انقطع الصوت النحيل ما عدا أنّةً خُيّل لي أنني سمعتها، وأنكرت مروة حدوثها، ولم تسعف على تعيين مصدرها، سواءٌ أحدثت أم لم تحدث. ولمّا زعمت مروة، تعقيبًا على تكذيبها الأنّة التي زعمتُ أنا أنّني سمعتها، أنّ الأنين قد لا يكون مصدره موضعًا من مواضع التتخيتة الضيّقة أو الصناديق التي تملأ نصفها. ونحن نتخيّله مخبأً سرّيًا أو عشًّا في أذنينا، لو أنّ الأذنين الصغيرتين، وخصوصًا أذنيها هي، تتسعان لعش جلابيط لم ينبت ريشها، كتلك التي رأتها ورأيتها أنا تقع من طاقة في جدار الغرفة العليا، تحت عمود الخشب الغليظ، في الضيعة. ومن غير أن تلمّح هي إلى الافتراض، حملني تخيّلها تعشيش الجلابيط في الأذن، وتداعي كلامها في ما قد يستتبعه من مدّ الجلبوط المغامر والأهوج مثلها، قالت متباهية، منقارَه الأصفر ورأسَه وعنقَه العاريين خارج العش، والأذن، ثم استتاره داخلها – حملني على حسبان حكايتها

غير مستبعدة. وذلك آن كنت أمنع نفسي من تهمتها بالتخريف، خوف زعلها وتخلّيها عن بحثنا المشترك.

ومضيتُ في التفتيش في آخر كرتونتين لصيقتين بالحائط. واستعنتُ بيديّ، واتّكأتُ عليهما لتنقلاني قريبًا من الموضع المتطرّف. وأدرتُ ظهري لمروة المنتشية، على ما خمّنت، وهي في وسط ركام الألوان والبقايا وتخاطب جمهورًا غائبًا لا تراه، برواية حكاية متناسلة عن العصافير والأعشاش المتوارية في نواحي الجسم، ثم في زوايا البيت، وعلى جنبات الطريق وفي الأشجار وبين الأعشاب. وسكتَت وهي في منتصف لفظة لم تكتمل أو في أوّلها. ودعتني بصوتٍ محشرج تقطعه بحّة بكاء مخنوقة إلى أن أنظر هنا. والتفتُّ إليها قبل أن أتتبّع وجهة ذراعها وأصابعها، وإشارتها إلى شيء في الركام المزركش يصعب تمييزه من أشياء كثيرة أخرى. فسألتها:

– شو؟ وين؟ صارلك شي؟

فهزّت رأسها بالنفي. وكرّرت الإشارة:

– هون... يللي عم يتحركوا فوْء بعضن... الزغار...

ورأيتُ فردتي مشاية وصحونًا بعضها مكسور وعلبة أحذية ومشكّ صحون ومقلاة لا تزال آثار زيت عالقة بها وشُوَكًا وملاعقَ أكل بعضها الصدأ. وبين بعض هذه، حسبتُ أنّ لحمًا زهريًا أملس وضئيلًا يتمدّد ويتقلّص. وأثارت فيّ حركة المادة اللّزجة، وهي لم تبدُ جسمًا واحدًا ومجتمعًا، القرف والحيرة فوق ما أثارت الخوف. وربما أصابت غرابة الشيء الغامض هلع مروة. فنصحتها بألّا تنظر إليه، وأنا أرَى في الأثناء ما هو، وأُعلمها، فنبقى معًا أو نهرب معًا، ونتجنّب السقوط من السلّم، قلت مستبقًا عدوى فزعها إذا بقي كلانا على اضطرابه وجهله بما يكون هذا الشيء.

ورأيتُ من قرب مادة لزجة ومتماوجة تشبه لحم الذبائح المسلوخة والمتدلّية كأنّها تهوي من الخطافات على أبواب اللحّامين. وعلى صفحتها وبر خفيف يخلط اللون الزهري بشقرة مبعثرة. وطفت على سطح اللحم المتحرك نقاط سود ملتمعة استوت بعد تردّد عيونًا. وأفضت العيون الضيّقة والحادّة كرؤوس الدبابيس إلى رسوم وجوه ورؤوس، وتعلو الرأس أو الوجه منها أذنان صغيرتان، وفي أسفله أنف وفم دقيقان لا يكفّان عن الارتجاف وهما يشمّان ما يلمسان شمًّا حميمًا كالمصّ. وتردّدتُ في تسمية صغار الحيوان

التي يزحف بعضها فوق بعض ويغوص فيه، وتعريف مروة بها، على رغم ترجيحي جزافًا أنها فئران رضيعة. وآثرتُ القول، وأنا أُطمئن مروة وأدعوها إلى النظر إلى الكتلة الغريبة والمريبة، أنها قطط صغيرة لم تكسُها الفروة بعد، فتشبه حيوانات أخرى قد تكون الفئران وقد تكون السلاحف قبل أن تقسو بيوتها على ظهورها، وربما كانت الوطاويط قبل طيرانها. وما عدا القطط، لا تعرف مروة كيف تكون السلاحف قبل قسوتها ولا أنا أعرف. وما قلته كان استنتاجًا من طريق الطرح، طرح السلحفاة من بيتها. والوطواط ذكرته وأنا أعلم أن لا سبيل لمروة إلى مناقشتي في صحة التقريب، والحذر والتروّي لم يكونا ضروريّين ولا حاجة لمروة بهما. فما أن سمّيتُ الجسم الغريب ولم أحسم ما هو حتى التفتت إليه ثم إليَّ، وأسرّت بالتواءات قسماتها ما يوحيه إليها من رغبة في لمسه وفي حمله.

تقابلنا وجهًا لوجه وبيننا الكتلة المتحرّكة وعيونها السود وخياشيمها المرتجفة. وجلست هي القرفصاء، وانحسر أدنى ثوبها إلى آخر فخذيها، فظهر لباسها الداخلي لصيقًا ببطنها المكوّرة وبنتوء ما بين فخذيها نتوءًا خفيفًا. وقسرت عيني وتفكيري على الانصراف عن النظر إلى لباسها الظاهر وما يحجبه، والإقلاع عن التفكير الملحّ والمزعج فيهما. وكنتُ في البلدة كثيرًا ما أنبّه مروة، بالإيماء الغامض بالحاجبين أو بالعينين المحمرّتين على قول فاطمة، إلى عرضها لباسها وفخذيها العاريتين على الأنظار حين قعودها مقرفصة وفلقتا قفاها على عقبيها ووجهها الممتلئ منجذب إلى ما تسمعه أو تراه. ولم يمنعني من تنبيهها إلى حالها المُحرجة هذه إلّا غفلة الأهل الحاضرين، على مختلف أعمارهم أو إظهارهم الغفلة عمدًا أو سهوًا. وإذا فاتتني الملاحظة ونحن في جمع وحضور عوضت سكوتي المرغم حال الانفراد بها على حدة تمكّنني من لومها وتهمتها وتهديدها. ولما كنا وحدنا هذه المرة، ونتشارك لعبًا مثيرًا لا يرغب كلانا وأنا أوّلًا في تعكيره، اصطنعتُ دعوة عارضة ومحايدة النبرة إلى ضبضبة مروة قعودها، فدُهشت ثم استجابت الدعوة من غير كلام ولا تعليق.

وأحطنا بجلابيط الفئران أو جلابيط القطط، على تسمية اقترحتها مروة وقالت إنّ كلتا الاثنتين مقبولة. وتبادلنا النظر، واحدنا إلى الآخر والاثنان إلى الجلابيط، هي على افتتانها بما ترى وبتحوّلاته البطيئة وأنا على مزيج عجب

منبهر وقرف سرى في حلقي وأضلاع رئتيّ. وتشاورنا في طرق معالجة هذه الأجسام وكيفية لمسها وتحريكها وتقليبها. وأمسكت مروة بعصا من خشب في آخرها صحن كاوتشوك مقعّر ومهترئ، وقالت إنّ علينا تجنّب ملامسة الجلابيط والأمراض الكثيرة البشعة التي تنقلها، وأعملت العصا في تفريق الجلابيط وقلبها على ظهرها، فندّت منها صيحات حادة، معدنيّة، أجفلنا منها. وهممتُ بالمساعدة على تقليب الفئران وإبعاد بعضها من بعض لنرى كيف هي، وهذا ما اتفقنا على أن نفعله. فأخذتُ ملعقة من الركام، وأدخلتها بين الأجسام الرخوة والمختلطة، فشلّ الصياح يديّ بعض الوقت. ودعا واحدنا الآخر إلى قلبها على ظهرها معًا، وإلى ملاحظة بطونها، بين الرأس وبين الذَّنب، تعلو وتنقبض سريعة ومضطربة. وكلما حاول جسم من الأجسام المتلوّية العودة إلى الاستواء على بطنه وقوائمه، منعناه من ذلك بطرف آلتينا وتشاركنا الضحك والسرور بإنجازنا وسرعة تلافينا نجاح الجسم في مسعاه. ولما لم تكفّ الحيوانات عن معاودة المحاولة، عاقبناها بالشد على رقبتها وبضربة تقريع على الرأس ودعوة واحدنا الآخر إلى الابتهاج والإعجاب بما يفعل.

وبدا أنّ الفئران، وقد رجّحنا هذا التشخيص وافترضناه، استجابت للتأديب. فتباعدت تشنّجاتها، وسكنت بطونها ومالت إلى الارتخاء. فقالت مروة إنّ الفئران صارت تشبهنا حين نعوم على الظهر ببحر ياصا، مدينة أمّنا، نمسك أنفاسنا ونلمّ جسمنا ونمنعه من التفرُّق والغرق. وبينما تقول مروة ملاحظتها ألفيتني أفعل ما تقول، وأسترجع السّكنات التي تحول دون رسوبي في الماء، وتعطي عينيّ ورئتيّ زرقةَ السماء الفسيحة وهواء الفضاء الدافئ كلّه. قلتُ لمروة: لماذا لا نسبّح الفئران على الظهر؟ فاقترحتْ أن تملأ هي سطل التمسيح ماءً وإن كنتُ أنا أرغب في ملئه فلا بأس. ونزلت درجات السُّلّم القريب منها وهي تقسم المهمّات بيننا، وتوليني الجزء الثقيل منها، أي نقل السطل والماء إلى التتخيتة. ولمّا استوى السطل بيننا، ولم تسكن صفحة الماء الرجراجة بعد، اشترطت مروة أن أكون البادئ بنقل الفأر الأوّل إلى الماء، بما أنّني صاحب فكرة سباحتها. وكنتُ أحسب أنّ الفكرة فكرتها.

وتعسّر نقل الفأر إلى السطل. فالملعقة لا يفي عرضها بتثبيت الجسم اللّزج والمتقلّب عليها، ولا يحول دون انزلاقه. وبعد محاولتين خائبتين رضيتْ بضمّ خشبتها إلى ملعقتي، وتناول الجلبوط بين الآلتين. ولم ينفع توسيط العصا

والملعقة في إضعاف الإحساس باللحم النيء والطّري في طرفهما، فسرت في جسمي منه قشعريرة تشبه الانكماش، وقرّبتني من غثيان أنشب في معدتي وأضلعي وآلمني. ورأت ربّما مروة دمعًا ملأ عينيّ ودفعه الغثيان إليهما، وأرادت استفهامي عنه، فأوقعت الفأر مرة ثالثة. وفي المرة الرابعة، اضطررنا إلى رمي حملنا المضطرب في ماء السطل رميًا، ونفضه عن أيدينا. وتأمّلنا الجسم الطافي على الماء، وهو طفا من غير حركة، وانقلب على ظهره، وبدا معلّقًا من قوائمه الأربع بخيوط غير مرئية كالمصلوب في الفضاء. وانطفأت عيناه، وحلت محل الخرزتين السوداوين نقطتان بيضاوان لا تكاد العين تميّزهما من اللون الزهريّ المائل إلى بياض صلب غلب على البطن البارز. واختبرت خشبة مروة طواف الجسم على صفحة الماء فأغرقته قليلًا، لكنّه عاد إلى موضعه وإلى حاله تسبقه فقاعة هواء ضئيلة.

ونقلنا الأجسام الثلاثة الأخرى إلى بركة السطل، وهي التسمية التي اقترحتُها على مروة، فقبلتها وشرحتها بمقارنتها ببركة الضيعة التي شاركنا في ملئها بالماء المنتشل من البئر بواسطة سطل خشبي ومعدني حيّرنا تركيبه المختلط. فعامَ واحد على ظهره حال تركه في الماء، وحاول اثنان السباحة على بطنهما، فحرّكا القائمتين الأماميّتين تحريكًا بطيئًا ومتراخيًا. ودام التحريك وقتًا قليلًا قطعه نفاد صبرنا، مروة وأنا، ومباراتنا على إغراق الجلبوطين الطافيين على البطن بآلتينا. فإذا أنا دفعتُ الواحد في الماء مقدار شبر دفعته مروة إلى القعر وأثبتته به. وجاريتها، فحاولتُ أن أُغرق فأرين معًا، وأنتقلُ سريعًا من الواحد إلى الثاني. فردّت على محاولتي بضرب صفحة الماء والجلابيط الطافية بجماع الخصَّاضة الكاوتشوك في يدها. وتطايرت شذرات الماء من السطل وبلّلت وجهينا ورأسينا، وأصاب بعضها شفتَيّ وشفتيْ مروة. وأحسستُ بمذاق الوحل على لساني، وشممتُ رائحة بول وعفن داخل أنفي وفي مجاري نَفَسي. وأطبقت الرائحة على زلعومي، بينما مروة تمضي، وهي تغنّي من غير كلمات، على خبطها في السطل وهزّه وإدارة الماء والجلابيط التي فقدت اللون الزهري واستحال خليطًا من البني والرمادي. فملتُ واتكأتُ على كوعي، وحسبتُ أنّ معدتي وبطني تركتا محلَّيهما واستقرّتا على دماغي وملأتاه، وأخرجتا قيئًا متدفّقًا وغليظًا، وفاضت عيناي بدمع حار كأنّه عصيرهما. وحلّ في رأسي ووجهي وفي أعضائي خدر وإعياء لذيذان تغلّبا على قرفي

وحسبتُ معهما أنّني تخفّفتُ من عبء لا يُحتمل. وتردّدتُ وأنا أتمتّع بخدري بين الاعتذار من مروة عمّا صنعْته لتوّي، وعن إرعابها في وقت واحد، وبين عتابها على لعب هائج أدّى بنا إلى الحال التي نحن فيها. فقالت إنّنا في أحسن حال وما كان عليّ أن أبلع الزوم الذي خلط الفئران بماء الحنفية ووحل السطل.

الفصل الثاني

في أثناء أيام قليلة قضيتها في البلدة الكبيرة وفي أهل أبي حل الناس الذين جاؤوا يزورون أهلي، أي «بيت جدّك» على ما يحب أبي القول، والناس الذين زرناهم نحن، عمّتي فاطمة وبنت عمّي مها وعمّتي الأخرى المعلّمة زينب وعمّي رضا المحامي، حلّوا جميعًا أماكن ومواضع دقيقة التعريف والقرب والبعد. فلم يسلم واحد أو واحدة من الذين نراهم أو نمرّ بهم أو نلمحهم من بعيد، أو يُسمَّون باسمهم في رواية قصة أو ربّما لا يُسمَّون ويطوف الخبر بهم، لم يسلم من تعريفه أي نسبته العائليّة ومكانه من شجرتها الوارفة، وجذورها الضاربة في قِدم يضاهي عمر الخليقة، وأغصانها الملتفّة والمخيّمة على ضفّتَي النهر العريض الذي تجري فيه وقائع الخلق وأحوالهم ومصائرهم. فالعائلة، عائلتنا، في رواية فاطمة المأذونة وأحكامها القاطعة في المكانة والمرتبة والصدارة، هي مجمع الفضائل والمكارم والمحاسن وكل ما يقبل المديح وقد لا يقبله. وفي يقين العمّة، وقولها في الأمور كلّها، أنّنا، بيت عمارة، في كل مكان من أمكنة الأرض، إفريقيا حيث لا يحصى عددنا منذ أن سافر ابن الشيخ حسن الملقّب بالإبريزي لكثرة ما بدد من الذهب في زياراته إلى العتبات والمراقد، وكأنّ سفره إلى بلاد العبيد كلّها، بدءًا بالسنغال وانتهاءً بأبيدجان، قبل ولادة الشيخ الكبير والد أمّ عمّتي بمئة عام أو أقل بقليل أو أكثر. ونحن في أميركا التي يزعم بعض أقاربنا أنّ مكتشفها قد يكون أحد أولاد عمومتنا البعداء والقدماء، وقبل هذا الفرنجيّ من أصل عربيّ أو يهوديّ لعين الذي يمدح بالاكتشاف. وإن لم يكن المكتشف منّا ولا جميل لنا في الاكتشاف فنصف سكان أميركا من أهل بلدتنا الكبيرة، ونحن نصف سكان البلدة على

رغم أنف بيت جَمّين الذين تزوج زعيمهم بامرأة منا وأولدها ابن الزعيم الذي يليق بالزعامة وتليق به وهو ابن خالتنا وابن بنت العائلة... وأستراليا كنّا أول من سافر إليها عندما عاد جواد ابن جعفر الجنفَيْص، وهذا لقبه لأن جعفر والده كان يسرق أكياس الجنفيص من مطحنة الحاج مسلم ويبيعها سرًّا، من داكار مديونًا وأرسل له أبوه وأعمامه وإخوته وأولاده أجرة العودة بحرًا، وبقي سنتين أو ثلاثًا يعمل في المدينة، وفجأة زار البلدة ليودّع أمّه وقال إنّه سمع بمهجر لا يعرفه أحد وأبعد من أميركا، ولم تطأه قدم ابن عرب من قبل، وما على المهاجر إليه، على خلاف أفريقيا وأميركا اللتين تخنق المنافسة المتوحّشة بين التجار وأولاد العرب على الأخصّ فيهما أنفاس التاجر الآدمي والخلوق، إلّا التزام الأخلاق والحدود ليجني ثروة كبيرة. ولكن على المهاجر ألّا يفكر في الرجوع إلى بلده الأوّل وعرض ثروته على الحسّاد الكثر، على قول جواد ورواية فاطمة التي تسكت عن الفصول التالية من إعمار العائلة أستراليا والبلاد حواليها. وأمّا الهند والصين فقصتهما غير شكل...

وفاطمة كانت تلزم الحذر في أخبار أنسابها، ولا تغادر البلدة وجوارها القريب إلّا حين يضطرها جماح مقارناتها بالأغراب، وخشيتها من الظن في تفوّق هؤلاء وهم غالبًا من آل جمّين علينا، إلى إثبات صدارتنا ونفي المنازعة عليها. وقبل إثبات شيء أو أمر، فالأقرباء والقريبات، من ثلاثة أجيال أي جيل من هم وهنّ في سنّها وجيل آبائهم وأمّهاتهم وجيل أولادهم وبناتهم، هؤلاء جميعًا هم صورة العالم المأهول وأركانه وأوتاده. وثمّة عالَمٌ، وثمة جهة، وثمة موضع، حيث يقيم قريب، وحيث تزوّجت قريبة، وسافر أحد الأقرباء. ويصدق هذا على كل الأمور. فالاسم الذي تسمّى به البلدة المشرفة من هضبتها العالية والمكعّبة على بلدتنا وسهلها الضيّق وغير المطمئن ليس ذاك الذي يعرفها به أهالي البلدات والضيع كلّها بل هو بلد أنيسة، بنت حسيبة عمّتنا التي زوّجها أهلها، وعلى الأخص أمّها صاحبة الكلمة الفصل في البيت، ولم تكتم أنّ أنيسة، لولا أنّه سبحانه لم يشبّه للخطيب المسكين الميل إليها، لما حظيت يومًا برجل بلغ منه العمى مبلغًا يدعوه إلى الإعجاب بابنتها ثم إلى الغرام بها. والمدرسة المشهورة في المدينة الساحلية والمعروفة باسم جمعية ذائعة الصيت، هي المدرسة التي يدرّس فيها سميح ابن أبو غسان، ابن عمّ جدّي على سبيل التقريب. وإذا سمعت فاطمة في الأحاديث المتبادلة عصرًا حول سماور الشاي

والقوري المتربّع في سدة مدخنته، لفظة ألمانيا، انتبهت انتباهة خفيفة وأغمضت جفنيها كمن يتذكر شيئًا لم تنْسَه، وتمتمت لنفسها أوّلًا «محل ما عم يدرس علي وخيّه حسن» ابنا بنت خال هاجرت إلى دكار قبل ربع قرن، حيث تزوّجت قريبًا سافر أهله إلى المدينة الإفريقية وأقاموا فيها وانقطعت أخبارهم، إلى حين سعوا في تزويج ابنهم إلى بنت لا تخفاهم أصولها.

والبقاء في دائرة البلدة لا بد منه حين التعريف ببيت أو ولد أو عمل أو عاهة – فضعف بصر امرأة من أعمام عم الراوي مقيم بمدينة كبيرة على نهر عظيم بلغها خبره، في معرض خبر رواه مسافر عاد من هناك وزار العم ورأى أنّ أمّ مصطفى تضع نظارات على أنفها، يدعوها إلى القول «بس إن شاالله ما تصير متل فايز الأعمى»، قريبنا وجارنا الحمّال الذي لم يكن عمّي بعد وتوهم نظاراته السود بالعمى –، أو التعريف بحيوان، إذا عُدْتُ غداة ليلة بِتُّها في دار عمّتي، أي عمّة عمّتي وأبي، والدواء الأحمر ظاهر على ركبتي علامةً على آخر خدوشي، استوقفها اللون وتأملته وهي تسند ذقنها المائلة إلى إبهامها وسبابتها وقالت: «ەَ الصبي صار معأوَر متل بغلة عمّي الشيخ».

وعلى هذا، وسع عمّتي والعائلة، عائلة الزوّار والمَزُورين، إرساء صورة العالم، القريب والبعيد، على الأهل والأقارب، وتعريف المواضع والأماكن، من طريق مَن يحلّون بها من هؤلاء. وعلى هذا عرفوا كذلك من يحلّون على الهضبة التي تنهض في مقابل كتلة الضيعة القديمة حيث أقطع عمّي الشيخ، أخو جدّي، ولده البكر أمتارًا مربّعة قليلة بنى عليها هذا، بين غرسات التين المستوحشة غرفتين ومطبخًا في انتظار زواج تأخر عن وقته، إلى غربها الأقصى حيث منزل خال أبي، على منحدر عريض ومنحنٍ يطلّ على إحدى بركتي الضيعة، ويخاطب أفقًا متخلّفًا عن غروب الشمس وراء جدار الجبال القاتم. وبين الهضبة والمنحدر جبل متعرّج من البيوت التي يجوز لنا أن نحلّ بها من غير حرج، نحن أحفاد الشيخ أحمد، ضيوفًا طاعمين ونائمين إذا دُعينا أو رغبنا.

والحقّ أنّ هذه البيوت لا تستوي في جواز ضيافتها ولا تُرغب ضيافتها على نحو واحد. وذلك لعلل شديدة الغموض يلفّها السكوت أو الغمز ولا يَعصى فهمها، رغم ذلك، على حسّ الأولاد. فالأقربون، عمّي الشيخ عبد المحسن وأبناؤه السبعة، كانوا الأبعدين. ونحن نقتسم وإياهم الدار القديمة، وصفَّ

حجراتها الأربع وأرض حوشها المرتفعة، وبوابتي الدار، وشجرتي زنزلخت، وقفيري نحل، وبركتين وبئرين، قسمة متساوية. فلا شيء في دارنا إلا وفي مقابلته في دار عمّي مثيله وصنوه، ما عدا البناء المستحدث. والفرق البارز الوحيد، في مرآة عينين غير مجرّبتين هو البغلة الكبيرة في حظيرة بيت عمّي. والبغلة علامة على فرقٍ كبير لم أنتبه إليه إلا مع مضي الوقت وجلاء معنى بعض الإطراقات التي تقوم مقام الإدلاء المضمر أو المراوغ بآراء ومشاعر. فالشيّخان، جدّي وأخوه، معمّمان، وعمامتاهما متواضعتان وملفوفتان لفًا مستويًا على طربوشين، وليستا تاجيّن من تلافيف قطنيّة معقودة يخرج بعضها من بعض على شاكلة القباب المتّصلة، وينعطف بعضها إلى بعض في استدارات متوالدة وقائمة بنفسها. ويلف القماش على الطربوش من لم يدرسوا على كبار المجتهدين، على قول أمّ جواد، جدّتي، ابنة أحد هؤلاء، ولا سافروا إلى بلاد العتبات طلبًا لعلم لا يحتاج إلى تعريف أو تخصيص. وحيّرني في أوّل الأمر بسط لفّة جدّي على طربوشه العريض كلّه، وانكفاء لفّة عمّي إلى ثلاثة أرباع طربوشه الضيّق، وظهور الربع الأعلى منه عاريًا. واتضح بعد وقت قليل أنّ الشيخ أحمد، وحده من الأخوين التوأمين تقريبًا والمفترقين كثيرًا، درس شيئًا من العلم على أبيه. وعمامته هي نظير ما حصّله من درسه، وفد تفوق تحصيله قليلًا أو تقل عنه. أمّا الشيخ عبد المحسن فغلبة طربوشه الأحمر الخمري على القماشة البيضاء الناصعة قرينة على وراثته مشيخة اسميّة من غير علم نظيرها. وهو اعتاش من المكاراة على البغلة في القرى المنتشرة حول الضيعة، ومن بيع الأقمشة الرخيصة بالذراع والعسل بالأوقية. وأورثته مهنة التجوال والترحال على الطرق الضيقة والشعاب الواقفة على المنحدرات جسمًا مشدودًا، ووجهًا لفحته الشمس وأظهرت الريح أوردته وجمعتها في دائرتين حمراوين أعلى الخدّين، على نحو ما أظهرت حرارة الصوبيا أوردة الفخذين النسائيين. وكانت المهنة هذه سببًا في إصابة نطقه ببعض العيّ – «راسه براس هَ البغلة... كيف بدك ييه يحكي متل آضي معزول» – على تعليل عمّتي بين الإشفاق والشماتة –، وفي إطالة سني عمره فوق عمر شقيقه بعشرين سنة، فتوفّي في مقتبل التسعينات.

وظهر أنّ جوار الدارين، وافتراقهما عن قسمة ميراث والد واحد بالسويّة، لا يؤلّف بين قلوب أولاد العمومة. فهؤلاء لا يتزاورون ولا يجتاز واحدهم عتبة

داره وبوابته إلى دار جاره وابن عمه اللصيقة، أو إلى أحد أهلها. ويشذّ عن الملاحظة واحد من أبناء عمّي الشيخ، أصغرهم سنًّا، ويمتاز عنهم بمتانة الجسم وعرض الكتفين، وحلاوة الوجه وكثرة الابتسام الذي يشفّ عن صفّي أسنان كبيرة وناصعة البياض على رغم خطٍّ التبغ فيها خربشةً متفرقة تشبه الشقوق الخفيّة في جدران من كلس. ودعت هذه الفروق فاطمة إلى الظن الخبيث والمازح في ولادة مهدي، ابن عمّها، من والديه «الرسميّين»: «يا إمّا عمّي ومرت عمّي جابوا مهدي وحده وما بيشبهن، وولاد عمّي هوليك مش ولادهن، يا مهدي مش ابنهن ومدري منين جابته مرت عمّي!». وكان مهدي يعتلي درجتي سلم الخشب المطروح على الجدار الفاصل بين جزءي الدار وبين عارضتي السلّم الجانبيّتين، ويطلّ رأسًا من غير جسم على فاطمة الواقفة وراء سياج القن شاخصة إلى مهدي. وكأنّ هذا كان يرى المشهد المعتاد والغريب كلّه من علٍ ومن خارج، فتصحب الضحكة المجلجلة إطلالته. وتجيب فاطمة، معظم الأوقات، الضحكة بنصيحة ابن عمّها أن يحسن الإمساك بالسلم وحرف الحائط لكيلا يقع على قفاه وتطالبها أمه النحيلة بديّة الأضرار اللاحقة بأجزاء جسمه، ابتداءً بالقفا. ويدور بعدها حديث هامس يدوم دقائق قليلة في أحوال الطقس، ماطرة أو مشمسة، يجيب في أثنائها مهدي بضحكات مسترسلة تعلّق استرسالها دهشة مستفهمة ترتسم على قسماته لوهلة خاطفة، إسرارَ فاطمة الخافت، وعبارة وجهها المازجة على مقادير ثابتة أسىً خفيفًا وضجرًا باهتًا.

ودامت هذه اللقاءات على الشاكلة نفسها، أعوامًا، فلم أسمع من أحاديثها يومًا جزءًا من جملة مفيدة يفوق الكلمة أو الكلمتين، ويُمكنني من فهم بعض ما يدور في كلام الإثنين. وربّما غلبت فواتح اللقاءات المعلنة، وهي تسبقها وتؤذن بها وتضرب مواعيدها، على ما يقال فيها. والفواتح هي شطور أبيات من الشعر يتلوها الإثنان على طريقة ناظم الغزالي العراقي في الإنشاد. فيبادر مهدي، غالبًا، إلى إنشاد صدر البيت الأثير: (يقولون ليلى في العراق مريضة/...) ويقف، فيلفظ الضاد في (مريضة) ظاهًا، ويَعلم السامع، الراوي، أنّ الظاه عَلَم على خشية وقلق عميقين. وتجيب فاطمة على توقيع واحد، كانت في الأثناء تكنس أم تجلي أم ترفع الماء من البئر أم تقطع اللبن في كيس اللبنة، متمتمةً ومسموعة: (.../ أيا ليتني كنت الطبيب المداويا). وقد يكون الشطران: (عيون

المها بين الرصافة والجسر/ جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري)، أو: (نحن الحرائر إن مال الزمان بنا/ لم نشكُ إلّا إلى الرحمن بلوانا). وأحسب أنّ هذا الشعر مما جلبته عمّتي من إقامتها عامين أو ثلاثة بمدينة النهر العظيمة في بيت بكر الإخوة والأختين، عمّي المهاجر جواد. فلا يعلِّق أحد بكلمة على ما سمع، وكأنّ ما أُنشد قيل من طبيعة حطّ الدوري على غصن الزنزلخت وهو في طريقه إلى الحواكير القريبة. وأعلم في سرّي ما يعلمه غيري في سرائرهم، وأنتظر أن تظهر عارضتا سلم بيت عمّي الخشبيتان والجانبيتان على حائط الطين والقش الحاجز بين البيتين، ويعلو وجه مهدي ويتوسّط طرفي الخشبتين. فألقي على المشهد وهو يسير إلى الاكتمال نظرة تحدوها مودّة غامرة أكنّها لابن عم أبي، وتغلب على فضول ضامر. وحين سألتُ مهدي يومًا في أعقاب سنوات على ملاحظتي هذا النوع من اللقاءات علامَ دارت أحاديثها، ولماذا سبقتها تلاوة الأبيات وما سبب اختيارها، أجاب وقد أخذته دهشة لم أرها مفتعلة: «بنت عمّي فاطمة... جارة الرضا!».

وما عدا هذا، كان التردّد إلى بيت عمّي عبد المحسن اللصيق متباعدًا. وكنتُ أتردد إليه غالبًا وحدي، وطامعًا في مشاهدة بغلة عمّي، وهو اسمها المتعارَف، وفي تأمّل فخذيها المصقولين صقلًا بالغ الكمال، وبعيدًا من الأشياء المتنافرة التي أمرّ بها في الطريق إلى غايتي وحولها. والبغلة هي بقيّة باقية من تجارة لم يعد الشيخ، وقد بلغ السبعين، يقوى عليها، ولا بقيت للناس حاجة بها منذ شراء «كل مين عنده ربع دونم أرض مزروعة بحص.. أوتومبيل» على قوله من غير تأتأة، وبعد تزفيت جيش فرنسا «الله لا يسهّل عليه» معظم الطرق إلى الضيع الصغيرة وتجرُّؤ «أهل الضّيع اللي أتيس من حوارنة، يا عمّي، ويا محلى أهل صفد البطيخ حدهن» على فتح دكاكين في حاراتهم «المئفيّه». فربط الشيخ الدابة في فناء غرفة من غرفتين كان عزم على بنائهما في زاوية حوشه الغربية، نظير الغرفتين الحديثتين والمهلهلتين اللتين بناهما أخوه، جدّي. ولكنّه لم يُتمّ بناءهما بعد أن صبّ أساسات الباطون، ورصَفَ جزءًا من الحيطان بحجارة مقصّبة وصفر استخرجها من أرضه، وترك محلًا فيها لشبابيك واسعة كان يقدِّر أن تطل على حاجز الصبّار الفاصل بين الدار وبين حارة بيت الجمعاني. وسقف الغرفتين الخاويتين بأغصان شجر التين والرمّان الجافة وبورقها. واطمأنَّ إلى رعاية السقف، وهو ثقَّله بحجارة

باطون، البغلة التي تحمّلت من المشاق ما لا يتحمّله غير البغال. وخفّفت عاطفة عمّي تجاه البغلة من تبكيت ضميري على قصدي البغلة، حين زيارتي بيته، فوق قصدي أهل بيته وهو منهم. ولم يشأ عمّي بيع الدابة، على قوله تلطُّفًا وتكريمًا فالبشر يدبّون كذلك، على رغم شيخوخته وتقاعده منذ نصف عقد من السنين، ورغم هرمها واقتصار ركوبها على رحلة قصيرة يقطعها في أقل من عشر دقائق بين غرفتي ومطبخ الأستاذ عبد الرضا، بكر أبنائه، وبين الحي، حين يرجع متأخرًا إلى داره في العشايا وعلى غير ضوء، فلا يستغني عن ظهرٍ، على قوله، يحمله ويقيه المشي، بعد أن شحّ نظره، بين الصخور وحجارة الحيطان الكارّة على جنبي الطريق.

فكان على الولد الزائر، وهي حال الراوي، حين يقصد بيت الشيخ حيث لا أولاد في سنّه يعذرون نسيانه السلام على كبار الأهل وركضه إليهم، ومباشرة اللعب معهم – أن يكبح استعجاله التمتُّع بما جاء ليتمتّع به. فيروح صاغرًا إلى إحدى الحجرتين، ويبحث عن العمّ متربعًا على طرف فراشه أو طراحته يرشف ببطء لا تفسير له بقايا الشاي البارد والفاهي في استكانته المزركشة، أو يلف سيجارته الصباحية اليتيمة من التبغ البلدي في آلة لف رصاصية لا ينفكّ يردّد، على من يشهده على هذه الحال، أنّ ابنه علي رأى مثلها في الكويت وقال جازمًا إنها صُنعت لأبي الشيخ خصيصًا. فإذا جلستُ قربه، على الطراحة، أو على الفراش، وسلّمتُ عليه، وهممت بتقبيل يده اليمنى وأنا أسأله عن صحته اليوم، سحب يده بخفّة لا كلفة فيها قبل أن يسألني عمّن أكون، ويثبتني بنظره، ويلتمس بأصابع بالغة الطول نظارتيه على الطاولة الواطئة المركونة أعلى الفراش أو لصق المسند، ويتحقق من صحة الجواب. وفي كلّ مرّة بدا السلام فيها فعلًا حادًّا ينتشل الشيخ من غيبة أفكاره وجولته في دنيا غير تلك التي أزوره، في حسباني، بها، ويرعاها تدبير أمّ عبد الرضا وحركاتها السريعة في ملاية سوداء واسعة لا تشلحها لا في نهارها ولا في ليلها، لا في بيتها ولا في زياراتها. وهي تلبسها فوق فساتين تخلط ألوانها الكثيرة الرماديَّ الفاتح بأبيض باهر، والبرتقالي المشعّ بأخضر ربيعي وأصفر بلون القش على البيدر. وتعلّل عمّتي ألوان امرأة عمّها الزاهية تحت عباءتها السوداء والبائرة بأنّها علامة فاقعة يستدل بها عمّي على زوجته و«حجمها الزغير» ويأمن الزوغان عنها إلى امرأة أخرى. وتُتمّ القول بـ«مش هايك يا إمي؟». فتردّد هذه: «يام لسان

طويل!»، وهي تتستّر بمنديلها على شفتيها الغليظتين والمنفرجتين عن أسنان متدافعة ولثة مهترئة.

وسرعان ما كان حديثنا يفتقر إلى جذوة وينقطع. فهو، وإن دعاني مرتين أو أكثر إلى تعريف من أكون، ومن يكون أبي وجدّي، واسمه هو الحلقة الأقرب إلى ذاكرته، وردّد بعدي حلقات نسبي وصولًا إلى أقرب حلقة إلى تعريفه نفسه. وفي الأثناء ترفع امرأته، وهي تروح وتجيء بين مرافق البيت، صوتها مؤنّبة عمّي على صممه وصارخة باسمي واسم أبي وناسبة أبي إلى أبيه:

– يا أبو عبد الرضا! الولد إبن عبد الله، إبن إبنه لأبو جواد... خيك الشيخ!

فإذا لم يهزّ رأسه، ويضع رأسه على رأسي مستجيبًا أو محاكيًا المداعبة ويسألني عن كيف هي حال أبي وإخوتي ومدرستي، عقبت امرأة عمّي بصوت يتوجه عليّ ولا يكاد يسمع:

– هيأته اليوم الشيخ مسكّر دينيه!

وأردفت وهي تصيح:

– جايي يشوف البغلة! إيه روح تفرجى عليها، معليش! خليك بعيد... بعدها بتلبط، المأزوعة!

ولم يكن في البيت غالبًا من ينبغي الطواف به تأدّبًا قبل قصد الدابة. فعبد الرضا إمّا في مدرسته وإمّا يزور بيته. والأخت، وهي البقية الباقية في البيت من الإناث، تدور على دور الأقرباء والقريبات، كناية عن أختيها المتزوّجتين والنازلتين في طرفي البلدة، ويعود إليها الاستفسار عنهما وتعويضهما المساعدة التي تفتقران إليها في خدمة أسرتيهما المتناسلتين لأنّها أفضى منهما، أي أغنى بالفضاء والسّعة هي المقيمة على عزوبتها. ومهدي قلما يعرف أحد أين هو ما لم يحضر. والباقيان، حسين وحسن، تركا البلد وهما ولدان لا يزالان يلبسان الشورت ولم ينبت الشعر على فخذي واحدهما، على ما يروي مهدي. فتصيخ أخته سكنة السمع والدهشة تخطفها حين يقول: «الشورت»، وتردد هي اللفظة وراءه متمتمة أصوات الحروف الآتية من محالّ عجيبة وكأنّها تسمعها أوّل مرّة.

ولم يروِ أحد من داري الأخوين الشيّخين، لا عرضًا ولا عمدًا، أحوال أهل الدارين قبل هجرة من هاجر إلى المدينة الكبيرة والمدينة المتوسطة والبلدتين الشماليتين، وإلى سبحة مدن الساحل الغربي في البلد القريب والمدينة

العظيمة في الشرق البعيد، وأقام الأشهر أو السنة أو العقد ونصف العقد، وعمل من عمل فيها، ودرس من درس، وقبل زواج من تزوّج في العائلة نفسها أو في البلدة أو في المهاجر القريبة والبعيدة، وولادة من ولد له الأولاد ومن ولدوا من الأولاد. وعلى هذا، فالزيارات القليلة بين الدارين قد يكون السبب فيها تفرّق من يُزارون منذ وقت يُحصى بالسنين، كلٌّ إلى جهة. فأنا، الزائر الوحيد المواظب، لم يكن يدعوني إلى التردُّد المتباعد سوى طمعي، في يوم من أيام الحظ العظيم، في طلب عمّي الشيخ إليّ أن أركب بغلته، وأقودها إلى كرمه على الهضبة المقابلة لأن عبد الرضا في حاجة إليها وهو، عمّي، دهمه عارض مفاجئ وغير ذي بال لا يعدو انهمار العرق من كل مسام جسمه، المرئيّة والخفيّة، حتى ابتلّت جبّته بعد قميصه ويخشى التعرُّض لسموم الشمس والهواء، فلم يجد أبو عبد الرضا، بعد أن استعرض من يصلحون لأداء المهمة من أهل الأمانة والصدق والجوار القريب إلّا حفيد أخيه، وجار الدار والزائر المستعجل الرواح إلى مربط الدابّة والوقوف مستغرقًا في تأمّلها من خلف، على ما أخبره من حوله. وهذا الطلب بقي رهن حظ لم أنعم به إلّا مرّة واحدة، في أعقاب أشهر على ولادة فكرتي، وأدين بها إلى عبد الرضا الأستاذ – مدرّسي طوال ساعتين تامّتين وساحرتين مدح في أثنائهما خالد بن الوليد على احتقاره الموت ميتة البعير على فراشه – فهو أقنع والده بترك قيادة البغلة لي، من الغرفتين والمطبخ على الهضبة الشرقيّة إلى الدار في قلب البلدة:

– شو لح تصيع؟ ما البغلة بتعرف الدرب لحالها... والصبي أخد الشهاده السنه وشكله بيفهم إنه بيسوى ما يشد الرسن، وما تفزع البغلة وتحرن...

ولم أكن عند حسن ظن الأستاذ، مادح ابن الوليد على رغم كره أهله للممدوح، والمرجئ الزواج إلى أجل غير مسمّى وهو بكر إخوته وأخواته وأختان منهن تزوّجتا وولدتا أولادًا بلغ بعضهم سن أخيه مهدي، وبنى منزله في كرم أبيه منذ أعوام، ولا يزال ينتظر ويتأنّق في لباس بدلات متجدّدة يخيطها له أخواه المقيمان بالمدينة والمهاجران المنقطعان أو يتوسطان في خياطتها. وفي الأثناء يخسر شعره الأشقر والمائل إلى حمرة شعر أمه شعرة بعد شعرة وهو فوق الثلاثين بسنوات قليلة، وعلى قول عمّتي الحاسم:

– ابن عمّي عبد الرضا... صحيح إنه كل عمره حجمه صغير... بس كل مانه بيئصر.. لوين واصل من هلأ ت يلائي بنت الحلال... شو بيضل منه... العلم بالغيب!

لم أكن، إذًا، عند حسن ظن ابن عمّي. فعندما قعدت على جلال الدابة الكبير بعد أن قرّبها عمّي الشيخ والأستاذ عبد الرضا من حافة المصطبة العالية وساعداني على امتطاء ظهرها، وهما ينظران إليّ قلقين، وعمّي يكاد يرجع عن مسايرة ابنيه، تظاهرتُ بالرزانة والعقل، وأمسكتُ بالرسن بيدي اليمنى، وثنيته وصنعتُ من الثنية أنشوطة، على شاكلة صنع رعاة قطعان الماشية في جهات العالم، وأملتُ ظهري إلى الخلف وتركت بغلة عمّي تسير صوب دارها ودارنا، وتعاقب بين السير المستوي وبين بعض الخبب. ولمّا أمنتُ غيابي عن مراقبتهما أعملتُ ساقيّ المتدلّيتين على جهتي الجلال وبطنها في حفزها، وهششتُ بالرسن على رقبتها. وصبرت الدابّة عليّ معظم الطريق فلم تحرن ولم تجمح إلى أن حاذينا حفرة في الصخر إلى جنب الطريق تسد الحشائش العالية والكثيفة بابها، فلا يُرى منها إلّا طرف سقف أسود فاحم يتراوى الأولاد، وهم يُقسمون بالله العظيم على صدق نقلهم ما ينقلون عن شهود عدول وعيان قالوا إنّ ما يُرى هو مدخل مدينة جنّ وجنّيات تحت الأرض، بابها الثاني وراء سلسلة الجبال الجنوبية، وفي موضع من السهل الواسع، على مدخل بلدة تشبه بلدتنا شبه الأخت أختها، وعلى شاكلة الحفرة وموضعها من الطريق وحشائشها وسقفها الظاهر والأسود، وهذا الشبه الشديد قرينة على عمل الجن. وكأنّ محاذاة الطريق باب الكهف، في مقابلة كرم يملكه جدّي – هو ملكه الباقي الوحيد، ويتندّر الأهل بالقول إن مساحته الظاهرة ثلاثة دونمات وينبغي أن تبلغ فعلًا اثني عشر دونمًا، فهي أُعطيت تباعًا مهرًا لأربع نساء تزوّجن أبناء جدّي الذكور – كأن هذه المحاذاة إيذان بنفاد صبر البغلة على راكبها المتمايل والخفيف. فركضت نحو ثلاثين مترًا ركضًا سريعًا وموقّعًا رفعني فوق صهوتها أقل من مقدار مسطرة مدرسية. وحسبتُ أنّني حيوان غريب يركب ظهر نعامة تسبح في فضاء نوراني. وغشيني خوف ونشوة مسكران سَرَيا معًا بين الجلد وبين اللحم والعظم، وجمحا بي إلى حيث الإغماء وذروة الإدراك خِيطا معًا. وعادت البغلة إلى سيرها المنتظم والهادئ قبل أن أرجع إلى رشدي ومستقرّي عليها. فداخلني بعض الشك في حقيقة ما حصل

للتو، من ركض البغلة وطيراني وحطّي من جديد على جلالها واستئنافها مسيرها. وأوصلتُ وديعتي إلى دار أصحابها سالمة، مثلي. ولم أروِ الحادثة، المفترضة ربما والمتوهّمة، إلّا بعد نحو يومين. وخصصتُ مهدي بروايتها، في صيغة سؤال عمّا ألهم بغلة أبيه الاقتصار على ركض سريع حين المرور أمام باب الكهف. فسألني عن طريقة ركضها، وقال إنّ الطريقة هي لغة الدواب في التعبير عمّا تريد قوله، ومخاطبة الناس الذين يحسبون أنفسهم أذكياء، به، مخاطبة مفهومة. فإن لم تلبط الدابة في جريها، ولم تطلق العنان لقائمتيها الخلفيتين وترفع عجزها ما وسعها، دلّ إحجامها على علمها بأنّ الراكب حَدَث غير مجرّب، وهاوٍ غير مؤذٍ، ولا دراية له بسَوْس الدواب، فلا بأس بمعالجته بالحسنى، وتنبيهه تنبيهًا لا يؤذي عظامه وأولها عظام عنقه. ودوّت قهقهة مهدي بين بابي دارينا، على الطريق، وفي طياتها تهنئتي بالسلامة من دقّ عنقي لو أنّ الدابّة جمحت فعلًا.

والحظ القليل من ركوب الدابّة عوّضته بعض التعويض صداقةٌ جمعتني بأحد أحفاد عمّي الشيخ، فريد إبن بنته جميلة، أمّ سلمان. وفريد كان من تلامذة صفي في مدرسة البلدة. ولم تجمعنا زمالة الصف. فهو، شأن الزملاء الآخرين من أولاد حارة بيت الجمعاني، حارتنا، وأولاد العائلة، رأوني ابن مدينة غريبًا ومدلّلًا أوصى بي أهلي، عمّتي المعلّمة والأستاذ عبد الرضا، وأوصِي معلمون في الصف هم من ضيع وبلدات أخرى بعيدة يزورون بيت جدّي، ويأكلون إلى مائدتهم ويسلّمون عليّ حين يرونني في الصف فيربّتون على رأسي تودّدًا. وحدث أنّ زميلًا في الصف، وهو جار لنا كتب عني حلًا لمسألة حسابية نزولًا على طلب عمّي.

وفريد هو الصبي الثالث في ترتيب الأولاد الصبيان الأربعة. وولدتهم بنت عمّي جميلة تباعًا، فلبسها لقب أمّ الصبيان عن حقّ، ونُسب الإنجاز لها وأُعفي زوجها الذي يحمل اسم أبيها، عبد المحسن، ولقبه الحسّون تحبُّبًا، من تبعة الصنيع. ولما ولدت بنتين بعد الأولاد الثلاثة الذكور، لم يؤخّر الأمر مكانتها. وما كادت تفرغ من انجاب الإثنتين حتى حملت مرة سادسة، على رغم خشية أمّ عبد الرضا، ونصيحتها بإسقاط السيئة الحظ التي تنطوي عليها من غير ريب بطن جميلة المباركة. ووضعت ذكرًا أبيض أشقر أحمر يزن من غير ميزان، وعلى التقدير الخبير، أقل من خمسة كيلو بما لا يذكر، ويفوق إخوته وأختيه

جمالًا، على اسم أمّهم جميعًا، ويضاهي جماله جمال أبيه الذي استحق عليه لقب الحسّون، على معنى الحسن وليس معنى العصفور. وهذا لا يراه أهل البلدة جميلًا ويقدّمون عليه، من غير فصل بين شدوه وبين ريشه، البلبل الأسود والرماديّ والأشبه بالغراب، على قول خبراء الطير.

وعلى هذا، انتصرت جميلة انتصارًا حطّ على عين الحاسدين وغربان الشؤم، وعفّ عن فقء عين الأعداء، على ما أوصى الأستاذ عبد الرضا داعيًا، في كلّ مرّة أرادت أمّه أو أخته، سكنة، فيها التمثيل بالأعادي تمثيلًا فظيعًا، بصوت رقيق، إلى الترفّع في لغتنا، وفي مخاطباتنا العاديّة، عن الرغبة في الأذى. ويعقّب شارحًا: فما أدراك أن يأتي يوم تربط بينك وبين من تدعو عليه بالعمى مصاهرة أو صداقة؟ ويتمّ مهدي: وقد يدخل في حزبك ويصير مناضلًا مثلك! يريد التعريض المعجب بتحزّب أخيه الأستاذ منذ أشهر، وإدلاله بتحزّبه وإعلانه، في الفرص السانحة والملتوية الآثار المتخلّفة في قوله وعمله عن تحزّبه الجديد. ورأت فاطمة أنّ ابن عمّها صار في أحواله كلّها، في الصف وفي الطريق والبيت معلّم مدرسة واحدًا، تساءلت عمّا قد ينتج عن هذا إذا تزوج وجاء بامرأة إلى بيته وكلمها، على ما يُفترض في زوجين إلى ساعتنا هذه، وهو على حاله من الأستذة والرصانة. فكيف لرجلٍ زوجٍ مثل هذا أن يُولِد امرأته أولادًا؟ وما عدا جميلة نفسها، وولدها البكر سلمان، كان أولادها متكبّرين، ويقال فيهم أنّهم لا يصدقون ما يرونه من حسن حالهم وهنائهم ويسرهم. فوالدهم ورث عن أبيه الحاج، وهو رأس جب التجار في العائلة، مطحنة تقاسمها مع ابن وارث آخر أنْبَه منه وأدرى بشؤون المهنة، وأعْرَف بفن معاملة زبائن المطحنة، من حصّادي القمح والشعير والذّرة وتجار العدس، والبرغل، ومثمّني أسعار هذه كلّها، ومعبّئيها في أكياسها ومقدّري أوزانها وأسعارها، وأحذق بفضح حيلهم. وهم، على قول الحسّون معتذرًا، عصابات لا أوّل لها ولا آخر من الخسيسين وأدنياء النفس.

ولم يشكّ أحد في نزاهة تدبير الأخ أو في قيامه بواجب أخيه. ومطحنة المازوت هذه بقيت من غير منافس أكثر من خمس عشرة سنة في البلدة، وكانت مصدر رزق تُرى آثاره واضحة في انتقال جميلة والحسون من منزل قديم تقاسموه مع الأخ المدبّر، ضاق بهم، إلى بيت من طبقتين شيد بحجارة الباطون، في وسط كرم زيتون مسوّر بالرمان والصبّار، وعلى حدة من آخر

حارة في البلدة. وبقوا على هذه الحال وحدهم طوال عقد من السنين. وشقّت البلدية طريقًا ترابية محل طريق الغبار إلى الممر الضيق الذي فتحه الحسون في تصوينة كرمه. والعلامة على يسر البيت، رغم كثرة الأولاد، لباس هؤلاء المرتّب والنظيف، والأب على وجه الخصوص، من قميصه وسترته إلى حذائه. وكنتُ أرى أنّ ابنة عمّي جميلة – جبهتها العالية الملساء والخالية من الغضون، وعينيها الممتلئتين نومًا والطافيتين في محجريهما، وخدّيها الناعمين وحمرتهما الذائبة في بشرتها الرقيقة، وفمها السابح في ضوء شفتيها وأسنانها – إلى حنانها الدافق ورنين «يا روحي» الحار على لسانها، هي وحدها العلامة الفرحة والمتلألئة على اختصاص بيتها بما لم يتحف به، على هذا القدر، معظم الآخرين.

ووصفُ فريد، ابن بنت عمّي أمّ سلمان، بالمتكبّر لا يصدق فيه تمامًا على الدوام. فجلافة ملامح وجهه قد يكون السبب فيها قوة هذه الملامح وبروزها في الوجه بروزًا راسخًا. فعيناه المعشبتان شديدتا الاتساع، وتأكلان وجهه وتبدوان فاغرتين لولا استقامة أنف متين في وسط الوجه، وفم كان ليكون غليظًا لولا زهر نسيجه وافترار عن بياض أسنان بقي بعد تبديل أسنان الحليب على نقائه. ووجه فريد كلّه ينقلب حين الابتسام من صرامة الولد الذي بكّر في البلوغ والقساوة إلى الإقبال الواعد بلعب وسلام آمنين. وعلى شاكلة انقلاب عبارة وجهه من صرامة تكاد ألّا تكون وجومًا إلى انشراح مهلّل، انقلب تحفّظه، حين ندخل الصف ساكتين واحدًا بعد الآخر، ونجلس وراء طبقاتنا وسواعدنا على الخشب المائل والمقشّر، في يوم كنّا نزورهم فيه، ابتسامًا عريضًا ورعاية أخوة، ثم تراكضًا وصعودًا على الشجر، وتخبئةً تحت الأدراج ووراء الحيطان. وأسرَّ فريد في زيارة ثانية لم يسبقها ردّ رِجل لدار جدّي أنّه ينوي، بموافقة أمّ سلمان، شراء معزاة صغيرة أو ربما شاة صغيرة ورعيها في كرمهم. فإذا رضي أهلي شراكتي في الشراء صرت شريكًا كاملًا في رأس المال. وإذا لم يرضوا ورغبتُ أنا، أشركني في رعيها. فننتقل بها من بقعة رعي إلى بقعةٍ أخرى، ولا تترك وراءها عشبًا لم تأكله قبل مباشرة بقعة بجوارها، ونربطها بالحبل إلى جذع شجرة فلا تتجاوز دائرتها على هواها. ونحول، في الأثناء، دون تجاوز الجيران والعابرين حائط الكرم واستباحة عشبه وأعشاشه. وعلى هذا، تسمن المعزاة أو الشاة سريعًا، ويكثر لحمها الطري، ويغلو ثمنها. ونرى ما نصنعه بها. فإمّا نبيعها لراعي القطيع الذي يمرّ آخر الربيع القادم

بالبلدة قاصدًا الغرب وإمّا نبيعها لأحد اللحامين في السوق، ونتقاسم ثمنها، اشتركتُ في رأس مالها أم لم أشترك.

وأنجز ابن بنت عمّي وعده. ورعينا معًا ساعورًا أو خروفًا، أو ماشية هي تارة ساعور وتارة خروف تتنقل ذاكرتي بينهما من غير قرينة قاطعة على هوية الحيوان أي نوعه. وقد تذهب إلى نفي الأمر كلّه، فلا هذا ولا ذاك، ولا رعي أصلًا بل صورة في الذهن يتيمة، أرانا نحن الإثنين في زاوية منها كثيرة الضوء، جالسين على صخرتين غسلهما المطر من قبل، أو هذا ما ينبغي على متصفح الصورة أن يحسبه، وبيننا أرض بنّية قريبة من الحمرة، يغطّي عشبٌ زاحف ورقيق كالدوالي، لم أرَ مثله في هذه الناحية، طرفها، وعلى بقعة العشب قوائم الشاة أو الساعور، ووجهها أو وجهه إلى بؤرة الصورة. والصورة التي تثبت اللحظة، وتقْطعها من وقت سابق ومن وقت لاحق معًا، وتردها على نفسها، تخرجها من الحوادث المتعاقبة ومن الحياة. فترمي بها في دوامة تخمينات تتناول حقيقة الحال التي كانتها هذه اللحظة: هل كانت بعضًا من رغبة؟ أم جزءًا من تذكّر؟ أم تهويم يقظة؟ نقلًا عن أخبار تداولها رواةٌ نُسوا؟

في دار لصيقة بدار جدّي، حائطها على حائط دارنا ونعبر إلى مصطبتها وشرفتها من كوّة مثلثة الأضلاع، يقيم ابن عم لجدّي. وهو شيخ معمّم، عمامته لفة متواضعة ومذهّبة على طربوشه على شاكلة لفة الشيخ عبد المنعم وربّما تفوقها تواضعًا. والشيخ كاظم – وهو لا يُنسب حين يسمّى إلّا مضافًا إلى «بيت» فيقال بيت الشيخ كاظم أمين – لم أعرفه إلّا اسمًا، عرفته إسمًا ورسمًا. فصورته الفوتوغرافية، وهي بين وقت ووقت شمسية أو صورة من غير تعيين، بقيت أعوامًا في بروازها الرصاصي الغفل، على طاولة من زجاج بين منافض سجائر معدنية وخزفية، ومجسّمات أباريق وجرار من فخّار، وتمثال امرأةٍ بدوية في ثوب طويل وزاهٍ يصف استدارات جسمها وصفًا قريبًا. ولا يكاد الشيخ يرى في الضوء القوي الذي يغلب على الصورة ويمحو منها منظر حديقة بالألوان وراءه، ويُغرق وجهه الضيّق وشيب لحيته وقميصه البيضاء تحت صدريته، فيبقى منه شبهه بابني عمّه، جدّي وعمّي.

وهو خلَّف، إلى اسمه ورسمه الضعيفين بعد موت لا يذكر أحد وقته ولا يروي ظروفه، صمتًا ونسيانًا كُفّن بهما ووارياه في الثرى، على ما يُكتب في أوراق النعي المطويّة. وليس ذلك لأنه لم يلد أولادًا يُنسبون إليه. فالراوي

عرف ستةً من أولاده، ثلاث صبايا وثلاثة شباب، وشهد عُرسَي بنتين من الثلاث وعرسَيْ اثنين من الشباب في عقد السنين اللاحق. ولم يحضر عرسي الشاب الثالث، وهو بكر أولاد الشيخ كاظم أمين، والبنت الثالثة، وهي ثانية الأخوات، لأنّ العرسين لم يقاما. فالأخ والأخت جُنّا جنونًا لا شفاء منه، ولم يشفيا منه، في إثر قصف يهودي قريب بقنبلةٍ ألقتها طائرة كادت تلامس المزبلة، وراء بوابة الدار الحديد وعلى رأس المنحدر المفضي إلى الكروم، وهي تحوم على طرف البلدة الشرقي في دغشة الصبح، قبل أن يصحو الناس من نوم وصف بالعميق. واختلطت الزبالة والأتربة وحجارة التصوينة ومِزق أوراق التبغ الجافة والمتطايرة، وتناثرت حول الفجوة التي حفرها الانفجار الهائل في موضع الضربة. وحَسِب الذين خرجوا من النوم في أوّل نهار لم يصبح على خير، وكان شرًا وعتمة وتعثّرًا كلّه، أنّ عدد قتلى الهجوم لا يحصون، وأنّ هذا الحي من البلدة قوّضه الدمار، وسوّى دُورَه المشيّدة باللِّبن والمسقوفة بجذوع الشجر والبحص والبلان المخلوطين بالطين، بالأرض.

ويروي الذين حضروا الحادثة ولا يكرهون الرجوع إليها، ولا إعادة الكلام فيها على رغم إقرارهم بأنّها كانت «باكورة التعتير»، على قول أرملة الشيخ كاظم أمين – أنّ ما حماهم من الجنون هو الفرق بين توقّعهم مئات القتلى، ومحو نصف الضيعة من وجه الأرض، وبين جردة لم تتعدَّ نشر بعض الزبالة على سطوح تنتظر تجفيف القمح المسلوق في الشهرين القادمين، وفي دُور شبّ العشب في مساكبها. ولم يعلم أحد ما توقّعه ولدا الشيخ، حسان وأمينة، حين أفاقا من نومهما الثقيل وهمدا «هَيْك الهمدة من يومها»، على قول الأم والإخوة وعموم مؤرّخي تلك الصبيحة المشؤومة. ومذ ذاك ناوب الأخوان، وحسان على الأخصّ، بين صمت مليء بالإيماءات وبعبارات الانفعال الغامضة وبين انفجار الكلام الصاخب، والمتدافع خطابةً وشعرًا يتوجّه بهما الخطيب الشاعر في الصباح المبكر إلى الهضبة العالية، والحاجزة أراضي البلدة عن السهل المنخفض الذي يليها. وتقتصر أمينة، حين قيامها من فراشها في الساعة نفسها، على جلوس ساكن في قميص نوم قطنية، على طرف المصطبة اللصيقة بجدار إحدى الحجرات الثلاث، ومناجاة باب البئر، على بعد خطوات من قدميها العاريتين، بحداء لا تذكر أختاها ولا أمّها أين سمعته، ولا من أي طريق بلغ أمينة.

والكوّة أو الطاقة، والأدقّ والأعمّ استعمالًا باب الطاقة، بقي ممرًّا من حجرة دار جدّي العليا إلى سطح البئر الواسعة بدار الشيخ كاظم أمين، أو الشيخ أبو إحسان، ما وَسِعنا جميعًا طيَّ أجسامنا على شاكلة بالة ثياب، على وصف عمّتي، ودحرجتها من الطاقة الضيّقة إلى سطح البئر العريض. ومن كفّ جسمه عن طاعته تَركَ الاستعانة بالكراسي الواطئة، ورفع جسمه بارتقائها، ثم إدارة الظهر إلى الحائط وشَقَلَ أسفل ظهره ومؤخرته إلى مستوى حافة الطاقة. فاقتصر عبور الشباك على الأولاد. والحقّ أنّ غير الأولاد لم يبقَ داعٍ يدعوهم إلى اجتياز المنفذ هذا. فدار الشيخ أبو إحسان لا تُزار، لا يزورها الأهل وذلك من غير نهي ولا حرم، ولا افتقار إلى عاطفة قرابة وجوار. ولم يُقل كلام يعين على فهم الأمر، ولا مرّت على الوجوه عبارة توحي انقباضًا أو رأيًا متحفّظًا عن طرق باب هؤلاء الأقارب أو إعلامهم بنيّة قصدهم أواخر بعد الظهر.

وبين وقت ووقت، كانت إحدى عمّتَيَّ تقف بإزاء الشباك، وتميل مع قوس القنطرة الذي يحاذي رأس المثلث، وتجدد تثبيت غطاء رأسها الشفاف على شعرها بيد بينما تستر عنقها بيدها الأخرى، قبل أن تلتمس سمع أحد من أهل الدار: «يا بنت عمّي... يا أمّ حسان! يا حسان... يا...؟» إلى آخر سبحة الأسماء. ولا تجهل العمّتان، ولا جدّتي حين ترى أنّ بنتيها أهملتا، فوق ما يحلّ، تفقد أحوال أقرب الأهل سكنًا، أنّ بين من ينادون لا يسعهم جواب النداء. فحسان يتردد بين مستشفى الأمراض العقلية وبين عودة قصيرة إلى صحبة أمه وإخوته، قبل أن ينقطع عن عودته هذه. وأمينة سبقت أخاها إلى الانقطاع منذ سنتين أو ثلاث. وابن أمّ حسان المولود بعد أخيه البكر، وهو خياط مثل والده الشيخ ولا يشرك العمامة مع الخياطة، يتنقّل وقتًا بين حيّ من أحياء عاصمة بلد قريب، قال إنّ لنا أقارب فيه يحبوننا ولا نعرفهم، وبين الكويت التي سافر إليها، وزاول حرفته في دائرةٍ ضيقة فيها، قبل أن يتخذها مقرًا بل وطنًا.

فإذا أطلّ الأولاد أو أحدهم، ويصدف أن يطلّ واحد منّا، أظهرت العمّة برمها بتخلف المنصوب للإجابة. ألم يسمع مَن المُنادى؟ ولماذا، في المناسبة، طَرِش المنادى؟ وماذا عساه يصنع في الحشرة؟ وهذه تُقال بصوت لا يميّزه إلّا الواقف لصق العمّة، في دارنا. فإذا حاول هذا التسلُّل إلى سطح البئر في الأثناء أمرته العمّة، بيد صارمة على رأسه وصرخة في وجهه بإرجاء فعلته إلى

حين انقضاء «الشحار» الذي نحن كلّنا فيه. وحين يجيء الجواب المنتظر على صورة وجه أمّ حسان، «النيء»، على قول فاطمة فيه ومجاراة زينب، أو وجه البنت البكر الباسم والهادئ، سوّغت العمّة مناداتها بما سمعته عن خبر صباحي عن فلان أو فلانة تريد استيضاحه والاستعلام عن بقيّته. ويُقضى الأمر في ثوانٍ، على خلاف فصول لعبنا.

وما عدا هذا الصنف من المحادثة، ومن الاطمئنان إلى الحال، وعلى هذا النحو الخاطف، قلّما وقف واحد من دار جدّي، من غير الأحفاد، وقتًا يفوق الدقائق القليلة، وتباسط في الحديث مع واحد أو واحدة من ألصق الدور إلينا، وإن باعدت درجة قرابة واحدة بينهم وبيننا. ولم يأت خبر روته إحدى العمّتين، فاطمة على الأخصّ، أو ألمحت إليه أمّهما، أو قرّره أبوهما، أو تندّر به رضا، أو مثَّل به أبو جمال على درس في الأخلاق، إلى آخر من يُتوقّع منه تنويه – على حادثة حضرها أحد من بيت الشيخ كاظم أمين. وبقي موت الشيخ المبكر، قياسًا على ابني عمه، جدّي وعمّي الشيخ، ومقارنةً بفتوّة أرملته، قياسًا كذلك على سنّ أولادها، أمرًا غامضًا. وهو أمر وليس حادثة. فكأنّ هذا الموت شيء طبيعي، على خلاف موت معظم الآخرين، العظام منهم مثل والد جدّتي الذي توفّي بالسل وهو في الثلاثين وحضرت «خلايق» لا تُحصى تشييعه إلى ضريح قرب جبانة البلدة لا يزال يُضاء مصباحه بالزيت إلى اليوم. وعلى خلاف موت بعض عامّتهم مثل أبو طريف الإسكافي الشاطر الذي خسر نظره وسمعه، وضربه الشلل لِعلّة خفيّة، وأصرّ رجال العائلة على الطواف بجنازته على بيوت أقاربنا في الحي، وساروا وراءه وعلى وجوههم، ولحى من لهم لحية، وعمائم من على رأسهم عمامة، حزنٌ لم يُرَ مثله في جنازات كثير من الأكابر. فكأن الشيخ الذي حذف اسم العائلة من نسبته المختصرة، لم يمت، ولم يمرض ولم تودِ به صدفة قاتلة، فتبدد في الليل تحت جنح العتمة، ولم يترك ذواؤه أثرًا يذكر به، على شاكلة أوقات غريبة تخيّم، في ساعات متفرّقة من النهار الباكر أو بعد الظهر القريب من المساء، على أمكنة مختارة، فتحيلها مجسّمَ وقت خالص. فإذا أرادت العين إثبات الوقت لم تبق منه غير كومة رماد ضئيلة تشبه الصورة الضائعة في بروازها الرصاصيّ بين المنافض والأباريق الفخار.

والقول، على هذا، أنّ جيراننا، من ناحية الكروم والشرق هم أهل المجانين، وليسوا غير بيت مجنونَيْن يدمي غيابهما وحضورهما القلب، يجانب

حقيقة الحال. فحسّان حين يحل ضيفًا على أمّه وأخواته وأخيه، وعلى أقرباء وجيران آخرين مثلنا، وإن لم نستقبله لا على طعام ولا على شاي أو سهر، لا يلبث أن يصبح جزءًا من النهارات وحوادثها ومعاملاتها. فيقف أوّل الصبح قبالة الزيتونة في وسط دارهم ويسألها عمّا بها، وهل تشكو عطش الزهور الكثيرة الألوان في المسكب بجوارها. ثم يدلي بالدلو في البئر ويسقي المسكب القريب. ويثنّي بسقاية الثانية ويهم بسقاية جذع الدالية. فتخرج أمّ حسان، في ثيابها السود من فراشها، متمتمةً وكأن أحدًا أنذرها بما يفعل ابنها فترجوه، وهي توشوش، ألّا يدلق الماء فوق كفاية الزرع، لئلّا تهترئ جذوره، على قولها. ويتجاهل حسّان رجاء أمّه وتعليلها، ويصعد درجات السلّم الثلاث أو الأربع إلى مصطبة الباطون العريضة، وهي سطح البئر وحجرة أرضيّة كانت مشغل خياطة ومربط فرس على الأرجح، معًا. ويخطو حسّان خطوات نحو الحاجز الخشبي الخَلِق، على حافّة المصطبة، وتراقبه أمّ حسّان مقطّبة، ويستقبل بصدره وجبهته العريضة وشعره العبي والنازل إلى آخر رقبته، الفضاء الفسيح، الممتلئ بزرقة شاحبة فتية والمنحني على السد الجبلي، إلى الجنوب، والرابية الحبلى إلى الشرق، ويحدّق ثانية أو ثانيتين في هذا كلّه قبل أن يُنشد شعرًا عربيًّا يختاره من المعلّقات، وكان يحفظها كلّها ويقدّم على سائرها مُعلّقة عنترة بن شداد، ولا يبالي بتشكيك المشككين في جواز إدراجه في أصحاب المُعلّقات، أو يغنّي ميجانا أو عتابا، ويحفظ ما يغنّى في الدبكات الانتخابية واحتفالات الزواج. وإذا اتفق إنشاد حسّان أو غناؤه، وهو أقرب إلى الإلقاء منه إلى الغناء، مع يقظة عمّتي فاطمة، استوت واقفة قبالة الطاقة، والتمست عيناها وأذناها المكان الذي يخطب منه حسّان، وردّدت شفتاها بعض ما يلقي، ولاحظت من غير إبداء رأي ومن غير إنكار «أدان اليوم عند حسّان عتابا!».

وفي أوقات أخرى من النهار، حين يأذن وقت الجلوس بعد القيلولة والزيارات والشاي والكلام، وتوديع ساعات السعي المنقضية، والدخول في المساء قبل الانقطاع من مسرح الدنيا الساكنة، كان حسّان يخالط لعبنا، نحن أولاد بيت الشيخ أحمد وبيت الشيخ كاظم أمين وأولاد بعض جيران هذا، على طريقته. فإذا لعب ثلاثة من هؤلاء بالحبل وتفرّج آخرون على لعبهم، فاجأهم بالقفز على الحبل قفزة أو اثنتين، وغادر اللعب إلى الفكحة المجاورة. فدفع بقدمه قرص الصوّان المكعّب، خانةً، ودار على نفسه، ورسا على قدميه

متفرّسًا في اللاعبين وسائلًا إياهم: «مين دبح عجلة السيد؟»، وخرج مولولًا، ورافعًا سبحته فوق رأسه، ومتوعّدًا بالعودة في انتظار الجواب بعد شهر وربّما سنة، هو والوليّ النائم في قبره قرب بركة الضيعة، وأخته أمينة النائمة في المستشفى بسبب المسكّنات والكهرباء.

ولكنّ نجم اللعب في دار الشيخ كاظم أمين ومسرحها المزدوج، سطح البئر والفسحة العريضة التحتا، كان نهلة، بنت الشيخ الثالثة، السريعة الحركة والركض في ثوبها الواحد، الليلكيّ الغامق والطويل، وصندلها البلاستيك الذي تزعم أنّها تلبسه في نومها قبل أن ينفجر ضحكها، والمتدفقة الكلام عند الاحتجاج لمحلّ الحجر من خط الطبشور، أو لمن السبق إلى السملحة على المربع، فتتغلّب على المحتجّين المخالفين، وتقسرهم على اللحاق بما تلقيه من براهين لا تحصى ولا يُعرف آخر البرهان المتقدّم من أوله المتأخّر، وتُلزمهم الكفّ عن الاعتراض ليس لأنّهم يفتقرون إلى الردّ، بل لأنّهم يلتقطون أنفاسهم وهم يحاولون فهم سيل الكلام المتدحرج مع نثرات اللعاب. ويتلافون توقيعه بحركات يديها القاطعة والذاهبة في الاتجاهات كلّها، وهي تدور على عقبيها فجأة، وتنقل جبهة الاحتجاج من جهة إلى جهة، وتبدّل من تقيم حجّتها عليهم، وتخلط بعضهم ببعضهم الآخر، فلا يدري مخالفوها من هم هؤلاء الذين تردّ عليهم، الآن، ولا الحجّة التي تتوسّل بها إلى إسكاتهم. فلا تفارق متعة المشادّة متعة اللعب مع نهلة. وتلازمهما الثابت ضمان الحصول على متعتين. وحين كانت تقرفص نهلة على الجهة الثانية من الطاقة، وتبرز ركبتاها تحت ثوبها البالغ الأرض، وتعقد طرفي غطاء رأسها المزركش تحت ذقنها وهي تفتح ما وسعها عينيها وفمها معًا، وتنظر أمامها ووراءها وإلى جنبها، وتدعونا إلى اللعب قبل أن يبدأ في غيابنا، لم نكن لنشكّ في أنّ المتعة كثيرة، ولا في أنّ مشهد صاحبة الدعوة وهي تتولّى أمرنا وتقسمنا جماعات وعصائب وتقاتل في سبيل الحقّ وأهله، هو أمتع اللعبين.

ومخالطة نهلة اللاعبين، وحجزها ما بينهم، وتعمّدها التمثيل بنفسها على موقع اليد أو القدم أو الرأس أو الخصر أو الصدر في التحكيم الذي تراه وتريد منّا قبوله، حملتها هذه على إعمال جسمها، ومواضعه كلّها، في المخاطبة. فيسابق رذاذ لعابها على وجوهنا ورقابنا جملها المتدافعة، وتغطّي رغوته لسانها وهو يتلوّى داخل فمها وفوق أسنانها، ويحيل الراء غينًا رخيّة، على

خلاف غين أخيها التي تخرج من حلقه جلفة وقاسية. ويحاذي أحد وركيها العريضين والمليئين في ركضها، وتخللها جمعًا من اثنين أو ثلاثة منّا، يدًا أو بطنًا أو فخذًا أو ركبة أو كتفًا، فلا تهاب المحاذاة ولا الالتصاق العابر. وتُداري عنها، وعمّن دفعته أو صدمته أو لامسته، الحرجَ أو التأويل المغرض بافترار شفتيها وعينيها عن التماعة ضوء جانبي تحول نهلة بينه وبين التمادي. فلا يتمادى أحد في تعليل مسّه بها أو مسّها به، ولا تتخطّى النظرات الحرّى التي رأيتها، طوال سنوات من اللعب المختلط، في أعيننا كلّنا، الجفونَ والأحلام. وبقي دور أخيها الذي يصغرها سنًا، وهو أوكلت الأمّ إليه حماية أخته من أيدي الأولاد الذكور ومن ألسنتهم، معطّلًا ولا حاجة إليه. وحين تزوّجت نهلة، غداة خمسة عشر عامًا على لعبنا، اختارت رجلًا يكبرنا ويكبرها بأعوام، لم يشاركنا يومًا لا لزّ أجسامنا بعضها ببعض، ولا الإحساس بميلها الأليم إلى البقاء على حالها، ولا السكوت عن أثر هذا وتعقّبنا هذا الأثر، حين نخلو بأنفسنا، في مواضع الكتف، أو الورك أو الصدر أو البطن، لامستها اتفاقًا نهلة.

ورغبتُ رغبةً، ليست واحدة، بل رغبات موجعة في قضاء ليلة، أي ليالٍ، على فراشٍ في بيت الشيخ كاظم أمين، بينه وبين فراش نهلة النائمون الآخرون كلّهم وكلّهن، وفي هؤلاء طيفا سليمان وأمينة المخيفان، على أن تجمعنا جدران بيت واحد، ونبيت تحت سقف واحد. ويقيني أنّنا، في أثناء الجلوس للأكل حول شرشف البلاستيك أو صينية القش أو الرواح والمجيء الحائرين اللذين يسبقان الاستلقاء وإطفاء القنديل أو اللوكس، لا بد من أن تلتقي عيناها المطرقتان حياءً وشوقًا، على ظنّي، بعينيّ المتهيّبتين الإعراب عن ولهي بوجهها، فنسترق نظرةً لا أشك في أنّ نهلة أودعتها لهفتها على نحو ما أودعتها لهفتي إلى ذوبان واحدنا في الآخر. ولكن شيئًا من هذا لم يحصل. واستغرق الاشتراك والاختلاط العلنيان في اللعب، وانهماك نهلة في توزيعنا على فرق مختلفة تختص فرقة منها بالغميضة، وثانية بالإكس، وثالثة بالقفز على الحبل، ورابعة بالشدة، أوقات اللقاءات كلّها. ولم يترك انشغالها بالتأليف بيننا والتحكيم في منازعاتنا، واسترضاء المتنحّين واستدراج المتردّدين، ثانية واحدة معلّقة، فيلوح منها ما قد يُؤوّله واحدنا، أو يؤوله الراوي، تخصيصًا له بالاهتمام أو انصرافًا إليه دون غيره. ولعل مساواتنا كلّنا بلطف عموميّ واحد، ولباس معالجة خلافاتنا لباس قوانين مجرّدة لا تصنع نهلة غير إعمالها أو النطق

بها، جنّبانا غيرة نهمة كانت لتأكلنا، على ما أحسب، لو توهّم أحدنا أنّ صديقتنا تهوى فلانًا أو فلانة من أصحاب اللعب. والحقّ أنّني لم أوقن على وجه قاطع بتجرّدها من كلّ ميل، ما عدا ميلها الأموميّ والرعويّ، إلّا بعد زواجها برجل لا يشبهها بشيء ولم يلعب يومًا في طفولته ولا في صباه.

وربما عاد أمر بنات، أي بنتَيْ أمّ سلمان، واختيارهما كلتاهما رجلًا زوجًا، إلى معنى غريب وعصيّ على أفهامنا في حالَيْ طفولتنا ورشدنا. فبنت أمّ سلمان البكر، أخت نهلة، الجميلة على شاكلة الصورة الملوّنة، على قول من شاهدها من أهل البلدة، ولا يعيب جمالها إلّا بعض الجمود في قسماتها – وهذا محل خلاف بين عمّتيّ حسمه أي أماته وأسكت الرأي فيه زواجها بابن عم بعيد لنا – تزوّجت بقريب لا يقيم في البلدة منذ عقود، وتركها إلى بلدة في طرف الإقليم المقابل موظّفًا حكوميًا. وتزوّج في البلدة المتطرفة بنت موظّف زميل له قبل نحو عقدين من السنين. وولدت له زوجته هناك العدد الذي يشتهي من الأولاد. ولكنّها بقيت خفيفة الطبع والعقل، لا تؤتمن يدها على راتب أو مصروف، ولا ترعى لمقام أو مرتبة أو نسب حرمة. فتدعو إلى طعامها وضيافتها من هبّ ودبّ من الناس: سائق البوسطة وزوجته، اللحام وصانعه، بائع الدجاج وعائلته، ومدرّس المدرسة المسيحي والعازب... وتكرمهم بسفرة عامرة. وقد تستدين من مدعوّيها، وتشتري ما تحتاج من بضاعتهم لقاء وعد بالتسديد لا يسع ابن عمّنا إخلافه. وتردّد قبل تطليقه ابنة زميله، وقيل إنّه عشقها ولولا ذلك لم يُولدها الأولاد الذين ولدتهم له، ولم يتردّد خمسة أو ستة أعوام قبل الإقدام على خطوته. وتزوّجت الأخت الجميلة هذا الرجل، ومذذاك لم أرَ لها وجهًا تامًا سافرًا. ولبست العباءة العراقية، وغطّت ثلث وجهها بها، وأبقت على مكياجها التام السابق، وعلى ابتسامة تبلغ عرضها الأوسع من غير تردّد، ولم تبخل بالكشف عن هذا. وهي تضحك مثل طفلة أتت ما تظنّه ممنوعًا.

وطوال وقت غير قصير لم أرَ صلة بين قرب دارَيِ الشيخين عبد المحسن وكاظم أمين من دار الشيخ أحمد، جدّي، وبين ضعف تزاور أهل هذه الدور. وتلاصق الدور الثلاث، وسكن أخوين وابن عمّ لهما هذه البيوت، لم يعنِ لوهلة أولى أنّ الأخوين وابن عمّهما ربّما ولدوا وشبّوا في بيت واحد. ويتصل البيت من بوابتَيْ جدّي وعمّي، المتواجهتين على ضلعيْ زاوية قائمة تنعطف عندها الطريق إلى قلب حارة بيت الجمعاني، إلى آخر ممرّ يتوسطه مجرى ماء

وزبالة يُفضي إلى عتبة لا باب عليها، وتفضي هي إلى مصلّبية تنعطف يُمنةً إلى الجامع، ويسرةً إلى حي خليط من العائلات الصغيرة، وتتوجّه مباشرة إلى حي يُعرف باسمين: حي الإسكافية أو حي الوليّ. ونواة الدور الثلاثة واحدة، حجرتان واسعتان تتصدّران فناء منبسطًا أمامها، بعضه نُقلت إليه تُربة زُرعت فيها الخضار، وأُنشئت حظيرة طيور على بعض آخر بجنب بيت خلاء، وشُيّدت بركة قرب البئر. وتُرك شطر ثالث لبناء ملحقات متفرقة: مطبخ خارجيّ أو غرفة استقبال أو غرفة نوم محدثتين. وامتازت دار الشيخ كاظم أمين، قياسًا على الاثنتين الأخريين، بباطونها الكامل. فالفناء، وهو على مرتبتين، صُبّ كلّه، ما عدا أصص ورد وقصب وعريشة، بالإسمنت. وسطح الحجرتين كذلك. والجدران تحت طلاء كلسي خفيف، وليس من طين. وامتياز هذه الدار، إذا صدق أنّ الباطون والحجر من علاماته، بقي من غير تعليل. وهو، في تصوّري، يخالف ما أراه من أحوال البيوت التي كانت ربّما في يوم سابق بيتًا واحدًا وجامعًا أو متّصلًا. فليس بين أبناء الشيخ كاظم أمين متعلّم واحد ينصبه عِلمه، وشهادته من بعد، في وظيفة في التدريس، مثلًا، على ما هي حال عمّي وعمّي وعمّي وأبي وعمّتي وابن عمّي، أو إلى المحاماة، شأن العمّ الشاب الذي ينعى عليه جدّي التسكّع وغلبة لعبه وابتسامه على عمله وجدّه. وليس الأولاد العاملون بين بلدان كثيرة وبعيدة هم السبب في الباطون أو في الحجر. وقد لا يكون أبوهم السبب. وتحرّيه عند الجدّ أمر فاق التصوّر والقوّة على التخيّل، فتُرك على حاله معلّقًا وغامضًا، ومعه علاقة أهل بيتنا بأهل بيت ابن عمّهم، وعلاقة هؤلاء بأهل بيت عمّي الشيخ حسان، جارنا اللصيق الآخر.

والتسليم بالتعليق والغموض لم يقطع السؤال عمّا يكنّه هؤلاء الأقارب بعضهم لبعض، ولا عن حقيقة عواطفهم تجاهنا، نحن أولادهم أو أولاد أقرب أقربائهم إليهم. والسؤال عن عواطفهم تجاهنا، أختي وأنا، لم يكن يسيرًا ولا واضحًا وبيّنًا. وزاده غموضًا تجنّبنا كلّنا الكلام فيه، صراحة أو تورية. ولا أعلم إذا كان السكوت وقفًا علينا، ويترتب على دخولنا المتأخّر والمتدرّج في دائرة الأهل، وعلى ضعف إلفتنا بطريقة مخاطبتهم بعضهم بعضًا، وقسمتهم ما يعلنون على الملأ وما يتكلمون فيه همسًا، وما يتركونه للتخمين، وما يوارونه الصمت وربّما النسيان. فخريطة الكلام، منذ أن جاء بنا أبي إلى أهله وفي أثناء سكننا معه ومع عمّتي، بدت معقّدة. فبعضه، المتبادل بين طبقة الأعمام

والعمّات، يقال بصوت مسموع وجهير ثم يغيض فجأة في الحنجرة، وتخنقه الشفتان المطبقتان، وتحولان بينه وبين بلوغ الآذان التي نبّهها النزول من صوت قويّ إلى آخر ضعيف. وتزوغ النظرات حين تضعف النبرة، وتتوجّه على موضع ثابت. ويبحث الجسم المضطرب كلّه عن مستقرّ يسنده ويتردد في الركون إليه. ويكاد ينفصل وجه المتكلّم، وعبارته، عن رقبته وكتفيه وصدره، فيقصد جهة هي غير جهة الجسم، ويتعثّر في ضبط الواحد على الآخر.

وإذا حاول أحد الأولاد، من بنات عمّي أو أبنائه، إقحام نفسه، واستفهم ما خفي عنه، أُجيب بتوبيخ حادّ على فضول يحسن به، لأنه حسن النيّة وحريص حقًا على الفهم، صرفه إلى درسه، ولا يبدّد وقتًا وجهدًا فيما لا يعنيه. وأرفق التوبيخ بدفع المستفهم بيدٍ قاسية، وعبارة وجه مشمئزّة، وبالرجوع في وعد سابق بمكافأة. وقد يظهر المتكلّم الهامس، إذا لم يردّ من يكلّمه بالموافقة أو استوضحه بعض ما يعنيه، البَرَمَ والضيق. ويترك مكلّمه خائبًا يداري خيبته بابتسام محرج أو بنحنحة تسبق الانفضاض. وفي أوقات قليلة، كان يلتئم على حدة جمع من عمّتي وعمّي أبو جمال، ويتداول الثلاثة القول همسًا. وقد تشرد الرؤوس خارج حلقة الوجوه الواجمة والمهمومة، ويرتخي الفكّ الأسفل، وتعترض الجباه غضون عميقة، فأفهم أنّ اليأس دبّ في نفوس المتداولين، وأنّ ما يشكون منه – وهو قد يكون شكوى اشتكيتها من كلمة جارحة قيلت في أمّي أو في واحدة من أهلها، أو تذكيرًا بوعد لوّح لي بزيارتها والأغلب على ظنّي أنّني أنا وحدي فهمتُ الأمر على هذا الوجه – قطعوا الأمل في إصلاحه.

وفي كلّ مرّة قيلت فيها صفة، لفظها مهين وغائمة المعنى، في أهل أمّي وفيها هي على الخصوص، مثل «الفلتانة» أو «الخاينة» أو «اللي تركت ولادها»، والعبارة الأخيرة وحدها أدت معنىً مفهومًا بعض الشيء وإن مضطربًا، قطعت الصفة مجرى حوادث عاديّة لا تنبئ بها ولا تمهّد لها. فيستحيل عليَّ حمل الكلام المهين الذي يوجّه إليّ، ويُرفق على الدوام بانكماش الوجه وزمّ الشفتين قرفًا، وأحيانًا بدفعة كوع في الظهر ينبري واحد من الحضور إلى استنكارها – يستحيل رد الكلام إلى سببه أو أسبابه، مهما حاولت. ولم أقصِّر في المحاولة، على ظنّي. ففي يوم قريب عدت في المساء إلى بيت جدّي من بيت يسميه أهلي كلّهم، على اختلاف مراتبهم سنًّا ودرجة قرابة، بيت خالي الشيخ، ويقصدون بالخؤولة أخًا لجدّتي درس العلم في حاضرته وتوفي بالسل مثل

أبيه، شابًا أو كهلًا في مقتبل كهولته لم يبلغ الأربعين، وهي قريبة من سنّ أبيه حين وفاته.

وبيت خالي لم يكن بيت هذا الخال، أو هو لم يعد بيته يوم تردّد الراوي إليه، بل كان بيت ابنه. والإبن كان خالي الشيخ كذلك، على شاكلة أبيه واسمه، وبيته بيت خالي. وأقامت مع أهل ابن خالي، أو خالي، أخت له جازت الأربعين ولم تتزوج. وإذا ذُكر الزواج وهي تسمع طافت ابتسامة ساخرة، تنقّلها بين مواضع من فمها، وترسيها بالموضع المختار. وأقام معهم أخ في سنّ قريبة تأخر زواجه إلى وقت لاحق. وأحجم الاثنان عن الزواج نكاية بزوجة أخيهما، ورغبة في تطويل إعالتهما لهما، على قول بكر أولادها الذكور، ربّما ثأرًا من عمّته أولًا وعمّه ثانيًا وردًا على مراقبة العمّة الشديدة انحراف الشاب عن نهج المشيخة الذي لم ينقطع منذ أجيال. وما عدا الإثنين لم يكن لأخيهما أثر في الدار المشتركة. فابن خالي ملأ بيته، وهو ورثه عن أبيه أم بناه هو، أولادًا على رغم تبكيره في الرحيل. فترك منهم سبعة بقوا أحياء وشَبّوا من بعده. وكنا نقول إنّنا ذاهبون في زيارة إلى بيت خالي الشيخ أو إنّنا عائدون من المبيت هناك، غدًا صباحًا أو مساءً. والقائل واحد أو واحدة من طبقات الأعمار الثلاث: أمّ جواد الجدّة، أو رضا العمّ، أو مها الحفيدة، بنت عمّي. وتوسّعت التسمية، فكان يدلّ بها مهدي، ابن عمّي الشيخ أبو عبد الرضا، على أولاد خالي، وهو، مهدي، لا تربطه رابطة خؤولة بهم وبببيتهم.

وعلى خلاف بيت عمّي الشيخ، كان بيت خالي مقصد معظم الزيارات، ومحل الأكل والنوم ليلًا، يومين متتالين في بعض الأوقات. ويقع البيت في طرف الضيعة الآخر، بمحاذاة كروم وقطع أرض وحقول إلى الغرب منها، ونظير تلك التي تقع إلى شرقها، حيث بيتنا. وتقتضي الزيارة اجتياز ما بين الجهتين، أي الحارات التي تتوسطهما كلّها، ونزول منحدر الهضبة الذي يكاد يكون مستويًا في ابتدائه ثم ينحني فجأة وينزل إلى ساحة البلدة القديمة على رسم زاوية قليلة الانفراج تفضي إلى قاع الوادي. والمنحدر منزلق يهوي سالكه على قفاه إذا زلق قبل أن يدرك ما يحصل له. فالحجارة التي بُلّط بها صفّا الطريق، على جهتي مجرى الماء ومستودع الأوساخ وممرّ الدواب في الوسط، ملساء وبراها المشي. ويدعو منظر المنحدر المشاة الأولاد إلى الركض، ويخيِّل إليهم الطيران الهانئ والآمن على هواء رفيق بهم، يمتطون

ظهره الناعم ويبلّغهم السفح العميق بطرفة عين في حلم معلّق. ومشي هذه الطريق عشرات المرات نزولًا وصعودًا، والوقوع في الأثناء، على القفا أو على الصدر والبطن واليدين، والخروج بجروح هي أقرب إلى رضّات وجلفات لا تسيل الدم، وتترك قشرة يابسة وعلامة خفيفة في موضعها، لم تصرفني عن سلوك الطريق وتوقُّع الانتشاء بالطيران فوقها. واستنكار عمّتي الآثار التي خلفها وقوعي في الكوعين والركبتين، على الأخص، واستفظاعها نفور الدم من جرح فاغر في شفتي السفلى تركته عضة أسناني حين وقوعي وامتلاء فمي من الدم، لم تقنعني بالعدول عنها إلى الطريق الأخرى.

واسم الطريق هذه طريق السوق، على خلاف طريق الساحة. وهي مستوية، وتحاذي حي الإسكافية أو الوليّ، وتمر بعدها بمصطبة عريضة تصل الجهة الشمالية من البلدة بمقبرتها الفسيحة والمنبسطة على منحدر هادئ. وهذا يستقبل بطنه المستدير، من غير تخمة ولا شحوم، في الظهيرة، الشمس المائلة جنوبًا في السماء. وتردّ القبورُ المكسوّة بكلس أبيض مائي تمهّلَ الشمس قبالتها توهُّجًا خجولًا وحانيًا على الموتى، وعلى المارة الذين يلقون نظرة عجلى إلى يمينهم وهم رائحون صوب السوق. وتفضّل عمّتي طريق السوق الفسيحة، والمتصلة من خروجها من حي الإسكافية إلى دخولها السوق وهو شطر كبير منها، على طريق الساحة المتعرّجة، والموسوسة بوساوس غريبة أدّت إلى جعل ابن أخيها «متل حمار معأوَر»، وليس أبدًا حمارًا مثل الحمير العاديّة التي يعجّ بها السوق في يومه، وتفوح روائح روثها وجلدها في أنحائه، على قولها ساخرة. وحجّتها المسكتة هي أنّه لا يسع أحدًا غير أولاد يغلب الطبع الأهوج على رؤوسهم الفارغة ومفاصلهم المرنة، وتغلي دماؤهم الفوّارة في عروقهم، التدحرج على نزلة الساحة والوقوع على أكواعهم ورقابهم، من غير تكسير عظامهم وخض دماغهم. وهذه الشروط، الطابع الأهوج والرؤوس الفارغة والمفاصل والدماء، وعمّتي تحصيها كأنّها جزء بسيط من لائحة طويلة تتفضّل باختصارها دفعًا للضجر والحرج – تستبعد عمّتي وعمّتي وجدّتي وجدّي، وهو لا تعنيه الزيارة. وذكرُها الدماء والمفاصل وربّما الرؤوس، لا يبعد أن يكون تعريضًا بأشياء أخرى لا يمتُّ وصفها إلى الطريقين بشيء.

وعدت ذلك اليوم من بيت خالي الشيخ دامي الركبتين، وجُرحُ شفتي السفلى ينزف فيلوّن دمي المختلط بريقي أسناني، على ما أرتني عمّتي في مرآة الخزانة حال وصولي، إمعانًا في تخويفي وفي تعليل نقمتها وارتياعها. وكنتُ قضيتُ بعد ظهر اليوم السابق وليلته إلى مساء اليوم التالي كلّه في زيارتي الطويلة. وعدتُّ متأخرًا من طريق الساحة، فخالفتُ مرتين توصيتها بالعودة عصرًا، على ضوء، ومن طريق السوق. والحقّ أنّ ابن خالي، وهو يكبرني بنحو ثلاث سنوات أو أربع وأقرب إخوته وأخواته طبعًا إليَّ وسنًّا على رغم أنه توأم أخيه، ابن خالي هذا ذكّرني بما أوصته عمّتي وأوصتني حين جاء ليصحبني إلى بيتهم البعيد. وحين خرجنا من بوابة دار جدّي وهممتُ بالمشي قدمًا، وهي الطريق المفضية إلى الساحة، وأظهرتُ نسياني من غير انتباه نهيَ عمّتي عنها، شدّ محسن كمّ قيمصي، وأخذ من يدي كيس الورق الذي أودعتُه بيجاما النوم، وقال وهو يهمس إن عمّتي قد تفتح البوابة، فترى أنّ المؤتمن على رعايتي محلّها، هو، لم يتقيّد بشرطها. فانحرفتُ من غير مناقشة وتبعته.

وأمضيتُ يومًا، ليلةً ونهارًا، في الانشغالات التي تستغرقني حين زيارة هذا البيت. فهم وحدهم يربّون الحَمَام في الصناديق المعلّقة على حرف السطوح وبين العرائش. وسطوحهم واسعة ومنبسطة، ويزنّرها صفّ متصل من الحجارة، ويقتصر علوّ الصفّ على مكعب واحد. وعرائشهم وخيمها كثيرة. وكان الحَمَام يملأ حروف السطوح المحيطة بمدخل الدار الخلفيّ، بين الجُنَينتين المسيّجتين والمزروعتين بالخضار، وإلى جنب البركة الكبيرة التي لا ينفكّ أهل الدار ينقلون الماء إليها ويغرفونه منها. ومراقبة الحَمَام، وأزواجه وفراخه، واقفًا متأمّلًا أو سارحًا في البعيد، دائرًا على نفسه ونافخًا ريش رقبته أم منصرفًا بمنقاره إلى استخراج حشرات خفية تلتصق بجلده، حاضنًا فراخه أم طاردًا المتطفّل والمسنّ منها خارج العش، متعة المراقبة المسائيّة هذه لا يُبلغ مداها إلّا لقاء وقت طويل ينبغي على المراقب أن يغفل عن نفسه في أثنائه غفلة تشبه النوم العميق. ويدعو إلى الغفلة عن النفس، وقتًا آخر، مشهد الدجاجات والدِّيَكة والصيصان، وهي تملأ جناحًا من إحدى الجنينتين وراء السياج في طريقها المتعرّج إلى المبيت، فترجع إحداها على أعقابها، وتهجم كما لو أنّ بها مسّ على فرخة تنقر حبة عثرت عليها. والقطط كثيرة في الدار، وهي من مختلف الأعمار وتتنوع أساليبها في اللعب على هوى أعمارها.

ولكن أرجح ما يدعوني إلى زيارة أهل خالي الشيخ، امرأتان: صغرى بناته وزهرتهنّ التي تكبرني بنحو خمسة أعوام، وأخته الأربعينية النحيلة، والمحدِّثة، واللابسة حدادًا أبديًا على أخيها وأبيها وجدّها. وذلك إلى لعب مع محسن لا يشبه اللعب، هو دعوة ساخرة إلى تخمين ما يفكر فيه. وأمر زهرة كان غريبًا. فهي وحدها من نساء الدار لا تلبس الأسود، من منديل الرأس إلى الجوربين اللذين يحجبان القدمين تحت التنّورة والفستان الواسعين أو السروال الذي يبلغ الكاحلين. وينحسر منديلها الأبيض الواسع والرقيق عن أكثر من نصف شعرها البنّي الفاتح، فتنهمك، المرّة بعد المرّة وعلى طريقتها الرضيّة، بإعادته إلى منتصف رأسها، فلا تصرفها حركتها المتريّثة وغير المبالية عن شاغلها الآخر في الوقت نفسه، أكان لعب الشدّة أم تنقية العدس. وتعود إلى تثبيت منديلها في اللحظة التالية، وإلى شاغلها. ولا يتوارى في الأثناء ابتسامٌ فرح يغشى الوجه، ويعرض على الناظر إليها وأحاسيسه، وجهها الحليبي والزهري، وعينيها الملوّنتين بألوان ريش الحساسين، وأسنانها المصفوفة زنابق منمنمة ومشرقة الصفرة. وتقضي زهرة معظم وقتها في البيت، وفي قميص نوم واحد، أو هي خاطت على شكله، في قماشة قطنيّة واحدة تحسّ العين ملمسها، عددًا من أمثاله. وتتنقّل، على حالها، بين أنصاب مستقيمة لا يُرى من طلائها الفاحم إلى كوى شاحبة ومقطّبة. وحين تتوضّأ وتصلي فتركع وتسجد، أو تتولّى طيّ الفرش صباحًا وبسطها ليلًا للنوم، وحين تسهم بحصّتها من إعداد الطعام، مثل الأخريات ما عدا العمّة الجالسة على الدوام في صدارة مقعد خشبي طويل، فتتلفّت وتنحني وتستدير، لا يتستّر قميص نومها على ظهور استداراتها، من رقبتها وكتفيها ونهديها إلى خصرها وبطنها وكتلتي مؤخّرتها وفخذيها. فزهرة تصنع ما يصنعه غيرها، ولكنّها تلابس كلُّها، بجمالها، حركاتها. وتنفخ حركاتها في أجزاء جسمها حياةً متصلة. ولا يحول لباسها الملوّن ولا وجهها الطافح من دون محادثة الناس الذين تمرّ بهم، والأشياء التي ترتبها أو تنقلها من محلّ إلى محلّ، أو تعمل فيها تغييرًا. ويبقى ما يدور فعلًا في بالها، وما ترغب فيه، خفيًّا. فتقول هامسة وهي تمرّ بي فلا يسمعها بعد حين غيري: «بفرشلك فرشتك الليلة حدي؟»، وهي تعلم أنّنا ننام في غرفتين مختلفتين، هي في غرفة الجلوس مع أمّها وعمّتها وأخواتها الثلاث ومنهنّ المريضة بالصرع، وأنا في غرفة الاستقبال التي ينام فيها إخوتها الأربعة، بينما ينام عمّها

في واحدة قبالة غرفة الجلوس على حدة. وأتحايل على اللحاق بها لأسألها، خلسة، ما تعني. فتتعمّد الحؤول بيني وبين الانفراد بها جزءًا من ثانية. وإذا سنحت فرصة خاطفة فسألتها فيها عن قصدها، ردّت بقول في وارد آخر مثل: «شفت الحمَامَات اليوم؟» أو «خلّيت هايك محسن يضحك عليك؟». ولم يظهر في قسماتها ما ينمّ بفهمها عمّا أسأل. فأشكّ في حقيقة سمعي ما سمعت لتوّي ورماني في أهومة وشهوات لا يطاق خليطها وتدافعها.

والعمّة أمرها غريب كذلك، وغرابة أمرها من صنفٍ غير صنف بنت أخيها. فهي وحدها من بين نساء البيت لم أرَها يومًا تشغل يديها بشيء، بقشر الكوسى أو فقء الفاصوليا أو خرط البندورة أو بلّ البرغل، عدا الأعمال الأخرى المجهدة والطويلة مثل جرش القمح المسلوق والعدس الأحمر أو هرس اللحم على البلاطة. وهذا ما كانت الأخريات، إذا استثنيت «هيي» على ما كانت تسمى المصابة بالصرع، يقمن به مداورةً، ويتولّاه الصبيان لعبًا بين الوقت والوقت. أو ربّما رأيتها مرّة، إذا أجهدتُ ذاكرتي واستنقذت من ضبابها صورة مضطربة تنزع من تلقائها إلى الغروب، يتراءى لي أنّها ترتق عروة قطعة لباس عند الإبط، والقطعة تغطّي ركبتيها، وهي تبحث بعينيها اللتين تزمّ جفونهما عن موضع تُمِرُّ منه إبرتها، وقد رفع إصبعاها الإبرة إلى مستوى رأسها وبعيدًا منه. ولا أذكر أنها أدخلت الإبرة في القماشة. وفي الصور الكثيرة الأخرى، تجلس العمّة في وسط كنبة الخشب الطويلة، وتركن قفاها الضيّق في تنورتها الطويلة إلى حرف الكنبة، وتقدّم رأسها وصدرها الضامر، وتحنيهما صوب من تكلّمه متّكئة على قدم، ورافعة فخذًا وركبةً فوق الأخريين، ومدليةً ساقًا على الأخرى. وبين جسمها الرشيق رشاقةً تنفرد بها من بين نساء العائلة كلّهن، وبين عينيها السوداوين واليقظتين على الدوام، تجاوبٌ مقلق. فلا يسع محدّثها، وهي كانت تستوقفني وأنا أمرّ بمتناول أصابعها الطويلة، أو بمتناول صوتها الحاد والمليء فتدعوني إلى محادثتها، إلا تنقيل انتباهه ممّا تقوله تارةً بحركات جسمها اللائبة، وعبارة وجهها الحزينة والصارمة، وتارةً بكلماتها وجملها التي تجرّها وتمغطها أو تقطعها بصمت هاويةٍ بعيدة. فإذا أوقفتني دهشتي، في كلّ مرّة، من توجّهها بالكلام إليّ، هي الجالسة أعلى من مشاغل الناس، قالت لي قولًا أشد غرابة، في هذا الموضع، من مبادرتها إلى القول وهمست:

– عم تشوف إمِّك، كيفهي؟

ولا ينتظر سؤالها جوابًا، لا تجهله. وتُتمّ السؤال: «إزا شفتهي، سلّم عليهي وإلهي الحاجة زينب بنت خالي الشيخ بتسلم عليكي». وتزداد عيناها صفاءً، ووجنتاها رهافةً وهي تقول هذا. وينمّ وجهها كلّه بشفقة ومؤاساة حانيتين وعاجزتين. وأحدس في لحظة خاطفة، أنّ بنت خالي زينب، ولقبُها الحاجة لم أسمع أحدًا غيرها يضيف اسمها إليه، لكانت ضمّتني إليها وبكت. وربّما تآمرت معي على تهريبي إلى أمّي أو أهل أمّي من طرق تعرفها هي، لولا توسّط الموتى أخيها وأبيها وجدّها، بينها وبين من تميل وترغب في إظهار ميلها إليه، وهي حالي الآن. ورأيتُ في عينيها غيومًا ملبّدة ومبتلّة بدمع يغسل مآقيهما، ورأيتني مسجّى على محمل في الحجرة المزجّجة التي تتوسّط دار خالي الشيخ وتطل على حقل الشيخ الفسيح وعلى الجبلين وراءه، إلى جنب محامل ثلاثة مُدّد فيها موتى زينب، موتى أهلي، جدّتي وربّما عمّتي، وموتاي أنا، نزولًا على رغبتهنّ، وعلى رغبتي أنا، غير جازم في الأمر الأخير جزمًا لا تردّد فيه. وعبارتها عن حبّها هي حزنها المقيم وحدادها الماثل. والحزن والحداد استوطنا وجه زينب وجسمها من داخل، ولوّنا جلدها الشاحب، ورقّقاه، وأضاءا عينيها بضوئهما الليليّ.

والسؤال عن أمّي، وعن حالي بعيدًا منها، لا يحتمل التأويل ولا العذر. ووحدها زينب بادرت إلى السؤال، على نحو لا يسمعه أحد غيري. ولم تُطل السؤال ولا علّلته. وبقي همسها أقرب إلى نجواها نفسها منه إلى مخاطبتي وتوقُّع ردي. وما يتوجّه إليّ من كلامها هو رغبة في العزاء، أو هذا ما أدركتُه وانتهيتُ إليه من حديث بنت خالي القصير والخفيّ. ومن ذيول حديثنا ربما تنبُّهي على ما يريد قوله غيرها حين يطيلون نظرًا حزينًا وأخرس إليَّ وأنا ألعب مع بعض أولادهم. فهذا ما كان يستوقفني من زوجة خالي الشيخ، أي أرملته وزوجة أخي زينب، المنشغلة على الدوام وأبدًا بأمور بيتها، فلا تُرى إلا متجهّمة وبيدها شيء يدعوها إلى قصد مكان آخر، ممسحة تقطر ماءً أو علبة ثقاب أو آنية نحاسية. وتسكت زوجة خالي سكوتًا لا يقتصر على ترك الكلام. فيشبه مزيجُ الكلس الأبيض وفانوس الكاز الوحشةَ والبرد والعراء الذي أحسسته في كل مرّة زرت فيها ضريح خالي الشيخ، شقيق جدّتي ووالد صاحب البيت، وأنا ذاهب من طريق الساحة إلى دار ابنه أو عائد من دارهم إلى دارنا. وأكثر من

مرّة، رأيت أمّ زيد ساهمة ثابتة في مكانها، كأنّها نسيت إتمام حركةٍ ابتدأتها لتوّها، أو سهت عن مكان تقصده وتعمل فكرها في تذكّره، وعيناها الجافتان تنظران في باطنهما وعَلِقتا صدفة بي. فإذا بادلتها نظرتها مستفهمًا استأنفت حركتها المعلّقة، فلم يَخْفَني أنّني سبب في جزءٍ من أساها. وإلّا، أقول في نفسي، لماذا تَعْلق عيناها الفاحمتان بي، ويدعوني ضوؤهما المخنوق إلى الجمود في محلّي والإحساس بالبرد في أطرافي؟ ولماذا تكمل طريقها حين أجمد مكاني وأنظر إليها وأستفهمها من غير كلام ما تريد وما تعني، فترمقني مرة أخيرة وتمضي وكأنّها تحرص على ألّا أرى دمعًا تخبّئه؟

وحين أعود من زيارة بيت خالي، غالبًا من بياتي ليلةً وقضائي شطرًا من نهار اليوم التالي هناك، وأنجح في إقناع محسن الموكل به إيداعي بيت جدّي بالركض على طريق الساحة، تستقبلني عمّتي، وفي بعض الأوقات عمّتاي معًا، بنقمة مكتومة. ولا بدّ أنّ محسن لاحظ علامات مواربة على ما ينتظرني، فكان يفتح الباب الواطئ في البوابة الكبيرة، ويُدخل رأسه وحده ويخبر من قد يسمع أنّ ابنهم عاد، ويغلق الباب كالهارب، ويتبعه نداء: «يا محسن! يا ابن خالي! هايك رايح بلا ما نضيّفك شي؟». وحينها يكون محسن صار على بعد أمتار، ويجيب وهو يكاد يضحك بصوت يحسبه عاليًا، ورأسه إلى السماء، أنّه مستعجل ولا يزال شاي بيت خالته على طرف لسانه. وأمشي أنا مستحيًا صوب الحجرة العالية، ومعي كيس الورق وفيه بيجامتي. فأول ما تراقبه فاطمة هو هذا الكيس الذي يعود عليّ نسيانه بالسخرية الجارحة، وبتعريض ينسب النسيان إلى خلو الكيس من فرشاة الأسنان ومعجونها. فهذه، على تهمة ثابتة، ما كنتُ لأنسى الكيس لو أنّها كانت فيه لأنّها «من شيات الملعونة»، على قول فاطمة الحانقة فيمن كانت زوجة أخيها. وكل ما يُذكّر أو يتصل بها أحافظ عليه وأتمسك به، على ما تحسب وتخشى. وتفحص عمّتي بعين دقيقة آثار مبيتي ضيفًا على أقاربي. فإذا لمحت خدشًا في موضع من كوعيّ أو ركبتيّ أو بقايا تراب عِلقت بقميصي أو بنطلوني، أشهدّت من كان هنا على فعلتي، وأسرعت إلى حمل الأثر على فعلة لا يعلم غير الله ما هي، من صنف الزحف في قن الدجاجات أو تسلّق السلّم المفضي إلى السطح والانبطاح عليه، أو البحث عن دود الأفخاخ تحت جذور الأعشاب الجافة. وتساءلت عمّا يدعو ولدًا مدلّلًا مثلي، قضى سنوات طفولته في المدن والمدارس الأجنبية وركب

البوسطة والسيارة مثل أفضالي، إلى التمرُّغ في الأتربة والغبار وبقايا الوحل الجاف، وحشر الأنف في روائح العفن والعطن الصادرة عن أقفاص الحمام، وبيوت الدجاج ومرابض المواشي على أنواعها. وهي لن يدهشها، تختم هذا المقام من التنديد، أن تجدني يومًا في بيت الخلاء جالسًا القرفصاء ولا أفعل شيئًا غير تنشّق الروائح التي أحبّها وأبحث عنها في بيوت الأقارب، من بغلة عمّي الشيخ إلى الطيور الكثيرة في بيت خالي. وهي ترى، على زعمها، في عينيّ ووجهي ومشيتي حنيني إلى العودة إليه.

ولكنّ ما تقوله فاطمة، وهي تروح وتجيء وتقف مكانها وتسكت وتستأنف القول وتقطعه وترفقه بالحركات أو بعبارات الوجه، يلمح إلى معرفتها بمشاعر وآراء أكتمها، وبما أسررت به خفية إلى أقارب زرتهم وحدي وقضيتُ ليلتي في منزلهم. وهي لا تسمّي من تقصدهم حين يبدو أنّها تكلّم نفسها، وتنفض غطاء فراش ليليًا أو تخلي المجرود مما كنسته من الغبار العالق بتجاعيد الشعر والملتفّة عليها، وتقول:

– يا إمّي! هول اللي بتدافعي عنهن، وبتسمّيهن خْطَيْ عَ الرايح والجايي بس يرجعوا من زياراتهن، شي مرّة إجوا وخبروك شو صار معهن محل ما ناموا؟ استوحشوا لبيتهن؟ لأهلن؟ سمعوا؟ حكوا؟ بيصير هايك؟ الولد صار له كم شهر؟ تلات تشهر؟ أربعة؟ بينام حدّك، بحضنك، بيتنفس نفسك، بتشمي ضراطه، ولو عيب هالحكي وما بيسوى يسمعه المربّى بالمدينة وبيت عِيَل، وبالليل بيدب عليك وعَ بنات عمّه، وأبصر واين بيحط إيده وبتعملي حالك لا شايفة ولا سامعة... وبتشطفيله... وبياكل من إيدك، ويا روحي ويا عيني شو بتحب تاكل وهاي بحبها وهاي ما بحبها... وبالآخر بيغيب يومين يوم ونص ولا كلمه... حدا سمع حس؟ حدا شاف سن عم يضحك؟ حدا سأل... كيفكن يا بيت أهلي؟ يا ستي؟ يا جدّي؟ يا عمّتي؟ يا بنت عمّي؟ والله أعلم شو بيخبر لما بيسألوه كيف أهلك هوليك؟ والناس بتسأل، شو بيعرفها وشو بيفهمها، لما بتشوف وج ناعم... مالس... مبين مش عم ينام الليل من كتر التعتير والتجويع والأهر... مش هايك يا عمّتي! الحكي مش عنك! عن ناس لا إنتِ بتعرفهن ولا أنا بعرفهن...

وفي ضوء خبرة حصّلتُها من نوبات سابقة، ثلاث أو أربع، ألمّت بفاطمة وتركتها نهبًا لمآخذها على ابن أخيها، انتظرتُ الطور الآتي من تقلّبها على جمر

عذابها. فهي إذا فرغت من الإلماح المجمل إلى سقطاتي وخياناتي انتقلت إلى تفصيلها والتشهير بها، وعابتها عليَّ عيبًا حادًّا. وشملت بعتابها من تحسبُهم متواطئين معي أو متراخين من الأهل والأقارب. وفي الأثناء، وعلى إيقاع إحصائها السقطات والخيانات والعيوب، يتسارع خطوها، وتصل بين محطات رواحها ومجيئها في وقت يتقاصر. فيظهر انتفاخ بطنها ويشيل طرف فستانها أو تنورتها الأماميّ عن ركبتيها وساقيها المثقلتين بعرائش الشرايين المتورّمة والمتعرّجة، بينما يتقلّص جذعها ويضمر صدرها، وتدقّ صفحة وجهها وقسماتها. وتغطّي عينيها البائرتين غشاوة تحول دون بريقهما حين يرتجف جسمها كلّه انفعالًا وغيظًا. وبعد أن طمْأنتني إلى جهلي بمن تنعتهم وتصفهم، وشملت نفسها بالطمأنة، لم تملك من العودة إلى الخوض فيما كانت فيه:

– ... هايك اليوم، من سنة أو سنتين يا فاطمة، خبر مهدي ابن عمّي إنّه ابن اخته اللي بعمر إبن خيي الجامد متل عمود الجامع... شوف الصدفة شو لئيمة... سأله إزا بياخده معه بالبوسطة، بلا ما يعرف حدا عَ المدينة... وهَوْنيك بيعرّفه ابن اخته على مدينة ألعاب كبيرة، وفيها دواليب بتدور، وبيشوف الراكب فيها سطوح البنايات العالية، والناس الماشيين على الأرض بيصيروا زغار وبيبطّلوا ينشافوا... وواحد لابس بوط، وعَ راسه غطا حديد راكب عَ موتوسيكل دايْرة وبيطلع الدخان منها، وبتطلع أصوات هاجوج وماجوج... وجوا بالأوضة الحيطانها خشب، والناس داير من دار الحيطان على الحفة، والراكب بيمشّي الموتوسيكل على الحيطان، وبتهز الأوضة كأنها لح تطير، واللي عم يتفرجوا معها... وبينزل الشوفير بعد عشر برمات، وبيطفي الجعير، وبيسلم عَ الناس وهو صاغ سليم، والناس بتزأّف حتى يحمرّوا إيديهن وينمّلوا...

وفي أثناء حكيها لم تكفّ فاطمة عن تعليق قطع الغسيل بالملاقط على الحبل المشدود بين قائمتي خيمة العريشة، وتقول إنّ الغسيل يجفّ ليلًا في بلاد مثل بلادنا. ورفعت وجهها إلى الحبل واستقبلت زرقة سماء تغرورق بغاشية ليل زاحف. وما حكته لتوّها، ونسبته إلى ابن اخت مهدي، بعض من أخبار تراويناها مهدي وأنا. وأردت بخبري، وهو يصف حقيقة مشهد كنت شاهدًا عليه في المدينة الكبيرة بعد قدومي إليها بأسابيع قليلة وروّعني على قدر ما بهرني، أردت الردّ على قص مهدي قصصًا هائلة عن حروب تدور بالمقاليع والنقافات ورمي الحجارة الصوّانيّة المروّسة من تحت الإبط بين بلدتنا وبين

ضيعة جارة تقع وراء المقبرة، إلى الشمال منها. وتفصل بين الضيعتين ستارة من شجر البطن الكث والقصير، يزعم مهدي أنّها تعمي خصومنا الأولاد عن رؤية شبابنا وهم يتسللون بين المقابر، ويباغتون الأعداء من طرفي المقبرة ويفجمون رؤوسهم، ونعود نحن بفدغ رأس أو رأسين مهلّلين ومحوربين.

ولم أفهم من مهدي ولا من قصصه التي يحكيها كأنّه شاهدٌ الآن وليس البارحة على وقوعها، متى وقعت حكاياته. فالحشود وصفوف المقاتلين والقادة وترتيبهم وخططهم، هذه كلّها خُيّل لي أنّها من زمن غير الزمن الذي أشهده اليوم. فأنا لم أرَ في الأشهر الأخيرة إلّا مقلاعًا واحدًا، أخرجه ابن عمّتي، وهي عمّة أبي وأخت جدّي، من خزانة في بيت أهله في احتفال شاركت فيه أختاه وأخوه الصياد الذي يكبره، وراقبته عمّتي من بُعد وعلى حذر، وأرادت إبطاله وكأنّه استعراض قنبلة أو لغم من مخلّفات الحرب التي عصفت بالبلدة منذ سنين. ويظنّ سامع حكايات ابن عمّي الشيخ أنّ الأولاد يمشون في الحارات وهم يلوّحون بالمقاليع ويلعبون بها لعبهم بالكلّة. وحين أسأل مهدي عمن يكون المحاربون العظام الذين يخطّطون، ويتقدّمون المتسلّلين، ولا تخطئ ضربتُهُم رأسًا تحتمي بتصوينة أرض أو جذع شجرة فتصيبها حيث يسيل دم كثير ولكن من دون ذهاب العينين، يسمّي ناسًا قلائل لم يصدف أن التقيتُ بهم. وإذا سألته عن هذه الصدفة، وعن عَوْدها، اضطر إلى القول إنّ هؤلاء غادروا البلدة إمّا إلى بلدات ومدن بعيدة في طلب العمل والرزق، وإمّا أمسوا تحت الأرض في قبر من القبور التي اتّقوا بها، مقرفصين وجامعين أجزاء جسمهم على أجزائه الأخرى، مفاجأة الضربة اللئيمة.

وموازنة مهدي بين المصيرين، الهجرة البعيدة والموت القريب، على قدم المساواة كان ينهيها بقهقهة مجلجلة يجزي بها نجاحه في جريه إلى انتظار احتمال آخر، غير الهجرة، من صنف الهجرة. وهذا ما يحصل فعلًا. فلا أنتبه إلى أنّه استنفد الاحتمالين، وأنّ الثاني ليس من باب الأوّل، وأنا أنتظر عبثًا ما مضى قوله. وتجزي القهقهة تجنّبه الإقرار بأنّ ما يتباهى بروايته وتأريخه على نحو حوادث قريبة شارك فيها، وتركت أثرًا ظاهرًا هو جرح ملتئم في أسفل رقبته على زعمه، إنّما هو من أخبار عمّي الشيخ، أبيه، وقد تكون من أخبار جدّه، على ما ألمح جدّي الشيخ أحمد حين سألته عن الأمر وأجاب: «هايك كانوا يخبّروا».

وأنا قصصتُ ما قصصته على مهدي، وردّدته فاطمة وفخّمته وحوّرت غرضي منه، استدراجًا لإعجابه، وفي مقابلة استهوالي الحروب التي يقول إنّه شنّها مع من شنّوها، وفُقدت آثارهم. والرحلة إلى المدينة التي تزعم عمّتي أنّني اقترحتها على مهدي، ولوّحتُ له بها ثمنًا لاصطحابي ورعايتي، فكرة لم تخطر ببالي. وبعد أن نبّهني إليها تعريفها الغامض، تذكّرتُ سؤال بنت خالي الهامس في النهار نفسه، وقبلها، عمّا إذا كنتُ أرى أمّي أو التقيتها. فهل يمكنني أن أفعل ذلك، وفي الأحوال كلّها لستُ أنا الفاعل. فمن في وسعه أن يفعل هو أمّي أو أهل أبي أي كلاهما، من غير أن يعلم الأهل. وليس افتراض علم الأهل، وأقصد بالأهل الأرخبيل الصغير من خمسة بيوت ثابتة تقريبًا يتردّد إليها بيت جدّي في أيّام عادية ليست أيّام مآتم ولا أيام أفراح، تلقائيًا في حال حصل أمر مثل زيارتي أمّي في المدينة الكبيرة، أو قدوم أمّي إلى البلدة، ليس أمرًا في مستطاعي البرهان عليه.

فهذه المسألة كلّها بقيت أعوامًا طويلة حبيسة صنف غريب من السكوت. فلا يُقدم أحد على تناولها بتسمية صريحة، فيقال: أخي أو ابن عمّي أو ابن خالتي أو ابن خالي، على وجوه قرابة أبي بأقربائه، خطف ابنه نزار من المدرسة وجاء به من المدينة إلى البلدة. ولم يخاطبني أحد يومًا بمثل هذا، راويًا أو مذكّرًا أو مستفهمًا. ولا يشير أحد إلى أنّ حياة طالت أعوامًا سبقت الأشهر الأربعة الأخيرة التي مرّت وأنا ضيف على بيت جدّي، أو عائد إليه، أو شيء آخر لا أعرف له اسمًا، في أثنائها خالطتُ ناسًا وخالطوني، ووقعت لي معهم ووقعت لهم معي وقائع قد يسعني، إذا سُئلت، رواية بعضها ونسيان بعضٍ ثانٍ. ولا يذكّر بهذه الأعوام، وبناسها الكثر وبأماكنها التي لا تقل كثرة، كلام. وحين أصادف نظرة مثل نظرة امرأة خالي أو يطرح أحد عليّ سؤالًا مثل سؤال بنت خالي، أو أحدس شفقة في عزم جدّتي على ردّ عمّتي فاطمة عن الاسترسال في إيلامي ثم تخليها خوفًا من لوم ابنتها الجارح، في هذه الأحوال أحسب نفسي مذنبًا ذنبًا عظيمًا.

وذنبي هو أنّني لم أولد ساعة جاء أبي بي إلى البلدة وسَبَقَت ولادتي مجيئي وتعرّفي أهل أبي وتعرّفهم إياي، بنحو عشر سنوات. وعلى وجه آخر يؤدّي المعنى نفسه: خطيئتي أنّني لم أمت حين انفصل الزوجان اللذان ولداني، لأُبعث حيًا حين استردّني أبي لأهله. وفي أثناء السنوات المتمادية هذه، صرت

أنا أو بعضَ أنا. فألِفتُ ناسًا ودخلتُ في حضانتهم ورعايتهم، ولفّتني أذرعهم وسواعدهم وشدّتني إلى صدورهم وبطونهم، وشممتُ في جلودهم وثيابهم روائح الحليب والعرق والنوم، وخليطها العميق الذي لا يصدر عن غير الأهل. وردّدتْ كلماتي كلماتهم، وتلفّظت بها على شاكلة أصداء عصيّة تتماوج حيث لا يطولها اللسان ولا يبلغها الفهم، وتدلّ على معانٍ قد تكون حياة الحياة الحارة وسرّها الجديد وليلها الساكن. وهذا ما لا يطيقه أهل أبي، على تفاوت في الإنكار وفي الضغينة. والوقت الذي مضى بين ولادتي وبين عودتي على مضض إليهم، ولم يطوِني العدم طواله، يرونه سرقة على حين غرة لم يحتسبوها. فما أودعوه منهم فيّ، أنا ولدهم، خالوا أنّه مقيم على طبيعة لا تحول ولا يؤثر فيها غيرهم أثرًا. ولما ألْفوني ولدًا لا يشبه كلّ الشبه أولادهم، حاملًا ما علق بي، وألحق ما استبطنني واستوطنني من «أخلاق» أهلي الآخرين، على قولهم، أنكروا بنوّتي، ونسبوا أخلاقي الهجينة إلى أولئك الذين يحسبونهم أدنى مرتبةً من الأهليّة أي الكفاءة والنسب معًا. ولكنّهم استماتوا، في الوقت نفسه، في سبيل انتزاع أثر الأهل غير الأهل في ولدهم منه، من حركاته وسكناته، ومن خيالاته وأفكاره، ومن عاداته ولكنة كلامه.

فبعد نحو أسبوع من استقراري في إقامتي الجديدة، وهذا الأسبوع قضيته منتشيًا في زيارات يومية إلى بيوت الأقارب المتفرقة، في مساء اليوم الأخير من الأسبوع وينبغي أن يكون أحدًا، دعتني عمّتي إلى الجلوس مواربًا إلى جنبها. وجلست هي كذلك مواربة على طرّاحة بجوار طرّاحتي، ليتسنّى لكلينا أن يكلّم الواحد الآخر ووجهه إلى وجهه. وفي شبه عتمةٍ خيّمت على فُرُش ولحف الغرفة الفوقا المطروحة أرضًا بعد أن أُطفئ اللوكس، ومعه طنين احتراق كازه الملح والرتيب، وحلّ محلّه قنديل قصير ومتوارٍ نُصِّب فوق كوارة القمح، تمهيدًا للدخول في الفراش وفي النوم، أبلغتني عمّتي والنعاس يكاد يغلب عينيها ويغضّن جبهتها أنّ عليّ الإفاقة غدًا من النوم باكرًا، والذهاب إلى المدرسة. وعلى خلاف وجهها، لم يعرُ صوتها ارتخاء أو وهن. فجاء آمرًا ومتبرّمًا سلفًا ببطء فهم السامع واحتياجه إلى أن يستعيد في ذهنه، مرتين وثلاثًا، معنى قولها، وما عليه أن يفعل وأن يحس حين يدرك هذا المعنى ويدور له. ودعتني إلى الدخول في فرشتي من غير انتظار مَنْ أنام بجوارها، جدّتي أو زينب عمّتي الأخرى أو مها أو وحدي من غير النساء. وبعضهنّ سبق إلى الاستلقاء

وإلى الحلم وعيناه مفتّحتان، وبعضهنّ يزور عمّي الذي ينام وحده على السرير الحديد في الغرفة الجديدة، ويمهد لإغفاءته بسيجارة أو اثنتين يقول إنّ النوم لا يجيئه قبلهما ومن غيرهما.

واستيقظتُ في الساعة التي أستيقظ فيها عادة، مع ضوء لم يتخفّف من برد يعلق به وبالجفنين، ويتسرّب إلى الصدر وأنفاسه. ورأيتُ عمّتي مستوية على قفاها وتحدّق في فضاء الغرفة، وتلتمس علامات النهار حولها، وتتعرف معالم جسمها: غطاء راسها المنزلق على كتفيها، وصدرية ثدييها التي شدّت مواضع من جلدها غير تلك التي ترسو عليها الصدرية حين تقف عمّتي، وزاف فستانها أو التنورة الذي انكمش إلى منفرج فخذيها وأسفل بطنها فتنزله وتستر به الجزء الأعلى من فخذيها من غير عجلة، وتلقي نظرة باردة على متفرجين محتملين. ولا يشبه برودها الدلع الباسم الذي تستقبل به العمّة الأخرى فضولًا تتوقعه، وصرت أظنّ أنّها ترغب فيه. وأشارت عليَّ بعينيها وحاجبيها أن أروح إلى المغسلة المعلّقة في عراء الحاكورة قرب بوابة الدار الخارجية، وعلى حائط بيت الخلاء والماء. فخرجتُ في البرد، وتحققتُ، بعد أسبوع من اللعب، تجدّدَ المدرسة والرواح اليوميّ والصباحيّ الباكر إليها، ووشك الاستغراق في صحبة المعلمين والتلامذة، ونظراتهم وجوارهم وأصواتهم وأنفاسهم. وهذا ما كنتُ أصنعه في مدرسة المدينة التي انتُزِعتُ منها قبل أيّام. وعلى رغم قربها، وقرب وقتها، لم تلحق بي خيالاتها وأحاسيسها ونداءاتها. فهي انصاعت على غير انتباه أو قصد منّي إلى طاقيّة إخفاء بدّدتها، ولم تبقِ منها ظاهرًا ما أصل به بين الأشهر الماضية القريبة وبين أيّامي القليلة الجديدة. وكأنّ الخيالات والأحاسيس والنداءات الأليفة أخلت محلّها، ومحلّها أنا، لكائنات متينة وراسخة ألقاها صباحًا بعد صباح، وغداة ليالٍ أدخلها وأنا أتوقّع، على غفلة منّي، أن أفيق على أهلي الأولين، وعلى بيتهم ووجوههم وأصواتهم. ويخيّب توقّعي ليلًا بعد ليل، وأنسى هذا التوقُّع وخيبته.

وأيقظ برد الصباح المدرسيّ، وأنا أقصد مغسلة التنك الرمادية، الصباحاتِ المستعجلةَ اجتيازَ الشوارع والمفترقات المتمطّية تحت الغيم المتوالد بعضه من بعض، وراء زجاج الأوتوكار العريض، وذراعي مَسّاحتيه الطويلتين. ولمحتُ في ثنايا الشوارع والغيوم وحبّات الماء الذائبة عيني جليستي وشريكتي في الطاولة والمقعد المزدوجين اللذين تقاسمتهما في صف واحد معها طوال

الأشهر الأربعة أو الخمسة المنصرمة من السنة المدرسية. فلم أطق ألم الوقت والبُعد اللذين طوياها في لجتيهما، والتهمتها مياههما من غير رجعة وسلختها مني سلخًا مميتًا. فهزّتني رجفة سَرَت في رأسي وداخلي فوق سريانها في جوارحي. واصطك حنكي مرتين متقاربتين حسبت أنّهما اقتلعتا جذور أسناني أو هرستاها. ووجدتني أدفع بوابة اصطبل الحجرة العليا، وأقف في صحنه، وقبالتي على أرض الحجرة، وفي طبقة الظل التحتيّة التي تخيّم عليها، أغطية وألحفة وأجزاء مخدّات وشعور رؤوس ووجوه أرى منها إمّا الجبين وإمّا الأنف وإمّا الخدّ وإمّا أذنًا وإمّا عينًا، ووحدها عمّتي جالسة بجوار زينب المستلقية تحت لحافها إلى جنبها. وكنت عدت، حين دفعتُ الباب، على وشك بكاء أحسسته مريرًا ومستحكمًا. ودعتني إلى إرجاء انفجاري به رغبة قويّة في الجمع بين تسريتي به عن نفسي وبين إشهاد فاطمة على الأذى الذي تُنزله فيّ، وعلى كراهيّتي لها بسبب الأذى ومن دونه.

ونسيتُ الأمرين، أو هما تواريا خلسة، حين رأيتُ هؤلاء الناس رُكامًا مبعثرًا، يلتمسون العودة إلى رابطتهم الأليفة وسط أنقاضهم المتململة وخليط الأشياء التي يتقلّبون بينها، وصارت جزءًا غير دخيل عليهم، أو هي لم تنفكّ يومًا عن حالها هذه. وفكّرتُ أنّني، قبل أسبوع تقريبًا، لم تكن لي بهم أضعف معرفة، ولا علم لي بوجودهم ولا بأسمائهم. وها هم اليوم معلم من أخصّ معالمي، وجهة من جهات أستدلّ بها على أوقاتي وأماكني وحوادثي. فهم، على ما يصنعون الآن، يحجزون بيني وبين نفسي، ويحرفون هذه عن مجراها. فعمّتي، لما رأتني عائدًا، ويدي تردّ الباب، فتحت عينين هائلتين وقلقتين. فاستبقتُ سؤالها ولومها وقلت: «ما لَأَيْتِيش فرشاية السنان؟» وفرشاة الأسنان المفقودة هي، في حسباني، ذريعتي إلى البقاء في البيت، وإلى دوام العطلة لا إلى غاية أو وقت. وهي الشيء الوحيد الذي لم يجدّده أهل أبي، ولم يشتروا ما يحلّ محلّ نظيره من أغراضي في بيت أمّي، فاشتروا لي قمصانًا محلّ تلك التي تركتها، وكنزة وكلسات وبنطلونين ومشطًا وأشياء أخرى مثل هذه. ولم يسألوني عن فرشاة الأسنان، ولا أنا انتبهت إليها، على رغم إلحاح أمّي وخالاتي عليَّ في استعمالها، والتعريض بنسيانها، إذا نسيتها، وحمل هذا النسيان على ضعف إرادة لا سبيل إلى الصفح عنه إلّا بالتزام النظافة والعناية بالنفس، أي بالجسم، التزامًا صارمًا ولا هوادة فيه. فآداب النظافة، على اعتقاد أهل أمّي، هي القرينة على مرتبتهم

وبقائهم فيها، وعلى علوّهم، واحدًا واحدًا، عن مساواة عامة الناس من الصنّاع، أي الخدم أو الخادمات، والشغيلة والشحّاذين وأولاد العرب والفلاحين والزعران الوقحين. ويجمع هذا الخليط من الناس تكسّبهم من غيرهم، إما من طرق جائزة مثل الخدمة والعمل والفلاحة، وإما من طرق غير مقبولة مثل السرقة. وأولاد العرب هم أهل المهانة، والاستعطاء من غير حاجة، على ما يظنّ أهلي في المستعطين كلّهم، والفقر الناجم عن التكاسل، وهي حال الفقراء حتمًا وعمومًا إذا استُثني مستورون مظلومون ومعروفون بالاسم والصفة.

وباعث أهلي على الخوف الشديد هو اضطراب الحاجز بين خليط العوام وبين أهل المرتبة وأهل البيت ممن ليسوا «كيفما كان»، على قولهم. فعامة الناس، وهم من العوام على ما يدل اسمهم، لا يفهمون الفرق بين فقراء ظاهرًا، حطّ بهم التزامهم أعرافهم الأخلاقيّة العالية وأقاموا على أصلهم، وبين فقراء الأخلاق والأصل. وانتبه أهلي إلى هذا الفرق حين خسر جدّي في الأزمة الكبرى، وهو ربّما لم يدر باسمها وتوفّي بعدها بقليل، معظم ما يملك جزاء كفالته تاجرًا من أقربائه سدد ثمن بضاعة مستوردة انهار سعرها في أثناء رحلتها البحرية. فافتقروا لا بسبب كسلٍ أو توكُّلٍ على غيرهم، وبقوا في قرارتهم، وفي بعض ظاهرهم، أهل أصل ومرتبة. ولم يبدّلوا من لوازم الحال شيئًا، بل تمسّكوا بهذه اللوازم، وتشدّدوا في مراعاتها وأدائها. وفرشاة الأسنان، والتقيُّد الصباحي بها، منها، على خلاف ظنّ الجاهلين بالمراتب ومعاييرها. وهؤلاء جدير بهم السكوت عن الكلام في هذا الموضوع، ولا يحقّ الكلام فيه عن خبرة ودراية إلّا لأهل الأصل والمرتبة. وعلمت فاطمة بأنّها من هؤلاء الجاهلين، على ما يراهم أهل أمي ويصفونهم، أم لم تعلم، فهي ردّت على سؤالي عن فرشاة الأسنان، وأنا جزمتُ بعدم وجودها ولم أسأل. فقالت، غير مبالية بنوم من لم يفيقوا من نومهم بعد ولا بدهشة من لا علم لهم بموضوع الخلاف:

– هايدا النائص! مش نائص إلّا فرشاية السنان! ويمكن يكون نائص، يا ابن خيي يا حبيبي، الخدم اللي بينضفوا محل ما بتمشي، واللي بيجيبولك المنشفه الصبح عليها شوية صابون وماي سخنه... مش هايك؟ حتى ما ينزعج خاطرك وتِحمل حالك بالبرد للحنفيه... ما تواخزنا يا عمّتي!... الفلاحين متلنا بيمسّحوا

لحالن بحالن وبإيديهن وبالحجارة، وبيوفروا الماي للضروري الضروري، وبيتحمّلوا شوية وسخ لأنه الماي أهم من البَعْزَأه والدلع... بس الفلاحين اللي متل أهل بيّك يا عمّتي، مش أهلك هوليك، نضافة نيّتهن وألبهن واللي براسهن، ونضافة لسانهن، بالأول وأبل كل هايديك النضافه، الصابون والرغوة... فهمت يا عمّتي؟ فهمت منيح؟ فات براسك إنّه السنان النضاف والألب الأسود شو بيفيدوا؟ وشو بيجي منهن؟... جابك بيك لأنه خاف تكبر وراسك متلان بهايك أفكار سخيفه ودنيّه... فرشاية سنان، ومعجون سنان، وصابون بالموليف وسوار دي باري، عنّا من هل الموضة الدارجه كلّها، مش هايك يا أختي، البريلكريم، كل ولاد عمّي وولاد خالي وولاد عمّتي بيدلئوا البريلكريم على روسهن... روح غسِّل تا تروح على المدرسة، يا عمّتي، الله يسهّل عليك وبكير نئول يرحم أمواتك...

الفصل الثالث

أهو علوّ الجدران التي تسوّر الملعب على مستوى طبقة ونصف طبقة من المبنى أم هو حرصنا على اعتدال تقاذف الكرة الكثيرة الألوان والضعيفة الانتفاخ، نحن اللاعبين، ما أبقاها داخل الملعب وجدرانه؟ فمنذ أن هلَّ الربيع وملأ قرية الرواحنة، القريبة من المدينة الكبيرة، بسماء تجمع الأزرق إلى الأبيض، والقبة الصلبة والفسيحة إلى الغيم الطريّ والمتلاشي، والبنات والصبيان يخرجون من شقق أهلهم، ويصعدون إلى المصطبة الواسعة التي تتوسط جناحي المبنى أو ينزلون إليها، ويلتقون على غير موعد. تكرّرت اللقاءات، وحين اتّصلت النهارات المضيئة وتأخّر غروب الشمس وطال الوقت بين العودة من المدارس وبين نداء الأهل على الأولاد بالمبيت العاجل، لم يؤدِّ تكرارها على هذا النحو إلى توثيق معرفة الأولاد بعضهم ببعض. وفي أثناء الأسابيع الثلاثة أو الأربعة التي دامتها هذه المواعيد، ولعبنا طوالها لعبة واحدة لا هي كرة الشبكة، ولا هي كرة المرمى ولا كرة القدم، ولا تلزم اللاعبين إلا بتفادي سقوطها أرضًا، لم أرَ أنّ بين اللاعبين، في سنّي أم في سنّ تكبرني أم في سنّ أصغر من سنّي – وهذه سنّ البنات – رابطة تقوى على مرّ أيام اللعب. وأنا لم أزدد معرفة بزملائي طوال هذه الأسابيع، ولا مودّة. فتفرّقنا من غير أن أنسب واحدًا منهم إلى بيت أهله، أو واحدًا إلى زميل في اللعب المشترك.

وفي مرّاتٍ قليلة، وأنا أصفق باب البيت ورائي، أو صفقته وأفشخ لاهثًا المترين بين عتبة بابنا وبين الدرجة الأولى من الدرج المفضي إلى المصطبة، استوقفني جارنا المنحني بباب شقته على طرف الشرفة، وأوصاني ببنته التي

كانت تحبو على بلاط الشرفة قبل أشهر، ولا تزال تُدلّي المصاصة من عنقها، ولعابها ومخاطها يسيلان على صدريتها، ورجاني مساعدتها على بلوغ الملعب أعلاه، وإجلاسها على مقعد من مقاعد الحجر التي يشاهد منها الجمهور التراكض على الكرة وتناتشها. فكانت هذه الجارة من الجيران القلائل الذين أعرف أين يسكنون. ولم تكن البنت الصغيرة تولي ركض الأولاد ورمايتهم انتباهها، ولا يتعلّق نظرها معظم الوقت بتداولهم البالون أو الفتبول، على تسميتها. فلعبها الذي يشغلها هو تحريكها سبابتها وإبهاميها، وانبهارها بوضع سبابة يدٍ على إبهام اليد الأخرى، وإبهام يد على سبابة اليد، والغلط في مزاوجة الأصابع على هذا النحو ومعاودة المحاولة.

ومن يؤلّفون الجمهور كلّه هم على شاكلة بنت جيراننا الصغيرة. فهو من بنات في مثل سنّها، ولا يشاركن في اللعبة الغامضة التي تُلعب قربهنّ ويخالطها صياح عال يقطع حركات الركض والتحايل والرمي، وتمتزج فيه أصوات البنات والصبيان الحادة. وقد يغادر أحد الأولاد المصطبة كلّها احتجاجًا على معالجة خلاف، وتغليبها صراخًا على صراخه.

ودعاني إلى الاختلاط بأولاد المبنى في مستهلّ الربيع – بعد انقضاء نحو ستة أشهر على انتقالنا عمّتي وأنا إلى جوار المدينة، والسكن معًا في بيت فسيح استأجره أبي على الأرجح غداة نقلي إلى بيت أهله – تذمّر عمّتي الرتيب من أخلاق الناس في المهجر، على قولها، والجيران على الأخصّ. فهم قد يقضون أشهرًا بل سنوات، وباب بيت العائلة على باب بيت الأخرى، وليس بين البابين إلّا أمتار قليلة لا تعدو الشبرين، فيتعثر أهل البيت بجيرانهم، على تفرّق أعمارهم، في الرواح والمجيء مرّات في النهار الواحد من فجره إلى غروبه، وفي أوقات قليلة، في الليل، ويشمّون روائح تختلط بأنفاس الجار العائد متأخّرًا، منكّسًا رأسه ومديرًا وجهه إلى جهة الحائط. وقد يسمعون غرائب الأصوات الصادرة من وراء الجدران الفاصلة بين الشقة والأخرى أو النازلة من شرفة الطبقة العليا تقول على الملأ ما يَخجَل الواحد أن يُسرّه همسًا إلى أخيه أو أخته. وتنعت صفة الزوج أو الزوجة أو القريب المقيم في البيت امرأة أو رجلًا، وتعلن جهرًا ما يفضِّل الواحد أن يدفن معه في القبر بعد تثبيت بلاطة الشاهد عليه، ومن هذه حالهم لا يتزاورون، ولا يسأل جارهم عن

حال جار ولو خرج من بيت واحدهم موكب كامل من الجنازات أو زُفّت ثلاث من بناته مرة واحدة إلى ثلاثة عرسان.

وحال انتقالنا إلى البيت الجديد، في الأسبوع الذي تقدّم افتتاح فصل التدريس الأوّل، بعد جولة فاحصة على أثاث قليل وعظميّ اشتراه أبي نزولًا على مشورة أخته في أثناء الصيف، أدلت فاطمة بآراء قاطعة في البيت. فقالت إن عدوى المدينة أصابت أخاها كريم، أبو جمال، المقيم منذ أعوام طويلة في الرواحنة، بعيدًا عشرات الأمتار من بيتنا، وربما يُرى بيته من سطح الطبقة الثانية من مبنانا، إذا لم نحتسب الطبقة الأرضية طبقة أولى. فلو أنّ أسرة أبي جمال انتقلت إلى بلدتنا، وهو ما تتمناه فاطمة وتدعو أخاها المفضّل إليه، وتدعوه في انتظار الاستجابة إلى إيفاد بنت من بناته، أو ولد من أولاده الذكور، إلى بيت البلدة تلافيًا لضعف لحمة الأسرة والبيت، لكان في استقبال أبي جمال وأولاده والترحيب بهم على عتبة الدار، أو في ساحة البلدة بجوار البركة حيث تطفئ البوسطة موتورها، حشد الأهل من إخوة وأخوات، وربّما بل حتمًا بعض أولاد العمومة وبناتهم. ولجاء في المساء أهل آخرون أبعد نسبًا وسكنًا يطمئنّون على المسافر المرهق. وها هي، أخت أبي جمال ولا تقول أخت الأخوين، تحل في بيت أخيها الخاوي، وليس بينه وبين بيت أخيها الآخر إلا أشبار، فلا يستقبلها، ومعها ابن اخيها الزائغ والماشي مثل السابح في نومه، غير والد ابن الأخ المربك بوعود لم يفِ بها. فيزيدها منظره، أو منظر الإثنين، غمًّا على غمّ، ووحشة على وحشة. فسألت أبي، وهي تقيس بعينيها علو الجدران العارية على جانبي المدخل وفي غرفة النوم التي تُرى منه، وفوق الجدران سقف تتدلّى منه لمبة من زجاج فاضح باض عليه ذباب كثير، عمّا دعا أبا جمال وعائلته إلى التكاسل عن استقبالها في مهجرها، وهم لا يجهلون أنّها المرة الأولى التي تحلّ فيها ضيفة على أخ من إخوتها لا تقيم معه عائلته، زوجته وأولاده وبعض إخوته في بعض الأوقات. فهل أحدهم مريض، سألت أو اقترحت جوابًا على أبي الساهم، خائبًا وغير منتظر هذه المحاسبة حال مجيء أخته بعد تمنّعٍ ووصولها وابنه معها. فلا يدري ما يفعل ويتشاغل بشد خدّي بين اصبعين من أصابع يده. أم أنّ أبي لم يُعلم بيت أخيه بموعد قدومها؟ أكملت فاطمة أسئلتها واقتراحها الأجوبة، على ما يليق به وبنسيانه الأمور التي ينعتها

بالسخيفة كلما أراد تهوين هفوة أو تقصير. فاحتجّ أبي من غير حدّة على تعريفها به. وخالط احتجاجه ابتسام متواطئ وعاتب. وأجاب:

– ليش عم تحكي يا أختي هايك؟ فشخة ومنصير ببيت خيي...

– ... نسيت يا خيي إنّه الواحد بيفتح بيته للناس، مش العكس...

– ... صار بيت خيي أبو جمال ناس؟ ولازم احسب مين راح بالأول عند التاني ومين أجا عند مين؟

– خللي بو جمال بحاله...

ووجم الاثنان، وكلاهما يتفادى ردًا يمسك عن جهره. فهما لا يجهلان يسر الانقياد إلى عتاب يفضي إلى مهاترة. وقد تدعو هذه عمّتي، على ما أيقنت حين رمقت أخاها بعين كره جامدة وهو ينكر مساواة أخيه بالناس، إلى ترك الحقيبتين والصرتين التي جئنا بها لتونا من البلدة، وتركي أنا معها، والتوجّه إلى بيت أبي جمال القريب. فتلغي اتّفاقها مع أخيها على فتح بيته في الضيعة القريبة من المدينة بعد أن فاوضته عليه نحو نصف سنة أو أكثر. وحمل الحرج الشديد، وهو فاجأ أبي الذي انفرج فمه عن أسنانه الصفر كلّها دلالة على سروره، على الجمود في مكانه. وظهر عليه خذلان قلّص صفحة وجهه، وبدا رأسه الذي قصّ الحلّاق شعره البارحة أو قبلها، صغيرًا. وغلب حرجه رغبته في الثأر من لؤم فاطمة، على ما سمعته يقول على حدة. فمضت على دورة تفتيشها الشقّة. فلاحظت وهي تجتاز عتبة الصالون، وأبي وأنا وراءها، أنّها تشاهد أوّل غرفة استقبال تخلو من كنبة تتسع لجلوس زائرين أو ثلاثة أو أربعة وليس فيه إلّا كرسيّ من قش. وحاكت، وظهرها إلينا، من يعد الكراسي بسبابة يدها اليمنى، وكأنّها لا تحيط بعددها، وتوقّفت عند الرقم أربعة. وعدتنا نحن الثلاثة، على النحو نفسه. وخلصت، ونبرتها على سويّة رتيبة، إلى أنّه صالون يستقبل فيه سكان البيت نفسهم ولا يسمحون بزيارتهم ومجالستهم إلا لضيف غير مرغوب فيه واحد، وما على الضيوف الفائضين إلّا حمل كراسيهم معهم أو، بالأحرى، البقاء في بيوتهم وصرف النظر عن المجيء زائرين. وأراد أبي قطع كلامها، ولكنّه لم يملك نفسه من الضحك وهو يهمّ بالاحتجاج. فأتمّت ملاحظتها، ونبّهت إلى جدار واجهة الشقة العريضة والمزججة، على شاكلة ثلاثة أقواس تلامس السقف، والمطلّة على الطريق الضيّقة تحتها. ومالت إلى الواجهة والتصقت بزجاجها. ولو كان في مقابلة الشقّة شقق مثلها فوق بيوت

الطبقة الأرضيّة، على الجهة الأخرى من الشارع، لرأى أهلها القطبتين المحلولتين وخيطيهما البيضاوين تحت خصر تنورتها، تنورة التايور الذي لبسته احتفاء بالسفر الطويل إلى المدينة، وبنقلة العروس، قالت وارتجفت رجفة أخمدتها حال ظهورها.

وعادت من غرفة الاستقبال إلى ممرّ يفضي إلى غرفتَيِ النوم. واحدة إلى يميننا، وفيها سرير معدني طُلي بدهان بنّيّ غامق ومتماوج رُكن إلى الزاوية الغربية الشمالية من الغرفة، كُوِّم عليه لحاف عارٍ من غطائه الأبيض، ورُمي هذا الغطاء إلى جنب اللحاف. وقرب المخدة طاولة فورمايكا نحيلة عليها منفضة رصاصية صغيرة طافحة بالأعقاب والرماد وعيدان الكبريت. ولما رأتها عمّتي سدت أنفها بإصبعين ظاهرين، وهجمت على المنفضة ورفعتها وثبّتتها فوق الطاولة لحظةً تساقطت في أثنائها بعض الأعقاب القليلة ولحقت بها أجزاء من كتل الرماد. وتجاهلت أبي وهي تمرّ أمامه، والمنفضة بيد قبالة وجهها البادي القرف، واليد الأخرى تسوّي المنديل الأبيض الزاحل عن شعرها الملبّد إلى أسفل رقبتها. وقصدت المطبخ، وعادت خلو اليدين. ومدت يديها إلى السرير، وشرعت في تقريب اللحاف من غطائه، كأنّها أرادت إدخال الأوّل في الثاني.

وتركت ما ابتدأته، ومدت يدًا، وهي تنحني، إلى درفة الشباك الزجاج المغلقة ففتحتها، وردّت درفتي الشباك الخشبيتين من غير تثبيت غلقهما. فحلّ في الغرفة ظلّ آخر دخل على الظلّ المسائي. وعلى ضوء العصر القويّ خيمت مربعات ومستطيلات متحاذية ومتوازية ومتفاوتة الإضاءة الضعيفة. وكلّمت نفسها بصوت هامس وقالت إنّ العازب يصنع ما شاء بالغبار والضوء والرماد والروائح الخانقة والسم والمخاط والعرق والخرا إذا لا بدّ منه، ما دام عازبًا ووحده برأسه، أما إذا جر غيره إلى بيت وإلى عائلة فعليه أن يخجل وأن يحسب ألف حساب قبل أن يخالف طبيعته.

قالت فاطمة هذا ووجهها إلى خزانة خشب حائلة اللون وجاثمة من غير منصّة على الأرض، بإزاء الحائط الذي يقابل السرير، وبجوار مشجب علّقت عليه أصناف الثياب الداخلية والقمصان المتدلية. وفتحت باب الخزانة على ركام قمصان وكنزات صوف وبنطلونات طفت عليها سترة طاقم وقبعة فرنجية. فجمعت المشجب وبطن الخزانة بحركة رأس واحدة، ونقَّلت رأسها

بين الإثنين وبين أخيها القريب من الباب، ووجهها الدقيق والضيّق يزداد دقّة وضيقًا، وتعرش في ميناءي عينيها شبكة من الأوردة الحمر العريضة. فلم أشكّ في أنها على وشك الهجوم على أخيها، وإنشاب أسنانها وأظافرها في عينيه ووجهه وعنقه وكتفيه. وانتظرت أن ترمي بعظام ساعديه وصدره وساقيه، بعد نجرها، إلى الغرفة الثانية حيث لجأت بخطى جانبية ومتدرّجة تكاد لا تُرى. وتخيّلت فاطمة تستخرج دماغ أخيها من رأسه، وعيناه خارجتان من محجريهما ومتدليتان منهما بعصبين زهريين ولزجين، وتطبق بأسنانها على دماغه المدمّى المسالك مثل خريطة ملونة. وكنتُ أغضيتُ خوفًا من غضب قد يحيل فاطمة جنيّة شمطاء وكاسرة، وهو بدأ عمله فيها فعلًا. وصرتُ خارج غرفة النوم التي كنّا نحن الثلاثة نستطلع حالها، في الجولة التي دعتنا إليها فاطمة. وسمعتُ نهنهة قريبة اشتبه مصدرها، هل هو أبي أم هو عمّتي، وأشكل معناها، هل هي مقدمة بكاء أم هي إيذان بانقضاض. ورأيتُ بطرف عيني أبي يُسرع نحو أخته الباكية بكاءً ملتاعًا ومسموعًا. وأبقاني خوفي ثمّ قلقي وحيرتي حيث أنا، أسمع ولا أرى وأتخيّل أنّني لو أرى لوسعني أن أفهم شهقات البكاء وتخلُّلها كلامًا متقطعًا يطفو عليها: «... جبتني... بدك... شعر... الولد... البنت...».

وتحادث الإثنان في أواخر بعد الظهر ذاك وقتًا حسبته طويلًا. وانقطع صوت البكاء فجأة. وترامت همهمات علت طوال التلقّظ بثلاث كلمات أو أربع غير مفهومة ولا منفصلة، ثم خفتت وتبدّدت في أنفاس يتّصل إيقاعها المتقلّب بين رتابة هادئة وتسارع مضطرب. ونسيني أبي وعمّتي وقتًا، وتركاني إلى حالي. فبقيتُ على باب الغرفة لا أراهما ولا يرياني، أتسقّط فتات الأصوات وأحاول ترتيبها في ألفاظ ومعانٍ أفهمها، وتعينني على توقّع ما قد يصنعانه وما يعود من صنيعهما عليّ أنا. وغلبني من انشغالهما وخلوتهما، واقتصارهما على المحادثة، اطمئنان هانئ. فهما بعيدان، وإن كانا على بعد أمتار قليلة جالسين على السرير، ولا أحس ثقل مراقبتهما أو اهتمامهما، ولا أخشى رأيًا فيما أفعل، قد يكون استحسانًا، ويقوله أحدهما على شاكلة توبيخ: «منيح اللي ضليت هون جوا... خِفت تزت حالك عَ السلم، عَ عادتك يا عمّتي!». وحرّرتني خلوتهما من اضطراري إلى ضبط حركاتي وسكناتي، وكلامي أوّلًا، على ملاحظاتهما وصمتهما وعبارات وجهيهما.

وبينما هما يتجادلان، وكانت خشيتي أن يحتدّ جدالهما ويؤدي إلى تنقيط السم أو اللؤم من وجهيهما، على ما يتبادل الأهل الإخوة التهمة في مثل هذا الموقف، ابتعدت من الباب، ومن ملتقى الممرّ بالغرفتين، وقصدت الشرفة المربّعة والواسعة، المطلّة على ساحة البلدة أو إحدى ساحاتها، على ما لاحظت من بعد. ودرت على نفسي سرورًا وأنا أروح إلى الشرفة وأعود منها إلى مواضع متفرقة من الغرفة. فالشرفة، ونحن لم نبلغها في جولة عمّتي التي قطعها قرفها من حال بيت أبي، لا تقلّ اتّساعًا عن الغرفة الكبيرة، وتطفو على الساحة كأنّها مركب راسٍ على ذروة موجة، وعلى جهتي الموجة المعلّقة سهلان مائيّان منبسطان تحت طبقة زبد أبيض لا يحيط به نظر. وتحمل الشرفة أربعة أعمدة مستطيلة ونحيلة أُلصقت بها، من غير أن يدعو داعٍ إليها غير استكمال صورة الفرندا، ربّما. فالأعمدة تشبه شيّالتي البنطلون اللتين تثبتانه على الكتفين، فوق تثبيته على الخصر، وذلك في سبيل تحسين المنظر. وعري الفراندا، في ثوب طلائها الأصفر واتصالها بفضاء يتمادى إلى كثبان رمل بعيدة ومرئيّة، لم يدعُ إلى الوحشة، فوصل الشقّة الغارقة حين دخولها في ظلال كثيرة، بمرتع حرّ.

وأطللت من الشرفة على ساحة بعضها مساكب خسّ وبقدونس ونعنع، وبعض ثانٍ بستان أكيدنيا من ثلاث أو أربع شجرات، وبعض ثالث كوخ كراج لتصليح السيارات، حوله إطارات كاوتشوك ومقود أو اثنان على العشب ومنفخ وعلبة تنك يسبح فيها مزيج ماء وزيت، وبعض رابع هو نخلتان في موضعين متفرّقين من هذه الدائرة. وإلى غرب الكاراج صف دكاكين مسقوفة بألواح صفيح متعرجٍ ومنحنٍ تغطّي بعض أجزائه قطع حصائر بالية. وإلى يميني مبنى عالٍ تحجبه عن نظري شجرة صنوبر وارفة، فلا أرى من طبقته الثانية غير شبابيك خضراء الطلاء السميك ومغلقة. وأرى جدارًا مهيبًا وأملس يحاذي الشارع إلى حين بلوغه منعطفًا تكسو كومة صبار الجهة المقابلة منه. وقطع الإثنان، أبي وعمّتي، الخارجان منبسطي القسمات من خلوتهما، عومي على أشياء أخرى كثيرة لم أفرغ من عدّها وتبويبها، والسياحة بينها، منذ تركت الانتظار والاستماع على باب غرفة أبي إلى البلكون وغرابته. فانتبهت انتباهًا غائمًا إلى نداء من غير كلمات واضحة، خمَّنت أنّني قد أكون مقصودًا به، فلم أعره إلّا نصف سمع آملًا ألّا تتبعه مناداتي بالاسم ولا تترك لي ملجأ من الإجابة.

وما تراءى في أول الأمر طيفًا يحوم في البيت خلفي، في صحبة ظل كبير يملأ الداخل مع انحدار الشمس إلى مستوى خط الرمل، صار شيئًا ثقيلًا خلفي، كتلةً مرصوصة من جسمين ومن حركاتهما وأنفاسهما وكلماتهما اللصيق بعضها ببعض. وسأل أبي من موضع قريب:

– هاياك هون! فكرت عمّتك إنّك هربت... هجّيت...

– ... إيه والله يا بن خيي! ما سمعتلكش حسّ هالوأت اللي مرأ كلّه... فكرت... شو نسينا نجيبه من الضيعة وتركناه هونيك... وعم إتخيل إني ركبت السيارة أنا وبيه وجايه زور خيي أبو جمال وولاد خيي ومرت خيي؟

وظهر ما يشبه البِشْر على وجه أبي وهو يقف مستقيمًا بجنب أخته، ويُدلّ مزهوًّا بوضع ذراعه على كتفيها الجامدتين والمنكمشَتين. وتوجّه واحدهما، وعلى الأخصّ أبي، إلى الآخر، بينما يكلمانني. وكلّمني أبي:

– مش حلوة الرواحنه؟ أحلى من الضيعه... هلأ بتئوم عليي عمتك... وأحلى من المدينه هيدي ومن هيديك اللي بتعرفها... بكره بتشوف، بتصير تروح وحدك متل الشباب عَ المدرسه وتجي وحدك... عمتك بتدلك شو تسوي... وكل يوم بعد المدرسه، إنتِ وعمتك... مش هيك يا ختي... العصر بتروح عَ بيت خيي أبو جمال... بتلعب مع ولاد عمك وبنات عمك، وبتدرس، ومن وأت لوأت فيكن تناموا ببيت خيي... منيح هايك؟ بلا زعل؟

– هايك منيح وبلا زعل... قالت عمّتي... بس مش ليوم الفرج... لازم البنت تلحأ خيها إزا مش بكرا بعد بكرا، وهاي رأي أبو جمال ورأيي ورأيك لما حكينا... ولازم تشوف الجماعه اللي كنت عندهن، البنت المرا وإخوتها، هيي عم تكبر وهني ناطرين إختهن وإختهن ناطرة العريس، والعريس شو ناطر؟... مش مستعجلي إختك، مش متل ما بتفكر، وجيت برضايي ومش تاركي تاتسيسر حالك وولادك، وولادك وشغلك... دبّر هَ البيت بالأول، وحط الولد بالمدرسه، ونحنا رايحين نزور بيت أبو جمال، مش هايك يا عمّتي؟

وفي أثناء حكيها، بقيت عيناها معلّقتين على وجهي. ولم تفارق كآبة متعَبة عينيها الجافتين ولعاب زاويتي شفتيها الأبيض. وتملّصت من ذراع أخيها على كتفيها وهي تحرّك عنقها، وتتبع حركة العنق بضبط الكتف عليها، وترتيب سترة تايورها على جسمها بخطو جانبيّ لا يكاد يُرى. وحين انتهت من كلامها، سألت أخاها عمّا ينوي فعله قبل غروب الشمس وعودتنا، هي وأنا ابن أخيها، من

زيارة بيت أبي جمال وعشائنا، على الأرجح، هناك، وهل في وسعه أن يتدبّر أمره وعشاءه وحده إذا طالت الزيارة، ولم يكن أعدّ للأمر علاجًا.

وعلى هذا، أقمتُ طوال أشهر في بيتين معًا. فأفيق صباحًا في بيت أبي وعمّتي، وهو بيتي حين أسأل أين أقيم. وأجيب من غير تردد في حي الإيوان، وفي مبنى من، أقول مبنى المختار أبي فؤاد. ومنه أروح إلى المدرسة فأبلغها في عشر دقائق مشيًا. وهو وقت لم أحسبه على ساعة لم أحملها يومها، وتردّد على ألسنة ناس كثر، زملاء في صفوف أخرى، أو في الصف نفسه، يلقى بعضنا بعضًا ونحن نتقاطر من أزقّتنا الجانبيّة إلى الطريق التي تجتاز الرواحنة من بوّابتها، البستان، إلى محطّة الرمل، الحدّ الفاصل بينها وبين الضيعة التالية، الجنينات، على طريق الخروج من المدينة الساحلية إلى البلدة الكبيرة والبعيدة. ومن المدرسة أعود مرّة أولى، ظهرًا، إلى البيت، من غير تخصيص ولا نسبة، فأتغدّى من طعام عمّتي، لا يشاركنا ثالث ينبغي أن يكون أبي، فيه. وخفيفًا، من غير شنطة الكتب والدفاتر والاقلام والحبر وغيرها، فهذه تركتها في طبقتي وصفّي، أرجع على الطريق نفسها إلى ملعب المدرسة.

والرجوع ظهرًا، في الساعة الواحدة أو بعدها بقليل، يخالف الرواح صباحًا في أمور كثيرة تتسع لها ساعة تامّة من الدقائق، مثل التعريج على محالّ العلكة والمعلّل والبزر والعصير والكازوز والعصافير في الأقفاص على جهتيِ الطريق، ومثل إلقاء نظرة من انفراجات ضيقة ومفاجئة على البيوت الواطئة وحدائقها المسوّرة بالصبار أو الرمان أو السرو، ونسائها الرافعات غير مباليات أطراف أثوابهن عن سيقان بيض بلون الحليب الذي يحلبنه من بقرات المزرعة، وهن يحُرن حول بركة الماء في فناء البيت، ويَسُقن الدجاجات المتطايرة أمامهنّ أو يَدْعَوْن الدابّة والكلب في إثرها إلى إخلاء طريقهنّ، ويصحن وينادين طفلًا يحبو تحت سقيفة المنزل أو يتّكئ وهو يهتزّ على عمود من أعمدتها. فهذه كلّها، واحدة واحدة، تستحقّ الوقوف والملاحظة، والاستغراق في التأمّل والانقياد إلى تداعيات وصور وأحاسيس لا تنتهي، ويتشاركها الولد العائد ظهرًا مع من يتّفق لقاؤه بهم أو به على موعد أو على تعارف أوّل. وبعضٌ قليل من الأولاد، في صفوف متقدّمة، يسوقون بسكلاتات، ويمكنهم إركاب زميل ماشٍ أمامهم على جسر الدراجة. ويترتّب على هذا

التخصيص ارتياب قريب من اليقين في سبب الحظوة وتسديد ثمنها التصاقًا بالسائق وشمًا وضمًا ولمسات مواربة.

ويشارك الأولاد المحليّون، الغالبون عددًا، الغرباء القلائل، المُعْلَمين والمعروفين على شاكلة الراوي، أخبار المشاهد والمواضع وأشخاصها، وأطوارها وأطوارهم. فهذا الدكان، في طرف الساحة، يعود إلى الفوّال القصير والأصلع الذي يغسل آنية غلي الفول الكبيرة ويدلف ماء الغسل على باب محله، جاء فوّالًا إلى الحيّ بعد موت الفوّال السابق، وتوظيف أولاده في الشرطة البلديّة وشركة المياه ووزارة التربية، والابن المعلم أحد مدرّسي المدرسة. ويعود الفوّال الجديد، وهو ظلَّ جديدًا، إلى منزله في حيّ عائلته البعيد، ويشاع أنّ صحنه أطيب من صحن سابقه وحمّصه الذي يخلطه بفوله أكثر من حمّص الأخير، ويغليه وقتًا أطول ويُشْربه الزيت والحامض من غير بخل. وأخبار البيوت وحدائقها وحيواناتها وزراعاتها كثيرة، وأخبار أصحابها وقراباتهم ومصاهراتهم وخلافاتهم وعداواتهم وثاراتهم كذلك. وتتجدد بتجدد الرواة أو بتقلّب أمزجة ذاكراتهم ومصادفات لقاءاتهم وانفعالاتهم وظروفها. فينقضي شهر على المرور بمدخل مزرعة على جهة الطريق وراء صف من سروات قصيرة – ويزعم أولاد آخرون أنّها صنوبرات تمنعها بذرتها من طول القامة لئلا تنكشف سيقانها فلا تصلح لردّ الأنظار عن المزارع – ولا يرى المارّ ما يستوقفه غير بوابتها الخفيّة، وربّما الصمت والسكون اللذين يلفّانها. ولا يصدر طوال الأيام هذه عن رفيق المشوار المتبدّل كلام أو تعليق من أيّ صنف كان.

وفي يوم لا يختلف عن غيره بعلامة، أو قد يختلف بِصحوه أو بَرده، يبادر رفيق الصدفة إلى القول إنّ ابن جيران المزرعة، وهم بيت خال صاحب الخبر، رأى البارحة ليلًا، في منتصف الليل تمامًا، الجنّية التي تزور عائلة المزرعة وبناتها الثلاث وأختهنّ، وسحرتهنّ الواحدة بعد الأخرى، الكبرى فالوسطى فالصغرى، رآها من خلف، وشعرها الطويل يغطي كتفيها وظهرها إلى قدميها، تسوق أمامها صغرى الأخوات وعلى رأسها شريط أسود لامع معقود على شاكلة فراشة، وبدت هذه باسطة يديها وتمشي كأنّها نائمة، أو كأنّها لعبة يحرّكها زنبرك ملأها حركة، وقصدت الاثنتان عرزالًا وراء المنزل، حُفر تحته سرداب لا يعلم أحد على وجه الضبط إلى أين يؤدّي، ويظنّ معظم المسنّين،

ممّن لهم خبرة بالجنّ وتملّصوا مرّات من سحرهم، أنّ السراديب ينبغي أن تقود إلى البحر ومنها تهرب الجنيات بعد فراغهنّ من تعذيب البنات الأبكار والتمتّع باقتطاع اللحم الطري والمنتفخ بالشهوة، على جهتي الفرج حين ينطبق على سرّه المكتوم مثل شفتيِ الفم، وأكله، فتشتهي بعدها البنات الفتيان الأبكار مثلهنّ شهوة تقتل الفتى الذي ينقاد لإغرائهنّ، على شاكلة فلان وفلان وفلان من أبناء أهل وأقرباء يُقسم صاحب الخبر أنّ إخوته الذين يكبرونه في السنّ عرفوهم وصادقوهم قبل أن يختفوا وتتبخر آثارهم وينساهم أهلهم وأهل القرية، ويقدّروا أنّ الجنّية محت ذكرهم ورمتهم في جوف المدينة القريبة ودهاليزها التحتيّة الخفيّة.

وتشغل العودةَ الثانيةَ من المدرسة إلى البيت، عصرًا وقريبًا من الغروب في أشهر الخريف الأخيرة وأوائل الشتاء، أمورٌ ومشاغلُ مختلفة عن تلك التي شغلت الرواح الثاني، ظهرًا، إلى المدرسة. فإمّا يغلب التعب على العائدين المتثاقلين، فنتهادى في مشينا، ويسرّ واحدنا إلى رفيقه بعض أصداء نهاره الطويل، ويروي له ما علق بذهنه من تعليقات التلامذة على المعلمين وملاحظات المعلمين على التلامذة، ومن أفعال النظّار في شؤون الصف، ويخبره وقائع الملعب في أوقات الفرص ومطاردات تكتّلاته وعصاباته ومشادّاته وصداقاته البريئة من الشبهة والمشبوهة، وأقاويله وشائعاته. وإمّا تستيقظ حيويّة معطلة لم تصادف أصحابها فرص صرفها، ولا موضوعات فرصها، لا في أثناء صفوف اليوم المنقضي ولا في لعبه المقيّد بالنظّار والمعلمين. فيطلق لها التلاميذ المحرّرون من القواعد العنان على غاربها.

وبينما يمشي المنصرفون زوجين زوجين في صفّ متّصل، على جهة الطريق المقابلة لسير السيارات القليلة والبطيئة في هذه الساعة، وعلى ظهورهم المنحنية وأكتافهم المشدودة شنطهم، وأيديهم على حمالاتها، وأعناقهم بارزة، يجرون أقدامهم في التراب والرمل، وبعضهم يقف ويتلفّت إلى وراء ويكلّم بعض من في الصفّ – يؤلّف آخرون عصائب متفرقة، يتسابق أفرادها ويتراكضون ويتدافعون وينكفئون ويعودون إلى موقع متأخّر من القافلة المتقطّعة. ويتقاذف هؤلاء حفنات رمل يقحفونها بأيديهم، وحجارة، وقضبانًا ينتزعونها من شجرات الرمّان الكثيفة. وقد يعمد بعضهم إلى إلقام من يطاردونه ويطاردهم قبض الرمل، أو يَحْثونه على رأسه. وقد يتعدّى الضرب

بقضيب الرمّان التمثيل على الأذى والاقتدار إلى الجرح والإيلام. فتثور ثائرة الطرفين، ويتضاربان ويتعاركان من غير تمييز ولا قيد، ويسعى كلاهما في شج رأس خصمه أو تمريغه في التراب، أو في ليّ ذراعه أو رقبته أو إركاعه على الأرض. ومشهد هذا الصفّ من التلاميذ القافلين مساءً إلى بيوتهم والمتدافعين، صار معتادًا بعد أسبوعين أو ثلاثة من ابتداء الصفوف وانصرافها، ولا يسترعي الانتباه ولا يبعث الخوف إلّا حين بلوغه في أوقات قليلة، صورة المعمعة والاشتباك العريضين. فينخرط فيهما العشرات، وينفضّ معظم الجمهور عن مسرح المشهد، ويولونه ظهورهم هاربين، ويتردد بعضهم بين طلب السلامة والبعد وبين إلحاح الرغبة في الشهادة على الركل والصفع.

وشاركتُ مرّة واحدة، وربّما نصف مرّة من بعد، في التراكض والتدافع وذر الرمل وإلقاء البحص، اثنين أو ثلاثة من رفاق عودة فائعة، وربيعية على الأرجح. وعدت إلى البيت متأخّرًا نحو عشر دقائق أو ربع ساعة عن وقت عودتي المعتاد، والمقدّر بفرق ينبغي ألّا يتخطّى الدقائق الخمس ولم يتخطَّها فعلًا، وعيناي محمرّتان كأنّهما «بركتين دم»، على قول عمّتي وهي واقفة على أهبة من يستعدّ لنزول خبر قاصم على رأسه، خارج الباب البرّاني وعتبته، على رأس السلم. ونظرت إليها وعيناها تجولان، مستهولتين، في شعري الذي تتخلله حبات رمل زجاجية، وتتقصّى في أذنيّ وتحت عينيّ وعلى حاجبيّ وشفتيّ وعنقي حبات مثلها، ألصقها العرق الناضح بجلدي وطياته الدقيقة في هذه المواضع. وكانت تضع سبابة يدها اليمنى على فمها، وتثبّت كوع ذراعها في راحة يدها اليسرى وتحني رأسها. وغلب البياض الطافي على شبكة الأوردة النافرة على عينيها الدامعتين دمعًا يابسًا، على وصفها حين روت الحادثة لأبي وبيت عمّي وبيت جدّي في أوقات متفرّقة. وقالت: «هالهيئة متلها متل جيبتك بعيد من هون مْلأْحينَك على الكتاف!...».

ودعاني ثكلها في هذا الموقف إلى الحرص في مرّات تالية اشتركت فيها في مطاردات مثل هذه، على ألّا أتأخّر عن وقت وصولي المتوقّع إلى البيت، وعلى أن أتهيّأ بهيئة من مشى في الصف الأوّل، صف الذين لم تخرج من رؤوسهم وأجسامهم حصص دروسهم بعد، ولا يزال يتهادى في سيقانهم، وفي تلفّتهم وانحنائهم، مزيج انتباه ونعاس يدبّ في أوصالهم، فيبلغون البيت والأهل في حال نوام وغياب. وإذا سئلوا في اليوم التالي عمّا فعلوا في الوقت بين

دخولهم البيت وبين الفراش – والإجابة عن هذا السؤال برواية حوادث ليلية خارقة على شاكلة لقاء بجنّي أو جنّيّة من غير تعرّف وإثبات إلّا بعد فوات اللقاء، كانت (الإجابة) من أمور نعدّ عدّة متأنّية لحكايتها، ونحرص على مجيئها مجيئًا مدهشًا ومقْنعًا معًا – اضطرّهم السؤال إلى التأتأة والتردّد، ثم الابتسام الموارب إقرارًا بأنّهم لم يصنعوا شيئًا، وقضوا هذا الوقت وهم يرجئون نومًا راودهم بينما هم يقصدون بيوتهم.

وعلى خلاف هؤلاء، كان بلوغي البيت إيذانًا بابتداء شطر ثانٍ من اليوم لا يختصره الإعداد للنوم المبكر. فألقى عمّتي تنتظر عودتي في الوقت الموعود، وجهّزت نفسها لزيارتنا معًا بيت أبي جمال اليوميّة. فلبست أحد التايورين اللذين يتصدّران خزانة ثيابها، أو فستانًا رسميًا، على ما تسمّيه، أسود في الشتاء ورماديًّا في الفصول الأخرى، ومن الجوخ في الحالين، وخلعت فستان التعرية الخفيف وألوانه الفاقعة والمختلطة. وأبرزت رغيف الزعتر بالزيت في موضع تتعرّفه العين سريعًا ويدعو الولد الجائع إلى أكله من غير إبطاء. وكان عليَّ، إلى ذلك، أن أُخرج من شنطتي موادّ الفرض المدرسيّ اليوميّ أوّلًا، وأحملها معي، وأنجزها في الزيارة الوشيكة. والفراغ من أكل الرغيف ليس شرطًا لصفق باب الشقة، ولا يسبق النزول ركضًا على الدرج والتزام جهة اليسار من الطريق المفضي إلى بيت عمّي، والوصول قبل فاطمة المنتعلة اسكاربينة بكعب، والمشاركة في استقبالها على الباب والترحيب بها مع أهل البيت، أي ابنتي عمّي مها وأختها سناء المولودة في الشهر الذي ولدتُ فيه من السنة نفسها، وأخيهما عارف المولود قبل أقل من سنة والسريع الحبو وتخلّل الأقدام. فتُجزي فاطمة محاكاتي استقبالها، والترحيب بها في صفّ أولاد أخيها، بابتسامة ضعيفة قبل أن تسأل عن امرأة أخيها وتقصدها، وقبل أن يجيب أحد سؤالها، وهي تعرف أين تلقاها، وتقف إلى جنبها إذا ألفتها واقفة، وتجالسها إذا صادفتها جالسة. ولا تحتاج محادثتهما إلى تمهيد، وإن بواسطة سلام أو ابتسام. فتصفُّح الواحدة وجه الأخرى مدخل وافٍ إلى أنسهما واستئنافهما محادثة تتوسل بعبارات القسمات والحركات والصمت فوق توسّلهما بالقول.

ولعلّ السبب في تلهّفي الرواح إلى بيت عمّي وحشة كئيبة، على قول عمّتي التي تكثر من استعمال هذه الصفة وتمثّل عليها وعلى فعلها حين تتلفّظ بها بوجهها كلّه، تغشى بيتنا خريفًا وشتاءً وربيعًا، على رغم شمس بعد الظهر

ونورها البالغ سقف الغرفتين الغربيّتين أو أدنى بقليل في ساعة الغروب. فهو بقي مهجورًا، أو يبدو كالمهجور بعد أشهر من الإقامة به، وشراء أبي تتمّات الأثاث التي طلبتها أخته حال جولتها في البيت. وبعض أهل أبي، عمّتي الثانية زينب على الأخصّ، تَعَمَّد زيارتنا والمبيت ليلة أو أكثر عندنا. وهذه الزيارات لم تبدّد الوحشة. فنحن، أصحابه، نقيم به نصف إقامة أو أقلّ. وأوّلنا أبي. فهو يترك باكرًا لأن مباشرته عمله في الساعة الثامنة تضطرّه إلى انتظار سيّارة الأجرة، ويخشى أن يحول تقطّع السير وتعرّجه دون التزامه الدوام. ويعود متأخّرًا غالبًا، في ساعات غير معلومة ويذهب إلى فراشه من غير أن يكلّم أحدًا ويغلق باب غرفته وراءه. وعمّتي تقضي نهاراتها الطويلة والوحيدة مستعجلة دقّي الباب وركضنا معًا، على طريقتين مختلفتين، إلى بيت عمّي، ونسياننا اللذيذ اضطرارنا إلى الرجوع والنوم في البيت الرسميّ وقد ألْيلَ الليل.

ولا تغيّر الزيارات المتباعدة التي يقصدنا بها بعض الأقارب كثيرًا في ضعف إقامتنا. فزوّارنا لا يفردوننا بالقصد بل يشركون بيت عمّي أبي جمال فيه من غير استثناء. ويمرّون بنا وهم في طريقهم إلى المكان المتين الذي يقرّون فيه ويرونه جديرًا بقرارهم. ولا أحسب أنّني فكرت في التحزّب لبيتنا. فلم أتمسّك بقضاء وقت أتفقّد فيه مواضع أو خبايا أليفة يطمئنني بقاؤها على حالها، ووفاؤها بعهدها مجاراةَ انتظاري، إلى دوام مُسكتي، واجتماعها على رغم الرواح إلى أماكن أخرى والمجيء منها، والاختلاط بناس كثر في أوقات متفرّقة، وولادة أهواء غير متوقّعة وموتها. فأعود من المدرسة أو من زيارات إلى أهل من غير شوق إلى الجلوس في موضع أحسب أنّه ينتظرني، وأرى منه مواضع البيت الأخرى، أو شرفات الجيران وأجزاء من جدرانهم وأثاثهم وربّما بعض هؤلاء الجيران، على شاكلةٍ وسمتٍ فريدين.

وبيت عمّي أبي جمال بقي بيتًا غريبًا بأهله، عمّي وأمراته وجمال، ولدهما البكر الذي لم يوحِ بالقرابة. فكأنّه يمتُّ إلى عائلة لا تتقاسم شعورًا داخليًّا واحدًا بحرارة الأجسام ولا تتشارك، حين يكلّم أحد أفرادها أقرباءه وينظر إليهم، دنيا أليفة واحدة تنطق بكلمات تتداولها ألسنتها وتملأها صورٌ ألبوم واحد، على ما يتملّكني إحساسي العائليّ في بعض المناسبات. وإلى عمّي أبي جمال، وامرأة عمّي أمّ جمال وجمال، هناك البنت البكر، جميلة. وهي، مثل أخيها، وُلدت إمّا من أبيها وحده وإمّا من أمّها وحدها، ولم تولد من خليط

دميهما الواحد بالآخر، ولم تؤلِّف نفسُها بين نفسين مختلفتين. فإذا كلّمت أحدًا أو نظرت إليه، جاء كلامها حجارة متدحرجة، على قول عمّتنا الأخرى، زينب، وظنّ من تنظر إليه أنّها تتّهمه تهمة ثقيلة. والفرق بينها وبين أخيها جمال هو أنّ جمال إذا روى حادثة، على عادته وهوايته الملحّتين، أقحم نفسه في تفاصيل ما يروي وربطها بآرائه وعواطفه، فجرّد السامع ممّا قد يستميل خياله وانتباهه ويشدّهما. وإذا آنس من سامعه ضعف الانتباه، وربما الانصراف عن قصصه، رآها فرصة سانحة للركض وحده في ميدان لا يقاسمه إيّاه أحد. فلا يلتمس من مخاطبه إلّا البقاء في الغرفة أو في الردهة، إذا صادفه في واحدة من الإثنتين، كي لا يحسب أحد أنّه يكلّم نفسه.

وعلى خلاف العمّ وجميلة وجمال – وخلاف أمّ جمال امرأة عمّي على حدةٍ من رجُلها وابنها وابنتها فهي لا تشبههم ولا تشبه غيرهم، لا في كلامها ولا في انتظارها وسمعها ولا في اختلائها بنفسها – كانت سناء ومها حين تكلّمانني أو تشاركانني اللعب، أو حين تزعلان مني، حاضرتين وقريبتين فيما تصنعان. وربما أظهرت سناء قربها واستغراقها حين نلعب أو نتحادث أو يتخفّى واحدنا عن الآخر، على نحو فاضح، فلا تتعلق عيناها المنتظرتان بوجهي وكأنّهما تبصران وراء الحجاب سرًّا خفيًّا، وحسب، بل يسري في أنحاء وجهها كلّه احمرار زهريّ خفيف، وتنفرج شفتاها المرسومتان رسمًا دقيقًا عن لسان يسبح في ماء لزج تبلعه بجرعات مسموعة. ويُظهر انفراج الفم أسنانًا منتظمة تتقدمها، تحت شفتها العليا، سنّان كبيرتان وعريضتان يخالف شرههما وتحفّزهما تسليمًا كسولًا وطائفًا على نظرة العينين. أمّا مها فتتخفّى، قصدًا أو من غير قصد، على سرورها بتقريب رؤوسنا ووجوهنا حين نوشوش وشوشات طويلة لا نجد فيها بعد لحظة ما نقوله، فنتمتم بشفاهنا أنفاسنا المضطربة، ونلمس بها دائرة الأذن الشهيّة بذريعة التستّر على إنصات قريب ينبغي ألّا يَسمع ما يُقال. وفي مثل هذه الأوقات يزوغ نظر مها، فيحسب من يراها أنها تستثقل الأنفاس واللمس، وقد يلاحظ عليها وشك انقلاب عينيها إلى إغماءة، وهي تنقل نظرها بيننا، ونحن نلعب، وبين من قد يراقبنا من الأهل، وينتبه إلى غرابة بعض ما نفعل، في أثناء استغراق شركاء اللعب، فلا تحول متعتها بينها وبين يقظتها.

وما أقمت في بلدة أهلي طوال الأشهر الستة أو السبعة منذ أن تركت المدينة الكبيرة إلى البلدة في صحبة أبي، بقي لعبنا، حين نلعب نحن الثلاثة معًا، على حاله. ولكنّ شملنا لم يجتمع إلّا في الصيف ومع عطلته وقدوم سناء وإقامتها طوال الأشهر الثلاثة في بيت جدّها. وتردّد، في هذه الأشهر، إلى بيت الجدّ، من أولاد عمّي أبي جمال من حبسته المدرسة عن المجيء، وهي حال سناء وأخويها، وصغير الإخوة حبسته الرضاعة. وتردّد عمّ آخر، موسى، مقيم بضيعة سهلية وشمالية بعيدة، ويعمل في مكتب بريدها وبرقها كاتب برقيات وموزّع رسائل على سعاة الأحياء، على ما يبدي إخوته ويعيدون في وصف عمله وحاجة العمل في بقائه، فلا يزور الأهل إلا مرّة في السنة. ويقال كذلك أنّ تفاني موسى في عمله ليس ربّما السبب الوحيد في انقطاعه عن الأهل. فهو ينوي الزواج، وقد بلغ الأربعين أو فوق الأربعين بثلاث سنوات أو أربع، بصبيّة تنتظر أن تبلغ الخامسة عشرة أو بالأحرى أن تطوي الرابعة عشرة لئلا تلوك الألسن أنّ رجلًا في الرابعة والأربعين بنى ببنت لم تتم صفوف المدرسة الابتدائية وكانت لتكون صغرى بناته لو أنّه تزوج على نحو ما يتزوج الشباب الأسوياء. ولم يسَع العمّ النهري وأولاده المجيء هذا الصيف، على خلاف عادة ترسّخت في الأعوام السابقة. وحال دون قدومهم المنتظر بشوق، على قول الأهل كلّهم ما عدا أبي وجدّي الساكتين عن الأمر، حادثة حدثت هناك في مدينتهم ورُويت بكلمات غامضة مثل العرفيّ والسريّ والحزب وأخرى تشبهها.

ولما جاءت سناء مع بعض بيتها في اليوم الأوّل من العطلة، كانت مها أخبرت نتف أخبار عن أختها التي تكبرها بسنتين وأشهر، من كلّ الأصناف. فروت أنّها تقضي أكثر وقتها غارقة في أحلامها، ولا ينبغي لمن يراها مفتّحة العينين الظنّ أنّها يقظة مثله، وهي لا تحب المدرسة ولكنّها لم تتأخّر عن الوصول إليها دقيقة واحدة منذ تردّدها على المدارس، ولا تتهاون في نظافة ثيابها أو كتبها ولا في ترتيب شعرها، ولا ترغب في صحبة زميلات صفّها أو مقعدها، وحين ترجع من اليوم المدرسيّ تريد نسيان اليوم وحوادثه كلّها، ومن الحوادث أو الأشياء التي تنساها دروسها، تزعم مها وهي تتكلّف الضحك وقبل أن تقرّ في روايتها الرابعة أو الخامسة للملاحظة الواحدة أنّ هذه ليست منها وهي من أمّ جمال، وتلفّظت بها عصر يوم دخلت فيه سناء المطبخ ولم ترَ عصرونيّتها في موضعها، فأظهرت خيبتها وزعلها، وأرادت أمّها مبادلتها

الحساب فسألتها عن دروسها، ولما لم تُجب وبدا أنّ بنتها تركت المطبخ، قالت الأمّ محادثة نفسها بصوت خفيض «اللي بيضل نايم وبينسى كل شي ليش بده ما ينسى دروسه!».

وربما يتحاشى الأهل وصف بنتهم أو أختهم بالكسل والقول من غير تلميح إنّ سناء كسولة، وعقلها في محل غير محل الدرس والانتباه، وربّما من غير أيّ محلّ آخر يفترض إمعان النظر والخروج من أحضان النفس الدافئة والانكباب على شيء، أو موضوع خارج النفس الذائبة هذه والملتفّة على حالها. وانقضى الصيف أو معظمه خارج بيت جدّي، في بيوت الأهل من أعمام وأخوال، وفي مخالطة أولاد هؤلاء وأولئك، والرواح إلى أنحاء البلدة وذرع مسالكها، والوقوف أمام أبواب بيوتها، والسؤال عن أسماء أصحابها وأولادهم وقرابتهم بنا وقرابتنا بهم، وجواز زيارتهم والسلام عليهم حين يُرون مجتمعين في مجلس، ومتحلّقين بباب دكان في السوق أو مارةً بالطريق.

واستهلك جزءًا آخر من أوقات النهار، في الصباح الباكر وفي أواخر بعد الظهر، قبل اشتداد الحرّ وبعد انحساره، التردُّد إلى قطع أرضٍ يملكها الأهل في مواضع متفرّقة وغالبًا متباعدة من حزام الأراضي المزروعة الذي يلفّ من الجهات كلّها الضيعة الداخليّة. وتختصّ هذه النواحي بزراعات تكاد تقتصر على شجر الزيتون والتين، وعلى الدخان والقمح والشعير. وتختصّ هذه النواحي بأصناف من العصافير، ولكلّ صنف موسم صيد، وأوقات ووسائل وأسلحة، وطرق تَعرّض، وأمكنة انتظار ومباغتة. ولم يحُل هذا دون التحلُّق عند الغروب وفي العشيّة حول صينيّة القشّ المستديرة، وفي ضوء كيس اللوكس الباهر أو فتيل المصباح الخافت، والتزاحم بالأكتاف والأكواع والركب على الصحون، وعلى لزّ واحدنا المواضع المدبّبة من جسمه بمثلها من جسم القاعد أو القاعدة جنبًا إلى جنبه أو جنبها. ويتستّر هرج التزاحم، والتواء القسمات، وأعضاء الجسم في أثنائه، والكلام المجعجع والمتفتف على اللكزات المستجدية والخاطفة، وعلى البحث اللجوج عن موضع الجسم المشتهى الذي قد يستجيب الدعوة ويلين لها، ويستقبل رجاءَ الكوع أو الركبة أو الكتف استقبالًا خفيًّا ومتواطئًا من غير جهر دعوة إلى المعاودة ومن غير تحفّظ في وقت واحد.

فيبقى من هذا مزيج مضطرب من رغبة حرّى ويقين عميق. ويتداول هذان، الرغبة واليقين، الروح ويمضّانها. وكنتُ في بعض العشيّات، ولم تبرد بعد حمّى التخفّي والإيحاء، وأنا في فراشي على خطوتين من مها وسناء، النائمتين وراء فاطمة المتمدّدة والحاجزة بيننا، أتقلّب على جنبيّ وظهري وبطني ووجهي، فلا أستقر على جهة من جهات جسمي، ويغلي داخلُ رأسي باشياء غامضة تتنقل بين كلمات تملأ المكان كلّه – وهي أسماء بنتيْ عمّي القريبتين ومعهما أسماء بنات أو نساء أخريات، وتمتنع من الثبات وتتناثر حروفًا وأجزاء حروف ممسوسة – وبين صور هي بعض قسمات ممثّلات سينما، أطلْت تأمّلها على صفحات مجلات لامعة، مثل شفتي ريتا هيوارث الحمراوين والمثقلتين بأحمر شفاه مليء من لونه، أو عيني هِيْدي لامار اللتين ينبعث منهما نور ياقوت دفين، أو خدَّي آن بليث المستديرين من غير نتوء. وتدور هذه الأجزاء على نفسها كدواليب الهواء، وتكاد تُخرج عينيّ اللتين تدقّان جفني دقًّا مرهقًا من محجريهما.

ويغلبني النعاس لحظة خاطفة، وأنا فيما أنا فيه، قبل أن أعود إلى قلقي وقد سهوتُ في الأثناء عن السبب في هذا القلق. فأبحث عنه وأنا مستسلم بعض الوقت ليأسي من الوقوع عليه. ويحلّ من غير أن أنتبه إلى محلّ اليأس الذي يخيّم عليّ ولا أملك في صدري ولا في ذهني قوّة تكشحه عنهما، سرور صاف لا يدين لمجيئه لشيء أراه أو أفهمه، ويشفّ من تلقائه عن علّته، على الأرجح. فأرى وجه سناء منصرفًا كلّه، بنمش بشرته الطريّ والعينين السوداوين المنطويتين على صبر وانتظار مديدين، إليّ، ويسألني راضيًا عمّا أريده منها وأرغبه. وأرى مها تومئ بالتفاتة رأسها ونظرة مواربة إلى مواء القطّة المرقّطة بالبنّيّ الفاتح على الحائط الحاجز بين حاكورتي بيت جدّي وبيت عمّي الشيخ، ويفترُّ فمها المكوّر عن برق أسنانها الحائر بين المكر وبين الشره.

وطوال أشهر الصيف، تقلّبت في بعض أوقات النهار وأكثر المساء، على المزيج هذا من أحاسيس وصور وكلمات ورغبات وانتظارات. ولم يمرّ ببالي مخرج من هذه الحال، ولم أسعَ في مخرج منها. وحسبت أنّها لا ريب شيء يلازم إقامتي الجديدة في أهل أبي وبلدتهم، ولا دواء، على هذا، منها إلّا بتركهم والعودة إلى أهل أمّي. وفي انتظار عودة لا أعلم شيئًا عنها، ولا تشغل بالي ولا

تحرّك رغبة فيّ ظاهرة، استدرجني خليطي الذي ألفته واعتدته مساءً بعد مساء، إلى استباق مجيئه وفي صحبته متعته التي لا تشبه متعة غيرها. ففي أثناء عيادته رأسي ومواضع جسمي الأخرى يسري فيَّ تردّد لذيذ وأليم بين ظنّي أنّني مقبل في اللحظة الآتية على بلوغ الغاية التي تريحني من قلقي وتسفر لي عن حضورها، وبين امتناع الغاية الموعودة والقريبة من الوفاء بوعدها وتسكين حرارة اشتهائها. وبعد وقتٍ على اختبار المزيج العجيب هذا تخفّفت، مستغربًا، من إحساسي بوطأة الشقّ الأليم من المزيج. ولم يفضِ هذا إلى انفراد اللذة بسريانها في صدري ورأسي وجوارحي، فبقيا يتناوبان عليَّ ولا أجد في تناوبهما سببًا لطلب التخلّي عن شقّ من الشقّين. وفي أماسٍ كثيرة كنت أرتمي في النوم بعد تناول العشاء، وأفتح عيني في صباح اليوم التالي مستعجلًا الرواح إلى موعد أحسب أنّه ينتظرني وأنّني أنتظره ولا محلّ فيه لا لمها ولا لسناء، ولا لمغالبتي يقظة ليلية لا أدري ما أصنعه بها، وفي سمعي وتحت جلدي صدى إطباق إحدى البنتين جفنًا على جفن، بينما ريق الأخرى يكركر في حنجرتها العميقة.

وانتظم ذهابنا اليومي عصرًا إلى بيت مها وسناء. وسمّته عمّتي منذ اليوم الأول تقريبًا، على سبيل الاعتذار عن تكراره ودوامه، لجوءًا. فتقول ونحن ندفع الباب المنفرج استباقًا لموعدنا الثابت «جيناكن لاجئين!»، أو «إجوا اللاجئين اللي بتعرفوهن». وإصرارها على ترديد اعتذارها الرتيب بينما يقول وجهها المقيم على انقباضه، وإن من غير تزمّت، أنّها تجتاز الباب إلى حرز أمين، هذا الإصرار كان يثير الغيظ من جهة، ويضبط عمّتي متلبّسة بالكذب على عين التاجر، على قولها في مواقف أخرى. فهي تتعمّد رتابة لا روح فيها حين تتلو جملتها المتوقعة التي لا تقصد معناها. واللجوء تعرف فاطمة ماذا يشبه، ولم تفوِّت فرصًا تذرّعت بها إلى إعلان معرفتها، وتقريع من أظهر تهوينه من شأن اللجوء. فردّت على قريبة لها رأت في إحدى السهرات أنّه ليس على اللاجئين إلى أراضينا من بلد قريب الشكوى من نقلهم بالشاحنات وحشرهم فيها، فاللجوء على ظهر الدواب، أو مشيًا على الأقدام، وجرّ الأولاد من أكمامهم أقسى وأمرّ – ردّت بأنّ بنت عمّنا نسيت اللجوء وويلاته، أو هي لم تجرّبه وتكتفي ببعض أخباره التي يحكيها أناس مثلها عرفوا اللجوء من طريق الأخبار في السهرات الهادئة والأنيسة مثل سهرتنا، وعلى بنت عمّنا ألّا تضيع فرصة

معرفة ما هو اللجوء ما دامت الفرصة متاحة الآن، فنحن كنّا لاجئين، ومعنى لاجئين في الشاحنات والسيارات والحافلات وعربات الدواب وفي مقصورات القطارات في بلاد غير بلادنا، واحد. وهو أن ينسى اللاجئ الفرق بين الليل والنهار، وبين الوقوف والجلوس، وبين النوم واليقظة فيسوّي بين الأعضاء اشتراكها في تخشّب الجسم حتى الشعر والأظافر، فلا يحرّك جفنًا، إذا كان مفتح العينين وأفرغ عليه جاره وجليسه على مقعد سيارة أو حافلة أو مقصورة ما جمعته معدته في اليومين الماضيين أو الثلاثة، وخمّرته إلى حين بلوغه درجة حموضة يشمّها الأنف، وتشمّها الأحشاء الفارغة والأعصاب التي لا مدخل لها في الذوق والشمّ والهضم، من مدى يوم من المشي القويّ، وأن تَرَيْ الولدَ أو البنت أو الصبيّ ابن السنة ونصف السنة محرورًا يغلي وغارقًا في عرقه وبوله، وأحيانًا في خرائه الأصفر المائع الذي يقطر عليك وعلى جلد مقعد الحافلة أو العربة النظيف والأملس، وهو ينوص وينطفئ مثل فتيل فانوس يجفّ كازه، فتعلو فتيله الرطب طبقة سوداء يابسة، وينسلّ النور المتلألئ منه ويخلّف وراءه وميضًا يأكل حاشية الفتيل ويُطْلع دخانًا يتلوّى وجعًا ويأسًا. وانقضاء عامين وبعض العام على هروبها مع جزء من أهل البلدة شمالاً، إلى المدينة الكبيرة، لم يضعف الوجع واليأس اللذين تركهما اللجوء فيها. فبقي استعمالها الكلمة التي تدلّ على هذا كلّه في مناسبة مثل زيارتنا اليوميّة والآمنة إلى بيت أخيها، وإصرارها عليه، غريبًا. وهي إذا أرادت القول إنّ بيت أخيها الآخر، أبي، هو أرض لجوء ولاجئين، يكابد اللاجئ إليها الآلام التي تعرفها وتصفها ويبعث فيها وصفها ضيقًا واختناقًا لا تطيقه، فهذا ما لم يخطر لي لا يومها ولا خطر بعده.

وأنا لم أحسب نفسي في بيت بنتيْ عمّي، بعد انقضاء الأيام الأولى على الزيارة المقرّرة. لاجئًا ولا ضيفًا ولا من أهل البيت. فترحيب سناء ومها وإظهارهما انتظارهما وفرحهما بالقادم اليوميّ لم تعفني من واجباتي العائلية وحسب، بل رسمت خطًّا فاصلًا بين وجودنا، نحن الثلاثة، في بيت أهل وأقرباء يجمعنا، وبين اشتراكنا على حدة ومنفردين في لعبنا وسرورنا ومفاجآتنا. وصرت أستقلّ، حال اجتيازي الباب والعتبة، عن عمّتي وعن الجهة من البيت التي تتوجّه إليها وتلتقي بها أمّ جمال وأبا جمال حين يوافي منزله. ونتوجّه نحن الثلاثة ركضًا إلى الجهة الأخرى حيث حجرتا النوم، والأسرّة وشبابيك الزجاج

والخشب المطلّة على الجنينات والحمام الذي يتوسط جناحي المسكن. فهي تقصد ناسها، وتسمّيهم شعبها، وأنا أقصد ناسي. وتجري فصول لقائنا على ترتيب واحد. فنحتفل أوّلًا بوجودنا وبسحر خلوتنا. فنقفز في أمكنتنا على أطراف أصابع أقدامنا، ونرفرف بأيدينا مقلدين العصافير وطيرانها. وندور على أنفسنا كلّ في فلكه. ونضحك ونحن نولول كلمات نصل بعضها ببعض، وندخل فيها أصواتًا متقطعة على شاكلة الهنود الحمر. ودعا الاحتفال في بدايته من هم في الناحية الأخرى إلى تفقّد مصدر الأصوات والصيحات، والسؤال عمّا نفعل، ومن أين جاء هذا ومَنْ نقلّد. ونمضي على رقصنا وصياحنا وطيراننا، فيغلق من جاء ليتحرّى ما يحصل الباب علينا، أو يبقيه مفتوحًا وينصحنا بالاقتصاد في الجهد وفي إعمال الزلاعيم، وبإنجاز عملنا المدرسيّ قبل أن يغلبنا التعب والنعاس.

والتلويح بالتعب والنعاس بينما نحن في بهجة الاحتفال بلقائنا في موعدنا اليوميّ والمنتظر، دليل من أدلّة لا يعيرها أحد اهتمامًا على غرابة أهل الجهة الأخرى من البيت، وعلى عماهم عمّا يشغلنا، يفرحنا ويحزننا. فهذا الموعد يفيق من النوم معي، ومع انتباهي المتقطع والمتيقن في الأثناء إلى خروجي من النوم والعتمة وغشيانهما عينيّ ورأسي، وتلمّسي المتردّد الفراش تحتي وجنبي أو ظهري الذي يتمدّد على الفراش وتحت اللحاف، ثم دخولي من جديد في النوم والعتمة. فمع حكّي أسفل ظهري أو أحد كوعيّ أو خصيتيّ، وأنا أتقلب إلى أن أرتاح إلى مستقرّ يرضي مواضع جسمي كلّها، قد أسمع نبرة من نبرات مها عند انعطافة لفظة تمرّ برأسي وأذنيّ، وتعقِّب عليها متّصلةً ارتجافة تعرو جفني سناء وهي تلاحظ عروة مفكوكة من قميص بيجاما أختها. وأتنقّل بين الارتجافة وبين النبرة بينما تنسج الاثنتان خيوطًا ظاهرة وخفيّة تُدخل الواحدة في الأخرى وتشدّها إليها، وتُسْبح الإثنتين في ضوء غيم زهريّ. وقبل أن أستوي جالسًا، وعلى بيِّنة من حالي وقصدي، وأنهض إلى غرضي، ألقي تحية، على صورة إغماضة دافئة، على المشهد المائيّ الذي طاف لتوّه ببالي. وأعِد نفسي، وأعد المشهد، أن أنتظره وأن أتفقدّه في ساعات النهار، وأن ألقاه مساءً على موعدنا.

وطال وقت الاحتفال باللقاء أم قصر، فليس التعب ما يدعونا إلى السكوت والجلوس. فإذا وقف أحدنا، وهو يحطّ من قفزة على السرير ويثبّت قدميه

على غطائه، وقال من غير إظهار اهتمام بالغ «تعوا نلعب غمّيضة!»، أو «خلينا ندرس شوي ومنكمّل بعدين»، لم تنتظر استجابة الاقتراح أطول من وقت فهمه. فتكفّ الحركات الأخرى في الحال. وإذا كان الواحد يهمّ، حين سمع الاقتراح، بالصعود إلى السرير أو بالارتماء ظهرًا على الكنبة القريبة منه والطيران بالأرجل، على ما نسمّي تحريك الساقين والقدمين من أسفَل إلى أعلى والتجذيف في الهواء بهما، قطع حركته وباشر، في الثانية، إمّا إخراج الكتاب والدفتر والقلم من شنطته، أو ركض وألصق جبهته بساعده وذراعه اللذين أسندهما إلى الحائط، وأخفى وجهه فيهما، وابتدأ عد الأرقام بصوت مسموع من الواحد إلى الثلاثين، إنذارًا للآخرين بوجوب الغيبة عن مُغمض عينيه قبل أن يفتحهما ويتعقّب اللائذين بخزانة ثياب أو باب حمام أو بسرير أو غطاء طاولة، ويعثر عليهم ويفضحهم ويدعوهم إلى الخروج من مكامنهم، والحلول محلّه ولصق الجبهة بالساعد والذراع إلى آخر فصول اللعبة الأثيرة. وحتّى مباغتة الخارجين من مخابئهم المغمضَ عينيه، والمعذَّب بالانتظار والعزلة ثم بالتخمين في مواضع المخابئ، لا تعكّر إلّا قليلًا متعة المتخفّي وحسن اختياره المخبأ، وتضييع المتعقّب وإطالة بحثه، وربّما انتهاز فرصة تيهه وبلوغ محلّ السماح، حيث عليه الكمون قبل الانطلاق إلى البحث عن الملاجئ، ولمس المحل هذا قبل المتعقب، وإلزامه تجديد كمونه وبحثه، وتجديد الاختفاء والتخفّي.

ومن متع الغمّيضة الكبيرة في بيت عمّي تفاجؤ الإثنين، المختبئ والباحث عنه، حين يقع هذا على غير توقّع منه، على المتواري المطمئنّ إلى حسن تواريه وعسر العثور عليه. فتأخذ الإثنين نشوة لقاء انقطع الأمل منه، وينزل نعمة خالصة وغير مستحقّة. فيحتفلان بها احتفالًا مستحقًّا، ويتبادلان الصياح العصبيّ والخالي من العتب والإنكار، ويكشّر كلاهما عن أسنانه، ويقفز محلّه ويدور على نفسه وينسى برهة التسابق على بلوغ السماح، ويسمع الأهل الصياح غالبًا، فيندبون منهم من يركض إلى مصدره يتحرّى السبب فيه، وما قد يعود منه إلى أذى أو ضرر وقع لأحدنا. ويفيق اللاعبان على ما ينبغي لكليهما فعله، ويتدافعان، ويمسك واحدهما بقميص الآخر أو بذراعه وكتفه، ويسعى في شد مغيط بيجامته. وقد يتخلّى الهارب المستميت في السبق عن قميصه وهو يتملّص من محاولة متعقّبه تقييده أو تأخيره. ويبلغ المتسابقان مكان السماح

وهما متشابكان، ومواضع كثيرة من جسميهما تتكئ على نظيرها، أو قريبًا منه، وتشدّ عليه. فتشبه حالهما حال متصارعين في الحلبة. وتملأ رائحة العرق الطافح على سطح الجلد الأنف، وتنفذ إلى ما يتصوّره الواحد، ما تصوّرته أنا، ركن ظهره أو آخر فقراته. وينتشر رذاذ اللعاب في الفضاء الضيق والفاصل بين الصدرين والوجهين ويختلط بحبّات العرق فيشرب الإثنان مضطرّين وراغبين ونهمين أنفاسهما اللاهثة، ومزيج عرقهما وريقهما، ومذاقه مذاق عصير لا يخلف طعمًا غير طعم الدعوة إلى الاستزادة منه. فينتبه إلى رفيق لعبه ولا يصدّق الإثنان أنّ ما يجمعهما هو الإحساس العاصف نفسه بامتلاء الواحد من الآخر، وسريانه في رئتيه وعروقه ومسامّ جلده، وحلوله في أبعد أوردته.

وبدأت الغمّيضة في بلدة الأهل على سبيل تقليد اللعبة التي نلعبها نحن الصبيان في الدور الواسعة مثل دار خالي الشيخ أو في كروم يسوّرها نبات عبيّ كالرمان، ويتوسطها شجر معمِّر ثخين الجذوع وكثيف الورق كالبُطن أو شجر قريب المتناول يستتر بورقه كالزيتون، أو شجر وارفٍ وعال وعريض الأوراق كالتين. ويقضي إجراء الغمّيضة قبيل حلول العتمة في الوقت القصير بين الإياب من التنقُّل النهاريّ والاغتسال السريع بعده وبين الجلوس الجامع إلى العشاء – باختصارها إلى دورتين خاليتين من التخفّي المعقد. ومسرح الغمّيضة في دار مثل دار جدّي، منبسطة، وبين مخابئها المرجحة بعض المسافة. فالتراكض والمفاجأة وإطالة وقت التخفّي، في هذه الحال، مستبعدة. ولم ينبئ اللعب النهاريّ، الصبيانيّ، بما تخبّئه اللعبة أو قد تنطوي عليه من فرص ملامسة وجسٍّ وقرب حين يخلط اللعب الصبيان بالبنات. وصرامة نهلة بنت الشيخ كاظم أمين حين تتولّى لعبنا المختلط تحول دون خروج اللاعبين عن حدّ أدوارهم، وغلبة الحدّ المجرد على حركاتهم وأحاسيسهم. فلم أعلم، قبل إقامتنا بجوار المدينة الكبيرة، في حي الإيوان، ولجوئنا اليومي إلى بيت مها وسناء، وقضائنا الأمسيات معهم إلى حين ساعة النوم، ما تضمره الغمّيضة من دعوات وإيماءات.

وصار الموعد اليوميّ وقتًا لا يستقيم الجزء الثاني من النهار ولا أتصوّر تمامه من دونه. فأنتظره الوقت كلّه غير مستعجل موافاته، متيقّنًا من أنّه لن يخيب الانتظار أو يخلف القدوم، ولن يفوّت اللقاء. ويهتزّ يقيني حين أتعثّر، في

أمور أخرى، بمشادّة مع صاحب أو غمزٍ من صداقة أو سخرية من قول أو لباس، أو يعود على مشهد من حياتي السابقة. ولا يغرب عن بالي إذ ذاك موعدي المسائي ولا ينحسر، ولكنّني أشخص إليه راجيًا رعايته وملحًّا في رجائي. فهو مرسى اليوم، والغاية التي يقصدها ويفيء إلى ظلها. وعثرات النهار تشدّ أوقاته وحوادثه إلى ذروتها، وتبعث في هذه الأوقات وفيَّ أنا، صاحبها، رغبة في تخطّيها. وهذه الرغبة تشتدّ مع تسرّب الشكّ إلى ثبات الموعد وإمكان تبدّده وقتًا غفلًا لا تجريه أو توقفه حركات بنتيْ عمّي، والتفاتاتهما، وإقبالهما، وصيحاتهما، وسكناتهما. فأسابق رغبتي إلى بلوغ العلامة المفترضة والقائمة هناك، وراء منعطفات قريبة تتستّر على منعطفات وراءها، نلهث ونحن نطويها واحدًا بعد الآخر إلى حين يفاجئنا مجيء اللحظة الفصل، وتمسك يدا سناء ومها بمواضع من ذراعيّ ومن قميصي وتشدّانني إلى مسرحنا.

وفي دوّامة الاختباء والبحث والعثور، وتكرار فصولها شوطًا بعد آخر، جدَّت أشياء خفيت بعض الوقت علينا، نحن الثلاثة. فلمّا ألعب أنا دور الأعمى، وأغمض عينيّ وأعدّ العدد إلى حين تواري بنتيْ عمّي في مخبأيهما، ثم أفتح عينيّ وأسعى في العثور عليهما – فأفتح خزانات الثياب، وأركع مستجليًا ما تحت الطاولات والكنبات ووراء أغطيتها، وأركض حين أسمع صرير درفة باب نحو مصدر الصوت ظنًّا منّي أنّ إحداهما تغيّر مخبأها أو تريد إيهامي بذلك، وأمشي على أطراف أصابع قدميّ متخفّفًا من حذائي وحكهما نعليهما ومسامير النعلين بالبلاط، وأصعد درجات السلم المفضي إلى التتخيتة إذا لم يحل أحد من الأهل دون ذلك خشية التعثّر والسقوط في زحمة التسابق – لمّا ألعب الدور أُسرع في إخراج مها من مكمنها، وأقدّم البحث عنها على البحث عن أختها، وأرجئ السعي في أثر سناء كما يؤجّل الآكل الفاكهة أو الحلوى إلى حين فراغه من الطعام المفيد. فإذا وجدت مها، تمهّلت في الفصل الآخر من التقصّي، وتعمّدت التلكّؤ في مداهمة مخابئ أرجّح التجاء سناء إليها إلى وقت تالٍ، وحاكيتُ حال من يحيّره بحثه ودورانه على مواضع صعبة. وفي الأثناء أحسّ متعة إرجائي النظر إلى سناء في قوقعتها، مجتمعة على نفسها وحائلة بينها وبين الانتباه الصريح إلى متعقّبها، وسبر عينيها عينيه، والتسليم بخسارة تخفّيها. وأحسب أنّها تشاركني هذه المتعة. وقد تعلم أنّني أقصد فعلي ما

أفعل، وأتوقّع مثلها ربّما أن تتسارع خفقات قلبي وأنا أخطو منحنيًا خطوة السارق بقرب مخبئها، وأن يتّسع جوفي ويملأ داخل نفسي ويطلّ قلبي من حافة هذا الداخل على الهاوية العميقة تحته.

ولم يقتصر تعليق البحث عن المستتر على تجاهل المخابئ المرجّحة والقليلة، والمرور بها من غير الالتفات إليها، وإظهار الانهماك بمحالّ لا تصلح للتخفّي. فتُعدّى هذه إلى تأجيل الإسراع إلى مكان السماح. ويتيح التأجيل للمتخفّي فرصة الاحتيال على متعقّبه، ومباغتته والسبق إلى السماح من طريق مختصرة. والتأجيل والاحتيال والمباغتة والتسابق جزء من دور يؤدّيه المغمِّض والمتخفّي عن دراية وعلم. واستعمل كلانا أداء الدور في حيل كثيرة تؤول كلّها إلى لمس واحدنا الآخر، وإطالة جس مواضع من جسمه، وتقريب الوجه من جلده العاري والشعر النابت عليه، والأنفِ من روائح تهب من الثياب حين تبعدها حركات الجسم من الالتصاق به. وقد لا تكون هذه الحيل ونتائجها إلّا من ثمرات أوهامي ورغباتي، ولم تمرّ ببال سناء ولا بال مها، في الوقت الأوّل من لعبنا وقبل ظهور ميل سناء وميلي إلى الاصطفاء والتخصيص. ولكنّنا نحن الإثنين، انتبهت سناء إلى أوجه استعمال الاحتيال في اللزّ والجسّ والشمّ أم لم تنتبه، تواطأنا من غير شكّ على الاحتيال واستغلال فرصه. فصارت الدورة الواحدة أو الشوط الواحد يدوم دقائق طويلة في أثنائها نتماسك ونتضاحك ويرتمي واحدنا على الآخر، ويلتصق به ما بدا الالتصاق بعضًا غير مصطنع من اللعب. وحين وقع دور الأعمى ثم التعقُّب على سناء، فعلت مثلما فعلت أنا، واحتالت مثل احتيالي وأجَّلت وباغتت. وأرادت مها مجاراتنا ومماشاتنا على هذا كلّه. ولمّا لاحظت متردّدة ضعف الهياج الذي نُقبل به على اللعب حين يفضي الدور إليها، قنعت بشراكة أقلّ صخبًا، وتشاغلت بأعمال المدرسة ولم تنسحب من الشراكة، على خلاف تهديدها إذا بالغنا في تواطُئِنا وأطلنا ملازمتنا وحشرنا واحدنا الآخر.

وكان شوقي ممضًّا وأليمًا إلى سناء، وإلى رؤية ابتسامتها تخبو وتذوب شيئًا فشيئًا في شحوب وجهها وجفاف شفتيها، وأنا أحسّ في فمي نضوب ريقها، وفي صدري ضيق صدرها وعسر تنفسها. فلا أشعر في لحظات تشتدّ فيها رغبتي في الخروج من جلدي وعظامي، بذهول يخطفني ويحرّرني من أسري، ومن وطأة الرغبة التي تعقد بطني وتعصرها. ولا أنتبه إلى ذهولي، وإلى

ظهوره عليّ، إلّا بعد زواله، وعودتي منه. وتولّت مها غير مرة تنبيهي وتحذيري من ملاحظة الأهل. فتسأل بصوت يخرج من بين أضراسها وشفتيها المطبقتين، مازجة محاكاة الغضب والأسف والشفقة، «في شي يا ابن عمّي؟». وتفتعل الضحك وهي تقول: «شو بني؟ عم شوف شوفات أبصر منين! يمكن عم جنّ». وتصدم بكتفها كتفي، وتدعوني إلى الإفاقة ممّا تراه غيبوبة. وتردّ على استفهام آتٍ من حيث تجلس فاطمة وأمّ جمال: «لأ، ما في شي، حرأصه بس!» ولا يقنع ردّها العمّة، فلا تسكت على التطمين: «شي منيح الحرأصة، يعني؟» فيومئ بعضنا لبعض بالإقلاع عن التدافع والضحك والصياح. وبينما ننسحب من الممرّ إلى غرفة النوم الأبعد، ونرد بابها نصف ردة، أتولّى أنا محاولة صرف الانتباه عنّا وعن لعبنا: «خلصنا اللعب، ولح نبلش الدرس يا عمّتي!»، فتعقّب: «إيه! الله يكون مع الأوادم ومعكن!» ونتذرع بأعمالنا المدرسية والحاجة إلى الاستيضاح إلى تقريب قعودنا، ولزّ المؤخرة إلى المؤخرة، واتكاء الفخذ على الفخذ، وحضن الساعد بالساعد والذراع بالذراع، وإلى شرب الأنفاس الحارة. فإذا طال سكوننا، وخَفَت حِسّنا، خشينا ارتياب الأهل. ففاطمة وأبو جمال يوقظ الصمت الذي لا تعكّره جلبة ضعيفة حذرهما فوق ما يوقظه طلوع ضجيج مفهوم، ولا يصعب عليهما تفسيره.

ووازنّا، نحن الثلاثة، موازنة مفيدة بين رغباتنا في اللعب والاختلاء وبين طلب الأهل إحاطة أعينهم برواحنا ومجيئنا وأفعالنا. وهم لم يظهروا الارتياب. بلعبنا أو بخلوتنا، ونحن لم نظهر الخوف من مراقبتهم وشكوكهم. وتفقّدهم إيّانا بين وقت وآخر متباعدين دليل على رعايتهم سلامتنا على ما ينبغي لنا أن نفهم. وفهمنا هذا، ولم يفتنا، إلى هذا الفهم، أنّ يقظتهم لا تفتر. وداربنا المفاجأة، مفاجأتهم لنا ونحن نخلط لعبنا بنزواتنا، بالذهاب إليهم وسؤالهم عن جواز حركة أو فعل مثل خلع الكلسات أو القميص تفاديًا للحر، أو عن إرجاء بعض الدرس إلى ساعة لاحقة، على سبيل التمويه والحذر واستباقًا لتفتيش محتمل. وبعض الأسئلة كانت تثير الشبهة في العمّة وفي العمّ. فلا يتأخّر أحدهما عن زيارتنا، على قولهما، بعد السؤال الغريب مباشرة، وتقليب نظر حائر أو متأمل في قعودنا وآثار تحلّقنا في الغرفة وانفرادنا بها، واتخاذها ملجأ لنا على حدة.

ولم يربك ظهور الشكوك على الأهل، وبلوغ بعض أسئلتهم مثل: «شي مش على بعضه بالأوضة!»، على قول أبي جمال، سمْعَ أحدنا وهو يقصد مجلسهم أو يمرّ به – ميلَنا المتزايد إلى لعب متقارب ومحاشر. ولعلّ اعتياد الانتقال من المحاشرة إلى المفاصلة، ومن الصخب إلى السكون، والعودة من هذا (أو هذه) إلى ذاك (أو تلك)، أبعد بعض الشكوك في ما نفعل، وأضعف حومة الشبهة عنا. فتمادينا في شدّ بعضنا بعضًا، ومدّ اليد إلى موضع جسمه، والالتصاق به وجهًا وقفا، بطنًا وظهرًا، والارتماء عليه. وغلبت المداورة على هذه الأفعال التي اهتدينا إليها في أثناء التسابق على بلوغ السماح والتزاحم عليه. وتدرّجنا من مسك المتخفّي، وهو يحاول تعويض الكشف عنه بالركض والسبق، إلى قطع الطريق عليه واعتراضه بالجسم كلّه، وقسره راضيًا على الملاصقة والالتحام القريب. واقتصر وقت الالتحامات والاعتباطات على أجزاء من الثانية يليها الافتراق، ليس حذرًا من مداهمة المراقبة ولا تفاديًا لرؤيتنا متلبسين بما لا يراه العمّ والعمّة وربّما جمال وأخت جمال وحدهم جائزًا، وحسب، فسناء ومها وأنا تفادينا عن قصد التعرّض للرؤية الداهمة ونحن في دوّامتنا. وكنّا نتفرّق وننفصل لأنّنا لا نعلم ماذا نصنع بقربنا واختلاطنا، ولا برغبتنا فيهما وفي إدامتهما وقتًا طويلًا، وقتًا أطول من الملامسة الحارة أو الضمة المنتشية ولفح الأنفاس وزيغ العينين. فهذه استجابت استجابةً بدت وافية دعوة الجموح الراكض كالمطر على الوجه والعنق والكتفين والصدر والبطن والذراعين والفخذين والركبتين وراحتي اليدين وأطراف الأصابع، والنافذ في ثنايا المواضع هذه، والبالغ جذورها المحمّلة بكتل الأتربة الرطبة والحمر.

فليس من بعدٍ أو تتمّةٍ لهذا، أو نحن لا نعلم ماذا بعد هذا أو وراءه. ونحسب أنّنا بلغنا الغاية والحد اللذين يرتفعان كالجدار السميك ويسوّران الدنيا، ويقيانها الغرق المروّع في محيط العدم المظلم الذي يلفّها من الجهات كلّها. ولم يكن أثر الملامسة أو المسّ واحدًا في مواضع الجسم كلّها. فاليد التي تمسك باليد، أو تمرّ على الظهر وعلى الكتف، لا تدعوها رغبتها التي تكاد تستقلّ بها إلى توسيع دائرة إمساكها، والانتقال من المَرِّ إلى التقصي والفحص بعض الوقت. وإذا صادف ولامست الشفتان محلًا من الجلد أو الثياب شبت فيهما حاجة موجعة وممضّة إلى الإطباق على الموضع، ثم إلى إبقائه بين الشفتين وإغراقه في اللعاب على رجاء إذابته فيه. فيبقى الجسم كلّه معلّقًا على الشفتين،

وتختصره هاتان، فيجمع فيهما أهواءه المتخبّطة ويحمِّلهما ما لا طاقة به عليه. ولا يسع الجسم إلا انتظار وقت انحسار الموجة من تلقائها، وارتخاء التصلب الذي عرا الوجه وبلغ العينين والسمع، ونزل إلى الكتفين والإبطين من طريق العنق. وفي أثناء تقليبنا أجسامنا ووجوهنا بعضها على بعض، وتجريبنا غير المتعمّد أحيانًا والمقصود أحيانًا صورًا متفرّقة ومتجدّدة من إيقاع مواضع على مواضع، ومس أجزاءٍ بأجزاء، اختبرنا أوضاعًا عارضة دعتنا متعتها إلى استعادتها وتكرارها. ومنها وضع اختبرته بينما كنت مختبئًا في حجرة الغسيل الضيقة والمعتمة، القائمة داخل المطبخ الذي لا يبلغه الضوء إلّا من نافذة عالية ومشبَّكة فُتحت في الجدار الشماليّ. وقلّما لجأنا إلى الاختباء فيها لأنّ امرأة عمّي كانت تنقع قطع الثياب الوسخة، وعلى الأخص الداخلية، في ماء تملأ به اللكن الواسع يومًا كاملًا. فإذا فتح أحدهم باب الحجرة استقبلته روائح الوسخ المخمرة، على قول امرأة عمّي شاكية ومحرجة. وقد لا يسلم إذا وضع قدمًا فيها من الدوس في شبر الماء الذي يفيض عن اللكن، ولا تستغني أمّ جمال عن فيضانه وهي تعكّ القماش على القماش، على ما تكرر عمّتي التنبيه إليه كلّما تسنح فرصة أو يتناول الكلام الغسيل، أو خريطة المطبخ أو عيوب السكن في شقق المدينة.

واخترتُ التخفّي في غرفة الغسيل بعد ظهر يوم أحد ربيعي حار تركنا فيه باكرًا بيتنا إلى بيت عمّي، وحملنا معنا نحن الإثنين خضرًا ولحمًا وخبزًا. قالت عمّتي وهي تضعها في كيسَيِ الورق، وتقسم حملها بينها وبيني، وتدعوني إلى المشي وراءها والمحافظة على الأدب في بيت عمّي، أنّ أخاها عبد الله، أي أبي، شَرَحت مذكّرةً، أبلغها أنّ ليلة السبت إلى الأحد مشهودة، وتقتضي مشاركته إلى الفجر احتفاءً برجل يحلّ ضيفًا على الأصحاب وهو في طريقه إلى المنفى، وعلى هذا فقد لا يرجع إلى البيت مساء الأحد متأخّرًا. وهي تروي هذا لأعلم حقيقة ما يفعله أبي وما تصبر عليه منه. وهي لا تشكّ في حرارة انتظاري رواحنا إلى بيت عمّي واللعب مع بنات عمّي، ولا في فراغ صبري وعدّي الدقائق في الانتظار. وألمحت إلى أنّ من حسن تدبير الحوادث وحكمتها، والتدبير والحكمة من صنع عمّتي، أنّنا جيران بيت أبي جمال ولولا هذا الجوار لكنّا في تعتير الغربة ووحشتها. وهي لا تريد بخس أخيها المنشغل على الدوام بهموم وظيفته وصداقاته، وحياة العازب المضطربة التي تتمسك

به ويماشي هو ضروراتها وربّما غواياتها، لا تريد بخسه حقه، ولا تنكر ثقل هذه الحياة عليه وعليَّ أنا ابنه وعليها هي أخته، وحقّي أن أعلم هذا، وإن بقي هذا العلم لي وحدي، على ما يُستحسن. وأعرتُ ما تتكلم به فاطمة، وهي تشدّ جفونها وتكبسها، على قولها، تفاديًا لقوة الضوء، وتحاول المشي بين التراب وبين الإسفلت، انتباهًا ضعيفًا قبل أن ألاحظ انصرافها عنّي إلى محادثتها نفسها. فتقدمتها إلى الطريق الجانبيّة ومفترقها إلى اليسار، خفيفًا وراكضًا.

وحلّ دور الإغماض على سناء بعد دورينا، مها وأنا، فقصدت غرفة الغسيل وقد وطّنت نفسي على تحمّل نتن زلال البيض، المنبعث من بيجامات ولباسات وقمصان بنات وأولاد عمّي، ومن الماء الراكد والفاتر الذي نقعت فيه امرأة عمّي البارحة قبل النوم ثيابًا لابست جسمها الضئيل والنيئ وجسم عمّي الأعوج وأجسام بناتها وصبيّها، وتخلَّل نسيج خيطانها عرقهم وشيء من بولهم، وعلقت بحروفها من خرائهم مشحات بنّية داكنة على الأغلب. وتباطأتُ في بَرْم مسكة الباب. فلما فتحته رأيت اللكن على منصته الخشبية في زاوية الغرفة الضيّقة خاليًا إلّا من قطع غسيل ملوّنة قليلة وسابحة في زوم فاتح. وظهرت بينه وبين الباب والعتبة بلاطات نظيفة وجافة على غير عادة، ويُرى جفافها ونظافتها في ضوء قليل يغشى المطبخ على تردّد.

وأثنيتُ راضيًا على تخميني وحسن اختياري، لمّا عزمتُ فجأة على الاختباء في مكان استبعدناه من لائحة مخابئنا من غير مشاورة. ودخلتُ المخبأ آمنًا، وأردت غلق بابه من غير جلبة ورائي. إلّا أنّ إطباق العتمة على الغرفة الصغيرة، والشعور بالحصر على صدري حالَ ردّي الباب، بدّدا اطمئناني، وحملاني على التفكير المشوّش في اختيار بديل على وجه السرعة عن غرفة الغسيل وفتحها المقلق. وجمدت في مكاني، يدي على مسكة الباب البيضاوية وأنا خلف الجدار الحاجز بين المطبخ وبين المخبأ.

ومرّ وقت وأنا على هذه الحال، ولم أقِسْه ولم أفِق منه إلّا حين خطرت سناء أمامي من غير أن تنظر إلى ناحيتي، آتية من الممرّ الذي يصل المطبخ بالباب الخارجيّ وغرفة الجلوس. ولم يبدُ عليها وهي تخطو خطوات عريضة، تكاد تكون موقّعة لولا ظهور الشرود على سناء وفعلها ما تفعل من غير قصد، وتوجّهها على نفسها وهي تتمتم وربّما تغنّي. ولم أشأ اعتراضها وتنبيهها إلى أنّها حاذتني لتوّها من غير أن تلاحظ. ووقفتُ بالباب، قدمًا في الداخل وأخرى

وراء العتبة. وتأملتُ سناء من الخلف، كما قد يراها ولد مثلها ومثلي، ليس ابن عمّها ولا هي صديقة لعبه، ولا يحقّ له أن يقترب منها إلى حدّ يرى معه نمش خدها وعناقيده، وشعرات حاجبيها الكثّة والشديدة السواد، وينتبه إلى تقدّم سنَّيها تحت شفتها العليا والبليلة، ويملأ رأسه وصدره عرقها الذي لم يكد يبرد وراء أذنيها وفي غضون عنقها وثناياها. وفاتني، حين اجتزت العتبة العالية إلى مدخل بيت عمّي، وكانت سناء واقفة أمام مها وتحجب أختها عنّا، أنّ ثيابها من قطعتين، الأولى والعليا هي قميص البيجاما البيضاء المفتوحة بسبب خسارتها كلّ أزرارها على الفانيلّا التحتيّة، والثانية هي تنورة كحلية ضيقة قد تحسب من مخلفات أمها وعتيقها لولا الفرق بين ضيقها وبين عرض ما تسميه عمّتي كفل أمّ جمال، وتتبع القول بردٍّ على من ينكرون التسمية: «شو في؟ ما هو كلّ شي إله اسم! ليش الإسم عيب والشي مش عيب؟» وأنا أرى ما فاتني قبل دقائق. ومثله لم ألاحظ احتذاء سناء فردة من صندل في قدم وفردة من شحّاطة في القدم الأخرى، فعرجت قليلًا جراء علوّ كعب الصندل قياسًا على الشحّاطة المسطّحة، وحسبت عرجها توقيعًا وترحيبًا. وكما يدخل المستحم في البحر ويمشي إلى حين بلوغ الماء ذقنه ففمه فأنفه، ويغمض عينيه مستقبلًا الغمر ومستعدًّا له، ملأت حسّي وذهني صور سناء. فهي الولد الذي يشبه خيال صحراء المقتة والخيار في ضاحية البلدة الكبيرة، ويسير على غير هدى، ونسي ما جاء به إلى هذه الجهة من المنزل وعمّن يبحث. وهي البنت الهادئة والشاردة، الغارقة في أخيلة ونثرات ذكريات وأصداء أحلام، بعضها أهومة يقظة وبعضها منامات، فلا يسعها مع هذه كلّها الجزم بأيّ يوم هي وماذا فعلت في صباح هذا اليوم. وهي حياة، أيّ وجه حياة دخل جسمها فحرّكته شهوة ليست منه، وتلمّ به بين وقت ووقت فتتصلّب قسماتها، ويعصف في عينيها سواد حبر تضيق العينان بقوّة عصفه، وبتركيز سواده، فترتعشان وتحاولان الخروج عبثًا من هلع ينتابهما لحظتذاك، ويشدّ الفكّان واحدهما على الآخر وكأنّهما يحولان دون خروج قيء محصور من فجوة بينهما.

وخطت، على هذه الحال، خطوات قليلة صوب المجلى، وأنا أستبق استدارتها وانتباهها إليّ، وإلى تأمّلي إياها وهي غافلة عني، وأتوقع دهشتها أو خجلها أو عتبها على مسترق مراقبتها، بينما تظنّ أنّها وحدها، وليس من يراها، ويرى طبيعتها من دون إضافة الانتباه إليها ولا قيده. وأردت مناداة سناء

منتصرًا ومحذّرًا إيّاها من التمادي في حسبان نفسها وحيدة، وما قد يجرّه هذا الحسبان من أفعال خرقاء لا أحزرها. ولكنّها سبقت مناداتي، واستدارت صوب مكاني وكأنّها على علم بكوني به من قبل، ووضعت يديها على خاصرتيها وأخّرت ظهرها، وثنت إحدى ركبتيها وقدّمتها، وابتسامتها تتسع وتحوط وجهها. ولم تثبت على هذه الصورة إلّا وقتًا قليلًا لم يكفِ لأبادلها صورة وقوفها هذه بمثلها أو بشبهها. فركضت نحوي، وأفلتت فردة الشحاطة من قدمها في ركضها، وارتمت بصدرها علي، ودفعتني بيديها وصدرها وبطنها وركبتها معًا إلى داخل غرفة الغسيل، وأغلقت بابها وراءنا قبل أن أعي ما نفعل، سناء أوّلًا وعلى الأخصّ، وأنا من بعدها. وغرقنا في عتمة الغرفة الضيقة والحارة. ولفّ جسم سناء كلّه، عظامها الناتئة ولحمها الطري، جسمي كلّه، ولم يبق موضع مني لم أحس فيه ضمّها وضمّي، ووطأة نعومتها الحارة وطلبها الدخول في جسمي وطلبي الدخول في جلدها، وراء صفحة المواضع التي يشدّ كلانا عليها يائسًا ومستميتًا. ومرّغت خدّيَّ وأنفي وشفتيّ على صدرها وكتفيها وعنقها وأذنيها وشعرها، على عري الجلد وأطراف الثياب. وذقت بشفتيَّ وشمّي طعم عرق مالح خفيف الملوحة ولعاب ندي. وألقيتُ بثقل صدري وبطني على صدرها وبطنها، وكأنّني أريد جادًّا شقّ الجدار وراء ظهرها الذي أسندته إلى الجدار، وحملها على فتحه. ولم أدر ماذا أفعل بكفيَّ وراحتيّ وباطن ساعدي غير جس كتفيها وأعلى صدرها ولمس حناياها والشد عليها بها. وتخبّطنا ثواني في الجهات كلّها، أفلتّ فيها من نفسي. وبدا في الأثناء أنّ سناء تتكوّم على نفسها كأنّها تحتمي من طوفان انفعالات وحركات لا غاية لها، ولا يحدّها غرض تريد بلوغه. وبينما انتابتني رغبة في التهام سناء من غير بقيّة والتخلّص من تجديدها فيّ حاجة لا أعرف كيف ألبّيها، ارتخت هي ولهثت، وشبكت يديها وساعديها فوق رأسها ومالت إلى الوراء.

وآلمني إرهاقي، وكاد تسارع أنفاسي أن يخنقني. فأمسكَت بيديَّ وهي ترتجف، وفصلت بينها وبيني بأيدينا المتشابكة وأنزلتها، أو هي نزلت من تلقائها إلى مستوى بطنينا. وأوكلنا رغباتنا إلى أيدينا وإيمائها وشدّها على أنحاء جسمينا المتقابلين. وبحثت عن وجهها القريب وأنا أحسّ أنفاسها وألهث مثلها. فرأيت في آخر العتمة أو قبلها مثل نجمة بعيدة ولصق عينيّ في آن، بؤرة ضوء تلتمع على صفحة ماء متغضّنة، فتنتشر وتجتمع، وتستقيم وتنكسر على إيقاع

غير منتظم. وبَرَق في ذهني أنّ سناء تبكي ربما أو تدمع، وأنّ حاشية الضوء هي صدى دمعها. وأردت، متوجّسًا ومثبطًا، سؤالها عمّا يبكيها وعن هذا الذي يرتجف في وجهها. وبعث بقاؤنا على حالنا حيث نحن قلقي وخشيتي من انتباه أحد من الأهل إلى دوام سكوتنا وغيابنا عن أنظارهم. وهممتُ بالاقتراح عليها ترك خلوتنا على رغم خجلي من عرضي الهرب، وتجدّد رغبتي المتقطع والحاد في استئناف اختلاطنا ولمسنا. وتردّدت قبل أن أستدير قليلًا وأمدّ يدي إلى مسكة الباب التي أحسّ قربها من أعلى ظهري، وفي وسعي أن أسنده إليها إذا ملتُ إلى الخلف، وأدعو سناء إلى مجاراتي ومتابعتي على ترك المخبأ. ولكنّ سناء، في تلك اللحظة، كانت تلصق راحة يدي التي استولت عليها ببطنها العارية، وتوسع مكانًا ليدي بين قميصها الذي رفعته وبين خصر تنورتها ومغيطه الذي أنزلته. وقادت بيدها أصابعي إلى أسفل بطنها، وأقرّتها على هذا الموضع. وهي صنعت هذا وكأنّها على دراية بما تصنع، وسبق لها أن مهّدت له، ووقّتت وقته على رغم زجّنا في لجة اضطراب هدأ بعض الشيء وإن لم ينحسر.

ووجدتني وراحة يدي وأصابعي على بطنها وأنا في مقابلتها، في موقف ملتوٍ. وعليَّ، إذا شئت الجمع بين الأمرين، فتل ذراعي اليمنى وكوعي فتلًا أليمًا. واضطررت إلى الجمع الأليم وقتًا قليلًا لم أحتمل دوامه. فخطوتُ خطوة إلى يساري وصرت إلى يمين سناء. وشيئًا فشيئًا، التصقت بجنبها ووقفت وراءها وبقيت لصيقًا بها. واستوى داخل ذراعي وراحتي على سوية واحدة. وأجابت الوضع الجديد هذا، فأرجعت إليتها إلى الخلف بحركة رقيقة، وأثبتتها على وركي وبطني وأعلى فخذي، تضمّني كلّي إليها وتدعوني بإيماءات من مواضع جسمها إلى ضمّها وإحاطتها من جهاتها، وامتلأت منها وأنا منحنٍ عليها وعلى ظهرها المتكوّر، بين كتفها وإليتها، واستقبلتها في تجويف عميق وعريض جمعت فيه وجهي وصدري وبطني وذراعي، وحضنتها وأنا أرجو ذوبانها موجةً حارة في حضني. ومرت أصابعي، وأنا أجوب بها على أنحاء البطن الملساء، والمترامية الجهات والاستدارة، على شق أحسست عريه بطرف الأصابع واستوقفها. وانحنت سناء فجأة حالما لمست هذا الموضع، وضمّت فخذيها إلى بطنها، وأمسكت يدي ورفعتها إلى وسط بطنها، وشدّت عليه بيدي، وحالت بين اليد وبين عودتها إلى الشق الرخو وإلى تفحّص الوسادتين الرقيقتين اللتين

يتوسطهما. وفردتُ راحتي، وبسطت أصابعي الخمس على البطن المكورة والمباحة، بين ملتقى الفخذين في أسفلها وبين حفرة الزكرة الصغيرة في أعلاها. وطفا باطن يدي على الصفحة اللاهثة، على نحو طوفان الحالم على غيم حلمه. وتردّدت بين إغفاءة مسترسلة ويقظة خفيفة، وجمعت الضفتين القريبتين في عوم لا يميز المياه الدافئة المنسابة من الريح النافخة على سطح المياه.

واستوت سناء من انحناءتها، وأولت صدري وبطني ظهرها كلّه ومؤخرتها الطرية والعالية. وأسندت جسمها العظمي المستقيم والليِّن إليّ من غير اتّكاء. وغرق أنفي في شعرها الناعم وذقت طعم خصلاته الحريرية ورجعَ صابون مثل الخبز اللزج. وسرت فيّ عدوى اطمئنان هانئ مرَّ منها، من ارتخاء عمَّها وحلّ كتفيها، ونزل إلى حوضها ووركها وإلى يدي وصدري وأسفل بطني. ورأيت جانب وجهها الغارق في ظلمة مقيمة على سواد ربّما جفّت حاشية حبره. وحطّ بطرف أنفها ضوء شاحب بلون بشرتها الذي عرفته وأتذكّره وبلون نمش البشرة. وخالف رسمُ الشفتين المنفرجتين اللتين تتنفس سناء منهما، وأنا أرى انفراجهما وماء ريقها على باطن شفتها السفلى، ما حسبته اطمئنانًا وكان اطمئنانًا. فهما كانتا ترتعشان. وأوَّلت ارتعاشهما ضيقًا أو قلقًا. وأخرجت يدي من تحت لباسها وتنورتها رغبةً في تخلّل شفتيها الرطبتين بأصابعي، وفي جس أسنانها، على ما رأيت نفسي فاعلًا من قبل في أوقات كنت أجمد فيها منبهرًا ببطء انسلاخ الشفة عن الشفة، وتخلّص الواحدة من الأخرى وتركها إلى وحدتها، وبينهما خيط دقيق من ريق ذاوٍ. والحركة الضئيلة هذه ترسم وجه سناء رسمًا جديدًا، وتجمع في مركب ألوان، أحمر الشفتين واللسان واللثة وزهرها وأبيض الأسنان وحنطة البشرة، وموادّ، عظم الأسنان العاجي ولحم الفم المكتنز وسطح الجلد المالس، وتُغيّر تركيبَه. وخلَّت سناء بين يدي وبين الانسحاب، وشدّت مرة واحدة شدًّا رقيقًا على يدي وهي تنسل من اللباس وقميص البيجاما والتنورة معًا، واتكأت بمؤخرتها اتكاءً قويًا عليّ، فتأخّرتُ إلى الحائط وبلاطه البارد وأسندت ظهري إليه. ودعوتها إلى حشري فوق ما تفعل، وألصقت بطني وفخذيّ وصدري بها دلالة على معاودة رغبتي في تشابكنا، وفي دخولي فيها ودخولها فيّ ليس من باب أو من منفذ، بل من صفحة الجلد ومن العظام والأسنان والمواضع كلّها. وفاض حضني بدفء صعد بطيئًا من

أعلى فخذي إلى أسفل صدري، واستقر بينهما استقرار الماء في حوض واسع مترع. وامتلأت أنا من حضني، وصرت كلّي الحضن الذي حطّت فيه سناء وأشاعت طراوة مؤلمة. فخِلتها، في وقت، لا زيادة عليها ولا حاجة بي إلى زيادة، وأيقظت في وقت تالٍ رغبة جامحة لا يلجمها إلّا الإرهاق الذي ينفذ إلى مواضع الجسم كلّها، ويلوكها إلى أن يتركها أجزاء متفرقة وتالفة. وغلب اشتراكنا في سعي واحد إلى التلاحم والتشابك التعب والإحباط. فلعبنا بعض الوقت، حيث نحن ومن غير أن يتفوّه أحدنا بحرف واحد، لعبًا لا نعرف اسمًا له.

وفي مساء ذلك اليوم الذي قضيناه كلّه ضيوفًا على بيت عمّي، وأكلنا من طعامهم ظهرًا وعصرًا ومساء، واستقبلنا معهم زوّارهم ولعبنا مع أولاد الزوّار وودّعناهم معهم، رأت عمّتي أنّ في وسعنا إطالة الزيارة، ما دام مضيفونا لا يستثقلوننا كثيرًا على رغم ثقلنا الذي لا تشكّ هي فيه. ومعنى رأيها هذا أن لا بأس بقضائنا جزءًا من السهرة، بعد تناول العشاء، في غرفة الجلوس والاستقبال والطعام والنوم. وذلك بعد مدّ الفرش والشراشف واللحافات لمن يحتاج من الأولاد إلى دفء فوق دفء الشراشف الخفيفة في ليالي الربيع المتقلّبة، أو لمن لا يصحّ نوم ولا يعدّ نومًا شأني ما لم يغطّه كلّه، في فصول السنة كلّها، لحاف سميك. فيجلس الأهل وكبار الإخوة بصدر المسرح الأبيض، بعد إزالة المملحة وإبريق الزيت وأرباع الأرغفة التي لا تزال خارج كيس البلاستيك، ويتّكئون إلى المساند. وقد يدخل بعضهم، وعلى الأخصّ النساء، ساقيه إلى الركبتين تحت الغطاء، طلبًا للارتخاء والتستر على انفراج الساقين والخلوص منهما إلى انفراج الفخذين. ودعيت بنات البيت إلى الاغتسال، ولبس البيجامات، والدخول في الفراش، وانتظار نوم لا يستعجله أحد في ضوء لمبة فاقع، يلاحظ أبو جمال في مرات كثيرة شهدتها أنّه، أي الضوء، يؤذي العينين عمومًا وعيون الأولاد خصوصًا، ويجزم بأنّ الإهمال في هذه المسألة غير جائز. وتوافقه الرأي أمّ جمال بعد أن ترمق الضوء المتوهّج نظرة كسيرة ترتدّ بعدها ويغشى الوجه إحباط ظاهر. ونتبادل، نحن المقبلين على افتراش ما أعدّ لنومنا، ولكن بعد لعب يمهّد له، النظرات الساخرة تعقيبًا على رتابة تقرير أبي جمال وبقائه من غير علاج. وندخل النوم تدريجًا وفي وقت يكاد يكون واحدًا.

وطوال بقية النهار، استطلعت في أوقات متفرّقة تخلّلت الصباح وألعابه والتحلّق للغداء ثم بعد الظهر، وجه سناء وأحواله. فأنا خشيت بعد تركنا غرفة

الغسيل أن تحسب ما صنعناه في العتمة عيبًا مخجلًا، والأحرى بنا أن ننساه ونندم على فعله ولا نعود إليه. ولكنني لم أرَ منها ما يحقّق ظنّي وخوفي، وبقيت التفاتاتها حين تتعمّد الالتفات أو إجابة التفاتي، والتقاءات عيوننا مصادفة حين تلتقي، تومض بالتواطؤ والدهشة، وتسرع على تهريبهما تجنبًا للملاحظة، وتَصوَّر لي أنّنا بعد هذا على موعد، وعلى موعدنا أن يثبّت تشاركنا الممتع حادثة غرفة الغسيل ودوامها، ويؤكّد إقرارنا بالحادثة الجميلة علامة على رابط يربطنا ويُلزمنا ويفرحنا. وحين تمدّدنا في الفراشين القريبين، وأكمل حولنا أحاديثهم من فرغوا من الرواح إلى المطبخ أو إلى الحمام، وتمطّوا على باب الشرفة المطلة على الزرع وشجر النخل، وأصاخوا إلى الزيزان، وتماروا في زجاج درفتي الباب – فحصت عن حيلة تمكّنني من وصول يدي إلى موضع من جسم سناء، من غير تنبيه المتحلّقين الذين يعلوننا ويطلون علينا وهم جلوس. وكان عليَّ شد طرف اللحاف الذي ألتحفه إلى طرف لحافها وتعمّد خلط الطرفين، والتستّر بامتزاجهما وضياع حدودهما، فأبلغ بأصابع يدي الموضع الذي تطول إليه. وهذا يسير. فالفرق بين الفراشين يقل عن الشبر. واللحافان يفترقان، في محالّ، من غير ترتيب، ويتكوّمان الواحد فوق الآخر في محالّ، فلا يحسب أحد من الساهرين الموشكين على النوم، وإن طال سهرهم، أنّ المطابقة واجبة بين اللحاف الواحد وبين الفرشة الواحدة، وأنّ فوضى التداخل مشبوهة أو غريبة.

وقبل أن يستلقي واحدنا تحت اللحافين ونمدهما علينا، أثار استنكارُ أمّ جمال وتذرّعُها الخافت بحرارة الجو وتابعها عمّي الذي يزرب عرقه مع طلائع الحر، على قوله في حاله، وضحكُ مها الساخر والمتشفّي، خوفيَ من ظهور انتظاري المرهق ساعة النوم. ودعاني الخوف إلى اصطناع القلق وضعف الرغبة في النوم حالًا. فجلستُ وأنا أقول أنّ الوقت مبكر والجوّ متقلّب، ويحسن بي إرجاء نومي بعض الشيء. قلت هذا على سبيل الاقتراح، ورجوتُ ألّا تحمل سناء كلامي على الصدق. فلم يعقّب على قولي، مواربة، غير عمّي الذي ابتسم عابرًا، ولنفسه، وهو يتمّ كلامه في ما قال إنّه خطبة أخيه وتعثّرها. وانقلبت سناء واستقرت على جنبها، وأولت وجهها أختها وأدارت ظهرها لي. فرفعتُ لحافي فوقي وتعمّدت حذْفَه إلى جهة سناء وخلطَه بلحافها، وملتُ برأسي على الوسادة وأنا أراقب سحن من حولي وملء رأسي حشوة أصوات

المتحدثين. وصبرتُ وقتًا متقطعًا أغمضتُ في أثنائه عينيّ وفتحتهما مرات. فأوجعتني جفوني المتشنّجة، وأقلقني سكون سناء واستواء ظهرها، تحت قميص بيجامتها الموروب والمرفوع، على وضع منحنٍ ثابت أوحى لعينيَّ الزائغتين بدخول سناء في النوم. وأدركتُ من غير دليل أنّ إصرارها على إدارة ظهرها وإقحام وجهها في مخدتها إشارة غامضة إليَّ. وانزلقت إلى خدر النوم وأنا أفكّ معنى إشارة سناء، وعدت، مستهولًا، إلى إدراكي ويقظتي. وقدّرتُ أنّ وقتًا انقضى على غيبتي، وآن وقت رواحنا، عمّتي وأنا، إلى بيتنا، وأنّ النوم أخذ سناء إلى وراء ناماتها وحيث لا أطالها، ولا تعرفني ولا أعرفها إلّا بعد تبدّد المنامات. وانتبهتُ إليها وهي تترك استلقاءها على بطنها إلى التمدّد على بطنها. وتذرّعت بانقلابها، فاختلجت جفونها وانشقّت عن بياض عينيها المحبوستين، وكبتت لائحة ابتسامة وعادت إلى وضع جسمها الذي كانت عليه، وعلت أنفاسها على شاكلة زفرات نبّهت إليها أمها وعمّتها فاطمة.

وأطبقتْ عيناي وأطبق رأسي على المياه ترتفع ولا رادّ لها في حقل شاسع تكسوه سيقان نباتات طويلة، وأنا أطفو على صفحة المياه وأسبح بين رؤوس النباتات وجذوعها، فلا أبتلّ ولا يبقى من المياه وأثرها إلا سيولتها وانسيابي فيها واضطراب الفرق بيني وبينها. وهدهدني دخولي المياه الفاترة واستلقائي في حضنها العريض والصافي، ثم خروجي منها طوعًا وملئي رئتيّ من طبقة هواء بسعة صفحة المياه. وعلى الشاكلة هذه، ترجّحت بين طوف رقيق على السطح وبين غوصٍ لا يكاد يمسك التنفس. ولم أكن في تمام إدراكي ويقظتي حين مددت ذراعي تحت ركام اللحافين، والتمست بأطراف أصابعي، في ثنايا القماش وشعابه، الطريق إلى الموضع من جسم سناء الذي استقرّ صباح هذا اليوم في حضني وملأني شوقًا إلى جسمها ووجهها. وانتبهت بعض الشيء، وأنا معلّق في ضباب، إلى لمسي لوح ظهرها الصلب. وأجابت اللمس الأول، قبل أن تميز أصابعي طبقات الثياب، طرف قميص البيجاما الخارج من مغّيط اللباس التحتيّ ومغّيط بنطلون البيجاما، وبين هذه رقعة جلد نابض، أجابته بلزِّ الموضع وتقريبه من يدي الملتمسة. فشرعتُ في ثني ما يحف بدائرة جلدها العاري ويتيح لراحة يدي وأصابعي الفحص عن مسام الجلد ونتوءاته الدقيقة، وتعقب انخسافات الخصر واستدارات تتمّاته نحو البطن والفخذ أو نحو الإلْيَة المزدوجة. ولا أظنّ أنّ سناء أعانتني على عملي، إلّا أنّه سرعان ما وسع يدي

الرواح والمجيء على فسحة جسمها بين ظهرها وأعلى فخذيها من الخلف، والانقلاب إلى بطنها البعيدة. وعريت الفسحة هذه من حاجز يعترض حركة اليد والأصابع، أو يتوسّط بين الجلد المتحفّز وبين اللمس، فكانت مجالًا لا حدّ لانبساطه ولا لمداه.

ومنذ تلك العشية، تعاهدنا سناء وأنا من غير كلمة واحدة على العود على هذا البدء في كلّ مرّة جمعتنا المصادفة في بيت واحد أو نمنا تحت سقف واحد.

الفصل الرابع

حال اجتياز عتبة الحجر العالية، وراء بوابة الدار الكبيرة، المقشورة الطلاء البالي والموصدة على الدوام، يضع الخارج من دار بيت جدّي قدميه على مفترق طريقين يفضيان إلى أماكن مختلفة. والعالمان اللذان يضويان هذه الأماكن يفرّقان بينها تفريقًا يدركه تارك الدار من غير تردّد، ويسري في رسوّه على كعبيه وتحفّز عضلات بَطَّتَيْه، وفي انقباض رقبته وكتفيه عند تلفّته يمينًا، صوب السوق والسرايا، وقبلهما سبحة من العلامات، أو إلى الأمام، صوب بيت خالي الشيخ، وقبله الساحة والحسينيّة وقبرا الشيخين الفتيّين. والطريق الأماميّة تزدوج اثنتين: واحدة تؤدّي إلى بيت خالي وحيّهم الغربيّ، وهو يقتصر عليهم، وثانية تنعطف إلى الحيّ الجنوبيّ بعد سبعة أو ثمانية بيوت واطئة ومن غير واجهات، وبعد مفترقين يفضيان على خلاف التوقّع إلى أربعة زواريب مواربة وعلى حدة. وتستقلّ الطريق المنعطفة جنوبًا بأهلها وعلاماتها وتعرّجاتها، وتلحق بها الشطر السابق الذي خلّفته وراءها واشتركت فيه مع التوجُّه على بيت خالي. فأدرجته في سياقتها هي، وانتزعته من التسلسل والجوار اللذين يصلانه بقبلته السابقة.

وتفضي الطريق الأماميّة، بشطريها المتواطئين، في محطتها الأخيرة إلى بيت عمّتي، أخت جدّي، وعمّة أبي وأعمامي وعمّتَي. وعمّتي لا اسم تعرّف به في معظم الأحوال والأوقات التي تذكر فيها. وهي ليست العمّة الوحيدة. فثمّة عمّة ثانية، أصغر سنًّا، تزوّجت في بلدة صغيرة وقريبة، لا تُذكر ولا تُزار إلّا في الوفيات، وحين دعوة جدّي إلى الصلاة على جثمان الميت أو إلى إقامة صلاة الغائب. ولا تفتقر عمّتي الأولى إلى اسم معروف وشبه مكتوم، بديعة، ولا إلى

نسبة أمومة. فهي، حين يقال بيت عمّتي، ليست أمّ واحد من شبابها الخمسة الذين ولدتهم طوال عشرين عامًا وتوفّي بكرهم وهو ولد لم يبلغ العاشرة، وترك أثرًا في كنية والده، زوج عمّتي، الذي لا يسمّى إلّا به. فهو أبو أسعد، ونُسي اسمه تحت نسبته إلى ابنه وتعريف ابنه إيّاه. وتقيم عمّتي في ختام الطريق المتعرّجة التي تبلغ منزلها أو منازلها، أي منازل زوجها الموروثة والخاوية، بعد تعرّجات كثيرة. وقبل أن تؤدّي الطريق إلى الديوان، وهو اسم المحطّة، تبتدئ بمحطّة أولى، بمحاذاة البوّابة، تلي دار عمّي الشيخ والخربة التي لم يكتمل بناء جدرانها، ويحبس عمّي بغلته في حجرتها الوسيطة. وهي أولى إذا استثنيت دار عمّي اللصيقة والتوأم، لأنّها الأقرب مكانًا إلى دار جدّي، ولأنّ أهلها من غير الأقارب يتردّدون، قبل غيرهم، صباح كلّ يوم إلى دارنا. فهم أوّل الزوّار وأثبتهم على المداومة. وتقارنهم عمّتي فاطمة بالساعة ودقتها وانتظامها. وتوافقها أمّها على ملاحظتها. والاثنتان لا تقولان هذا عن إعجاب خالص، فهما تمزجان الإعجاب بحيرة مضمرة ينمّ بها رفع الحاجبين وجملة معترضة، «لو انهن شغلتهن وعملتهن يتطلعوا بالساعة ما إجوا عَ التكة هالأحد!» وسمة فارقة أخرى هي اسمهم. وهم، حقيقةً، صبيتان تخطّت البكر العشرين بثلاث سنوات أو أربع، وبلغت الثانية الحادية والعشرين قبل أشهر قليلة. وتتخلّل سنوات العمر مخاطبات الأهل في الرواح والمجيء. وهما تُعْلِمان فرق السنّ بينهما بولادة الأخ البكر، حسن، الذي يتوسّط البنتين ويعرِّف العائلة من طريقه وطريق أبيه، بيت بو حسن كريم. ولم ينسب الرجل ولا أولاده إلى اسم عائلتهم، جمّين، إلّا بعد نحو ثلاثة عقود وفي معرض البحث عن سكن البنتين بجوار المدينة الكبيرة، وقد أمستا في الأثناء جدّتين. وإلى البنتين، خديجة ونازك، وأمّهما الضخمة الجسم والعوراء العين اليسرى، هناك أخت ثالثة، نعيمة، ربما في الثالثة عشرة، لم أرَها وحدها في الدار ولم تتردّد إلّا في رفقة إحدى اختيها، حين غيابها مضطرة على الأغلب.

وتوقّت خديجة ونازك مجيئهما، وجلوسهما على حرف اصطبل الحجرة العالية وانتظارهما وابتسامهما، على الدقيقة التي تلي رفع الفرش واللحف والمخدات وترتيبها في بيتها وراء الستارة. وتجلس الواحدة، الممتلئة الجسم والخدين الحمراوين والسمراوين والبارزة الصدر والردفين في ثوب خشن سميك وغامق الألوان، في مقابلة الأخرى، الأقرب إلى النحل وإلى البياض

والشحوب في ثوب فاتح وسابل. وفي الأثناء، أي قبل قدومهما، ينهض أهل الدار من النوم. فيتناولون، في أوقات تتفاوت، فطور الصباح ويغسلون وجوههم ويلبسون ثياب النهار. وبعضهم يدخّن سيجارته الأولى قبل الرواح إلى العمل، ويشرب قهوته ويستمع إلى الإذاعة. وقد يكون جدّي وقتذاك رجع من السوق ومعه لحم الذبيحة الأولى، على قوله متفاخرًا وراضيًا عن نفسه وساخرًا منها وراء نظارتيه. فتدعو فاطمة، آمرة أو حازمة، بنتيْ بو حسن كريم إلى اختيار كرسيّين واطئتين تقعدان عليهما أو تدعوهما إل الجلوس على طراحة في صدر المكان. وتثنّي أمّ جواد، جدّتي، على الدعوة بصوت ضعيف يبقى في صدرها، فتحمل عليها فاطمة ضعف الصوت وخفاءه:

– اللي بيعزم الناس بيعلّي صوته مش بيبلع نصه، يا أمّ جواد!

فتضحك الأختان. وتردّ إحداهما على عمّتي، فتخلع شحّاطتيها وتزحف سريعة صوب جدّتي، وتقبّل يدها المتاحة التي لم تسعفها المفاجأة على إخفائها وراء ظهرها في حركة تهريب ولّادية ومرتبكة غالبًا ما تستدعي نظرة مشفقة من فاطمة. وتقول:

– حاشاك يا بنت سيّدي!

وقد تفتتح الاثنتان دخولهما بخلع شحّاطتيهما في الإسطبل، والتوجُّه إلى جدّي الساعي في عجلة إلى الوقوف ليتّفق وقوفه المستقيم مع بلوغ وجهَيْ البنتين مستوى كتفه في قمبازه، ومع لثمهما لثمًا خفيفًا وشبيهًا بالإيماء أعلى ذراعه أو أعلى صدره. فيجيب جدّي الشيخ التكريم بوضع يده على صدره، ويتفادى النظر إلى الوجهين قبالته وكأنّه يتهيّب أن يرى نفسه على صورة القامة المهيبة التي يصنعها، على ما أتخيّل، إيماء الصبيّتين. ويلي دور جدّي دور جدّتي التي تحاكي حركة القيام والوقوف، وتعجز عنها وتعوّضها بلثم رأس خديجة ورأس نازك، والدعاء لهما ولأهلهما بالبركة والرضا. وترجع خديجة ونازك من حيث قدمتا، في معظم الأيّام، وتقتصر زيارتهما الصباحية اليومية على السلام والسؤال عن حاجة تلبّيانها، وليس في وسع بيت جدّي أداؤها من غير مساعدة. فالخَبْز مرّة في الأسبوع طوال ثلاث ساعات أو أربع، منذ الخامسة فجرًا، لا يقدر عليه أحد من دار جدّي. وتتولاه الأختان فرحتين وملوّحتين بذراعين مرنتين وطويلتين تتناقلان عجين الرغيف المستدير

والمتمادي في التدلي والتراخي والاستدارة، قبل ترقيقه مع كلّ تلويحة جديدة وارتماء على الذراع الأخرى.

وتتناوب بنتا جيراننا – ووالدهما لم يزرنا مرّة واحدة ولا زرناه، ولم أره غير مرّات قليلة جالسًا على عتبة بيته في الزاروب القريب في ضوء الغروب الشحيح وهو يمجّ سيجارة اللف وينفث دخانها – تتناوبان على حمل جرّة ماء الشرب المنتفخة على تاج الرأس إلى بئر كبيرة، محفورة في منحدر صخريّ إلى الجهة الشرقية من البلدة، تبعد عشر دقائق مشيًا متهاديًا من دارنا، ويتردّد إليها أهل الحارات القريبة. وتعود مَنْ عليها الدَّوْر من بئر العين، وعلى رأسها جرة الفخار البنّيّة، مترنّحة تعبًا، ووجهها كلّه ورقبتها يرشحان عرقًا ساخنا، على خلاف حبّات الماء الباردة التي يتعرّق بها فخّار الجرّة، وتسيل جداول دقيقة وخفية على بطنها المحدودبة. وتنقبض قاعدة وجه خديجة، ونازك أكثر من أختها، حين تقف الواحدة بإزاء البوابة، وتنتظر فتح مصراعيها خلسة لتعذّر إنزال الجرّة، وترفع قدمًا مترددة فوق حاجز العتبة العالي، وتحول دون انحراف ماء الجرة الممتلئة عن توازنه وثباته على الرأس، فتتلوى الواحدة من قدميها إلى المنديل على شعرها وبعض وجهها، تحت وطأة اضطراب الماء ونقله، ويجتاح الفكّين والخدّين والشفتين ألم يكاد أن يفتّت الوجه كلّه، وتنبهر الأنفاس وتتقطّع.

والخَبز وملء الجرّة من بئر العين من الأعمال الأسبوعيّة والدوريّة. وقد يدخل في بابهما دقّ لحم الكبّة والفراكة على البلاطة أيام السوق والتعب وكثرة الطاعمين من المدعوّين والأهل. وينبغي الإعداد لها، والاطمئنان إلى اجتماع ما يلزمها، فلا يتصوّر أن تحضر خديجة ونازك قبيل الفجر والأهل، أي فاطمة أوّلًا، نيام، والطحين لم يُعجن قبل النوم، وبلّان الموقد الجاف لم يجمع ما يكفي منه لتغذية النار وإنضاج نحو مئة رغيف مرقوق، ونحو عشر بقع سميكة فرش عليها الزعتر والجبنة وتؤكل صباح يوم الخبز. فجزء من الزيارة الصباحيّة اليوميّة يُخصّص للإعداد والاستباق. وجزء آخر يصرف إلى مواسم سنويّة أو فصليّة متباعدة، مثل تطيين السطوح وحوافي الحديقة حين انقطاع المطر ودوام الصحو، أو سلق القمح وتجفيفه بعد الحصاد ثم تكسيره، واستخراج البرغل منه على مطحنة حجريّة وبيتيّة توارت مع شيوع المطحنة الكهربائية ومازوتها، ومع استقبالها كمّيّات قليلة من القمح المسلوق لا تتجاوز

الخمسين كيلو. ومثل تنظيف قاع البئر من الأتربة المترسّبة طوال أشهر تتدفق في أثنائها أمطار السنة الفائتة من السطوح ومزاريبها، قبيل منتصف الخريف أو أواخر ثلثه الأوّل.

وهذه الأشغال الموقوفة على النساء لا قِبَل بها لأجسام مثل أجسام نساء أهلي ولا رجالهم. فهنّ، على قول عمّتي نصف المتفاخر ونصف المعتذّر، «بنات مشايخ وأمات مشايخ وأخوات مشايخ بمشايخ، لولا التمدّن... شو أَوْلِتْ الشيخ بيي؟». ولا يفوت من يسمع عمّتي تقول هذا، في معرض اعتذار عن التعب الذي يصيب الشابّتين، ومن يرى نظرتها المستهولة إلى جسميهما الجامحين والنافرين في ثيابهما الضيقة والمزدوجة طبقة فوق طبقة، لا يفوته انكسار قولها ونظرتها. وتعقب الانكسار انثناءة عنق خفيّة تستعيد بها عمّتي اعتدادها بنفسها وبمكانتنا، وتقرّ بنتيْ جارنا البنّاء على فرق مكانتهما، وتقرّنا نحن، أولاد جدّي وأولاد أولاده، على مرتبة ثابتة لا يتهدّدها قمع ولا حسد.

ولم يظهر لا في واقعة، ولا في حركة أو التفاتة، ما ينبئ بشبهة على دوام تردّد خديجة ونازك الصباحيّ إلى دارنا، وتولّيهما عن عمّتيَّ ما لا طاقة لهما به ولا يليق بهما. وليس في حسبان أحد أن يرى إحداهما – زينب المعلّمة، أو فاطمة بنت الشيخ وبنت أمّ جواد، وهذه بنت سيدي صاحب القبر في الساحة – يومًا وهي تتسلّق السلّم الكبير إلى السطح، وعلى رأسها سطل الطين المتمايل مع كلّ درجة عليها أن تفشخ إليها بقدمها في ألشينها السميك والممزّق. وهل يليق ببنت مشايخ، كان مقدّرًا لها أن تكون، لو قبلت الزواج أو لم تمتنع منه، امرأة ابن شيخ، وأخت شيخ واحد على التقليل، لولا مصائد الزمن – المستحبّة في هذا المعرض لأنّها حالت دون تَمَشْيُخ الأخ – أيليق بها أن تثبّت الجرة الضخمة على أعلى رأسها، وتمشي مشي الناقة وتتهادى مثلها وتوقّع باهتزاز صدريها وخصرها وردفيها وبطنها ومؤخّرتها تهاديها البطيء، فلا يسع الرجال والفتيان والأولاد وبعض النساء صرف أنظارهم الدبقة عن أشيائها هذه إلا غصبًا وزورًا؟ والأغلب على الظنّ أنّ أحدًا لم يدْعُه جموح المخيّلة إلى مثل هذا الهذيان. وقد يكون الخبز أو دقّ لحم الكبّة على البلاطة جائزًا وفي متناول العمّتين. وهو ما لا تأنف منه بنتا عمّي الشيخ عبد المحسن، سكنة التي بقيت في البيت مع أبيها وأمّها وأخيها مهدي، وتقوم على خدمتهم، وجميلة أمّ

سلمان، المتزوّجة منذ عشرين سنة، على رغم ما بينهما من فرق، وغسل الثياب على شاكلة الخبز ودقّ اللحم.

ولكنّ مقارنة عمّتَيَّ ببنتيْ عمّهما لا تخطر ببال أحد منّا ولا ببال غيرنا. وذلك ليس غامضًا في حال المعلمة. وليس غامضًا كذلك في حال فاطمة، أختها الأمّيّة التي لا تستحي بجهلها القراءة والكتابة، ولا تفوّت فرصة تعلن فيها جهلها. فهي تنتخي، على قولها، بطلاقة لسانها وسلاطته على أنصاف البلهاء وأنصاف المتعلمين، على نحو ما تعرِّف معظم من تخالطهم من الأقارب العائدين من المدينة، والمترجّحين، في مخاطبتهم أهلهم وجيرانهم والغرباء وفي معاملتهم هؤلاء، بين عادات اعتادوها، ولم ترسخ بعد، وبين عادات أهلهم وطفولتهم التي لم تمضِ. فهؤلاء يتلعثمون بألسنتهم، وتزوغ نظراتهم، ولا يعرفون أي قدم يقدّمون، وأين يجلسون، ومن يكلّمون أوّلًا ومن يؤخّرون، وماذا يقولون عند الدخول وكيف يودّعون وهم منصرفون... ومن يعلم هذه العلوم كلّها، وهو اسمها المستحقّ عند فاطمة، يستغني بها عمّا تقوم به خديجة ونازك لبيت جدّي ولا تقومان به لأقرب الناس إلى هذا البيت. فلم أرَ يومًا أحدًا من بيت أبي حسن كريم يعرِّج ولو بعينيه على بوابة عمّي الشيخ. وفي الأيام التي تملأ بها خديجة ونازك فيها دارنا بالدخان، ويتردد في أنحائها عسيس البلّان المحترق واشتعال الأغصان اليابسة، أو حين ترابطان في نواحي الدار من بابها إلى سطوح حجراتها، ويخلو المكان للطين والكلس والتبن بأيديهما، وتطفو في الفضاء روائح يوم الحساب، لم يُلقِ أحد من بيت عمّي الشيخ، ولا حتى مهدي، نظرة واحدة على الدار. والأحاديث القليلة والخاطفة التي تتبادلها عمّتاي وأمّهما مع خديجة ونازك لا تلمح لأهلٍ لنا أو لهما من خارج البيت.

والاستثناء الوحيد زائر مقلّ الزيارة إلى دارنا، رأيته مرّة واحدة طوال نحو السنة، إذا جمعت وقت الشهود إلى وقت السمع، هو أبو هادي. واسمه رضا جَمّين، ابن أخت جدّتي التي تُوفّيت وابنها رضا طفل اسمر وغائر العينين الخضراوين في وجه ممتلئ كالبدر، على قول خالته، ويمشي متمايلًا خطواته الأولى، وأخته سكنة ترضع بشرهٍ لم يفارقها حليب أمّها القليل، تقول جدّتي وتعزو مسلِّمة ومتحسّرة موت أختها المبكر إلى ضخامة ولديها، وتلمح بين وقت ووقت إلى السلّ الذي أصاب أختها وكان أودى بوالدها. وكان رضا أبو

هادي وحده من زوّارنا يرسل إلى خالته وأولادها يُعلمهم بنيته الزيارة عصرًا، قبل ساعتين أو ثلاث من الموعد. فيعمّ أهل الدار، ما عدا جدّتي وجدّي، اضطراب المفاجأة السارة والفرحة الوشيكة، ويصيبهم قلق ظاهر يدارونه بالمزاح، وإبداء لامبالاة على خلاف تهيُّب يسرّهم الشعور القويّ به ولا يريدون كتمانه. فالزائر الموعود هو وجه البلدة الكبيرة، أو أحد وجهيها، ولكنّ الأهل يغفلون الكثرة، ورأس عائلات جزئها الشرقي والجنوبي العريق والأصلي، على قول بعض نسّابي الجزء هذا. وهو، على رغم بعده وعلوّ مكانته، ابن خالتي. ونحن كلّنا أولاد خالته. والفرق الصغير الذي يعكّر الرابطة الحميمة، وتبنّينا غير المتحفّظ له، هو اسم أسرته وانتسابه إليها.

فعلى يقين أهلي، وفي المرتبة الأولى فاطمة، أبو هادي ليس إلّا صناعة أمّه، خالتنا، وحدها، وأهل أمّه وحدهم. ولولا الصناعة الحميمة والفريدة هذه لما تحلّى أبو هادي بشمائل أهل الإمرة والمناصب الموصوفة: العين اللمّاحة، والعقل البارق، والمهابة الطاغية، واللسان القاطع، والقريحة الفياضة، والحياء الرقيق، وأدب مخالطة أعيان البلاد المترامية. وينسب الأعمام والعمّتان، وقد يشاركهم تمارين التنسيب والدهم، من طرف لسانه وعينيه الخابيتين وراء زجاج نظارتيه، مزايا أبي هادي، واحدة واحدة، إلى جذوره الأموميّة. ويقارنونها بنظيرها الذي يفتقر إليه آل صهرهم، والد الولد النجيب الذي يعتزّون به، وينظمون الأهازيج والردّات الحربيّة في تكريمه وحبّه. وتنقلب هذه التمارين مباراة تدور في آخرها دوائر التبخيس والازدراء على عائلة صهرنا. وصهرنا نفسه، غداة وفاة خالتنا، تزوّج بنتًا من عائلته فولدت له نكرات. ومن أين لهؤلاء سعة المجالات التي يجول فيها ابن خالتنا، سليل العدد العظيم من المعمّمين المسافرين وطالبي العلم والاجتهاد من جهة خالتنا وأبيها في مشارق الأرض ومغاربها، بينما هم، هؤلاء، لم يسافروا يومًا مترًا واحدًا وراء أبعد سوق يبيعون فيها أحذيتهم المصنوعة، وأبعد سوق على مرمى حجر مقلاع من البلدة الكبيرة، وذلك قياسًا على حقول الحنطة والقطن هنا أو بساتين النخل هناك، حيث لأبي هادي مواعيده المقرّرة والمنتظرة.

وهو، في كلّ مرّة، أو في المرّة الأولى التي حضرت فيها مجلس ابن خالتي، على ما حملتني عمّتاي على القول واستحسنتا قولي، يحدّث أوّل ما يحدّث عن أسفاره البعيدة وعن كبراء الناس الذين التقاهم وحادثهم، وأجمعوا

معًا على أمور عظيمة، واختلف وإياهم على أمور عظيمة أخرى. وهذا الزائر، ما إن يدخل دارنا من البوابة الصغيرة داخل البوابة الكبيرة، في بدلته الزرقاء السماويّة وقميصه الأبيض الشفاف وكرافتته الحريريّة الجامعة الكحليّ السادر والأحمر الخمريّ، حتى تنفجر ضحكته المجلجلة وهو يسأل: ألم يحن الوقت ليكبر الباب الواطئ مع قامات الناس؟ ويقول إنّه يمرق به منذ أربعين سنة، والحساب اليقين عند خالته التي شهدت ولادته بينما هو لم يشهدها على ما يذكر وعلى ما قيل له. ويستقبل الأهل ضيفهم الصاخب وقوفًا ومجتمعين، كمن يشيّع وفدًا أو كمن ينتظر عائدًا من هجرة طويلة. وتوقّعت أن يعقب ظهور أبي هادي، وإقباله وهو يثبّت نظّارتين بنّيّتين كبيرتين على أعلى أنفه ويبتسم ملء أسنانه سعيدًا، لقاء بالأحضان والعناق. وعلى خلاف توقّعي، لم يقترب أحد من القادم، ولم يخصّ هذا أحدًا بالتفاتة أو سلام. وانشقّ الجمع الصغير عن طريق مشاها الزائر قاصدًا الحجرة الكبيرة التحتانيّة، وسأل بصوت يستخرج منه التبغ صدى مخنوقًا:

– الأَعْدِه مثل العاده بجبل الشيخ؟...

ويقف بإزاء الباب. وينعطف بنظره يسارًا، ويرى جدّتي أمام باب الحجرة العليا منحنية وعلى رأسها عباءتها السوداء الواسعة وبقربها جدّي حاسر الرأس. فيغشى وجه رضا جِدٌّ قاتم ومخيف، روت عمّتي أنّه وجهه حين تحضر زوجته، ويخطو صوب خالته وينكب على يدها يريد تقبيلها، فتُهرّب يديها إلى كتفيه ثم إلى رأسه، فتلثم الشعر المجعّد والمصفّف إلى الخلف، وتشعِّث منه خصلتين يختلط شيبهما بسوادهما، ويطفو دمع واجف، يكاد لا يُرى، على عينيها الحائلتي الزرقة والرماد، ويكشف انفراج فمها عن صف أسنانها الكبيرة والنافرة. فتقول فاطمة:

– هايك بيفرحوا يا إمّي بالغيّاب؟ شلحي العبايه خلّي بوهادي يشوف الفستان الأزرأ الموتّس تحتها... وانتبهي غطا راسك يزحط ويفرجي شيبة الشياب!

وأكمل أبو هادي طريقه وقد استعادت ملامحه بعض انبساطها. ومشى الأهل وراءه. وأخذتنا فاطمة، أنا ومها، جانبًا وأوصتنا بتبليغ بعض أهلنا خبر الزيارة والدعوة إلى الالتحاق بالحلقة. وأمرتنا بالاحتماء من الشمس وتجنّب ضربتها ورش ماء قليل على رأسينا، بينما عادت جدّتي إلى مجلسها وربّما إلى

قيلولتها واجمة، وتردّد جدّي قبل أن ينضمّ مطرقًا إلى الحلقة المنعقدة في الحجرة التي تضج بالأصوات المتلاطمة.

وغداة زيارة أبي هادي الطويلة، استقبلت فاطمة زائرتي الدار الصباحيتين بخبر زيارة البارحة. وأرفقت الخبر بجملة غامضة، على رغم اشتراك جيراننا وابن خالتنا في اسم العائلة: «سأل كيفه أبو حسن كريم وكيف الصبايا». فهلّلت الصبيّتان للخبر، وصمتتا بعض الوقت وغالبتا دمعًا حبيسًا. وقالت الواحدة للأخرى، في وقت واحد: «لح يفرح كتير بس يعرف بيي». وتسابقتا على سؤال عمّتي: «ألله يطوّل بعمره ويخلّيه أبو هادي... كيفه؟ نشا الله بخير؟ بتكون فرحت كتير بنت سيدي!» وقرّرتا: «سبحان ألله! بيخْلئ كيف ما بدُّه! وبيعطي شو ما بده! وأبو هادي عطا الكريم سبحانه!» وبعد دقائق من تركهما الدار، طرقت الباب أم حسن كريم ودخلت بخطو فاقت سرعته سرعة خطوها المتثاقلة والمناسبة حجمها الكبير، على وصف عمّتي. ورأتها هذه، أو سمعتها، على ما روت من بعد، وهي بين المطبخ وبين باب الحجرة العليا، فتمتمت لنفسها، على مسمع منّي: «ألله يستر! شمّت أم حسن خبر ابن العيله من خديجه ونازك! أولِك سمعت بالورب متل ما بتشوف بالورب!» وأتمّت، وهي تقف مواربة، بعضها وجهه إلى الزائرة وبعضها إلى الباب القريب وتلقي نظرة باردة ومستطلعة إلى أم حسن، ولقبها على لسان عمّتي تارة المحدلة وتارة الأعور، وفي كلتا الحالين خفية وهمسًا – أتمّت: «مع هـَ الحجم كلّه وهَـ الحَوَل الدجاجات بيفزّوا... وج الخير!».

ودار بين عمّتي وجارتنا حديث على الواقف، على رغم دعوة عمّتي للزائرة المتجهّمة إلى الدخول والجلوس مرّة أولى وثانية، اعتذرت جارتنا، على ما سمّتها عمّتي، عن تلبيتهما بعد مضيّ بعض الوقت على تلفّظ فاطمة بهما، وكأنّ المدعوّة لم تسمع أو كأنّها لم تحمل الدعوة في المرّتين على قدر من الجدّ لا يقبل الإرجاء. وكان كلام المرأة متدافعًا، وصوتها الخارج من أنفها والمتقطّع على إيقاع تنفسها عاليًا، قالت عمّتي فيه وهي تروي خبر الزيارة إنّه متنبِّر. وحسبت وأنا أسمعها تروي رواية بعد رواية أنّها تريد وصف أم حسن كريم كلّها بالأنبرة أو القنبرة لا أعلم. وتخلّل ما بدا شكوى وعتبًا دعاء كثير لأبي هادي بالصحّة والعزّ والبقاء على عهد سيدي وبنت سيدي. ومن أبواب خفيّة أدخلت أم حسن بنتيها وهي تسوّي غطاء رأسها على شعرها ورقبتها وتفكّه

وتملّس طرفيه وتعيد لفّه، في أثناء حديثها. فقالت إنّ خدمتهما وتعبهما لوجه الله وحده، ولكرامة وليّه وبنت وليه، وأبو هادي حفيد وليّه. وزادت، بعد تنهّد حار، وكرامة الشيخ أبو جواد. فسألتها عمّتي، وقد ظهر عليها ضيق من أعياه الجواب، ويودّ لو ينفجر جوابًا عن حرجه: «نحنا مأصّرين؟ شو كان لازم نعمل وما عملنا؟» ولم تُجب أم حسن كريم، أو لم يسعفني انتباهي على سمع ردّها، وأنا أرى فاطمة أشبه بجلبوط، على وصفها نفسها من بعد، سلَّم بمعس المحدلة جسمه الضئيل والعاري. ولم تتخلّل تعقيبها الطويل على انكماش خدَّي عمّتي، وجمود ذراعها اليمنى معلّقة في منتصف حركتها، لفظة تقصير أو مقصرين، على خلاف ما انتظرت وتوقّعت. فرجع كلامها إلى أفضال أبي هادي، وإلى بركات جدّه من طريق بنتيه، وحكمة سبحانه الذي حبس الأولاد الذكور عن وليّه. وقطعت عمّتي ما قالت إنّه قراءة مجلس عزاء حاصرتها به جارتنا، وقالت راجية وفظّة:

– يا أم حسن كريم! نسيتي خالي ألله يرحمه! كلنا منبكي بالتعزية، ودم مش بسّ دمع! وسبحانه من كرمه وأريحيته استعجل ياخد لعنده جدّي وخالي وإبن خالي... أعطانا رجال كتير، الواحد بيسوى ميّه، ومثل شأفة البدر بس نحنا مش حلوين لأنه الحأ علينا، وهوه أخد اللي أعطى وما حدا إله عليه شي... ليش مستعجلي علينا؟

فحلفت أم حسن بالأولياء والعلماء من أجدادنا أنّها لا تقصد إلا تذكير أبي هادي بما هو سيد العارفين به، أي زيادة عدد نواطير الكروم في ناحيتنا، وحراس البلدية في الليل في حاراتنا، وأبو هادي لم يطمئنّ على خالته ّ مرّة واحدة إلّا وأرسل إلينا أنّه لا ينسى سلمان ابننا الثاني، وأبو حسن أدخله المدرسة، واستغنى عن شغله معه في العمار بعدما نصحه أبو هادي بذلك، وأجبره على أخذ الشهادة وهو نصف رجل سنًا أو أكبر، في انتظار الفرصة مع أنّ سلمان لا تنقصه الشطارة ولا الرغبة في العلم ويسأل عن أولاد بنت سيدي في المدارس ويتمنى أن يكون مثلهم.

وفي أثناء ما سمّته عمّتي ردحة أم حسن، تغيّر وجه عمّتي. فاتّسعت عيناها وتقوّس حاجباها حين جمعت الجارة قرابتها بأبي هادي وقرابتنا نحن به، وكأنّ الجمع هذا من الغرائب التي لم يسبق أن سمعت فاطمة بها. وظلّلت سخرية خفيفة شفتيها بعدها. والأغلب أنّها استعظمت تأمّلات المرأة الضخمة، وذات

الوجه العصيّ على الفهم والتأويل، في معتقدات المذهب وعلل الاستخلاف والتوريث. واستدلّت عمّتي من غير شكّ بإغفال المرأة خالي الشيخ من ذرية والد جدّتي، في معرض تأمّلاتها، على خفّة هذه التأملات. فلم يسعها منع نفسها من انفجار حرصت على ضبطه، ولقّنت محادِثتها درسًا في الإيمان والبقاء والعزاء والصبر والتسليم، على ما نبّهت هي في روايتها المشهد لاحقًا وشرحها حوادثه. وإلى ذلك الوقت، لم تدلّ ملامح عمّتي على تيقّنها من فهم ما تريد أم حسن كريم من زيارتها. فترجّحت بين تقييد دعوى الاشتراك في أبي هادي وبين ردّ تهمة التقصير في حقّ جيراننا.

وحسبت أنّ الزائرة غير المتوقّعة تريد الانتخاء بقرابتها علينا، أو أنّها تمهّد لأمر تبيّته قد يتعلّق بابنتيها ولم يظهر طرف أذنه بعد. والمحيِّر أنّ الغرض الأوّل لا يستدعي هذه الطريقة، طريقة أم حسن، في إظهاره. فشراكتنا في أبي هادي قد لا يرحّب بها من يحمل أبو هادي اسمهم ولا ينكر أحد أنهم عشيرته، ولكنّ أحدًا لا ينكر أنّ خؤولته ترفع مكانته وتتوّجها بسرّ باهر يؤيّدها. والغرض الثاني لا يشبه بيت جيراننا ولا العلاقة القديمة والغامضة التي تربطهم بنا وتربطنا بهم. وما فُهم من كلام المرأة أنّه استقواء بواجبنا تجاههم، واحتجاج على إخلالنا نحن به، ومطالبة بالتزامنا به من جديد وتثبيته، حيَّر عمّتي وأقلقها. فما نراه كلّنا، من ابن عمّي أبي جمال الأخير والرضيع على رغم بلوغه السنة ونصف السنة، إلى أبي جواد وأمّ جواد، ذروتنا الزمنيّة، جزءًا من طبيعة الأشياء والحوادث هو قدوم خديجة ونازك، ودخولهما علينا كلّ صباح، وسؤالهما فاطمة عمّا عليهما غسيله، أو خبزه، أو نقله وجرّه وملؤه اليوم أو غدًا أو بعد غد أو بعد أسبوع وشهر، وقيامهما به في الأحوال كلّها، ومن غير إرجاء لعلّة من العلل. فماذا يحلّ بنا إذا اضطرّت الصبيّتان القويّتان والباسمتان، لسبب غير مقدّر مثل المرض أو الزواج برجل ليس من الحيّ ولا من البلدة على ما هي حال الرجال المتاحين، أو مثل الحاجة إلى القيام محلّ الأمّ العاجزة أو اللحاق بالأب أو بالأخ إذا دعت الضرورة أحدهما إلى السفر والهجرة، ما حالنا إذا تركتا قيامهما بأركان معيشتنا والسهر علينا؟

والسؤال شغل فاطمة، وشغلنا كلّنا بعض الوقت. فدعا ابن عمّي جمال، وهو يكشف عن أسنانه كلّها ويلوي فمه بالورب من غير أن يصنع ابتسامة، على قول ابن عمّي مهدي فيه، ويأكل نصف كلامه، دعا إلى تخيّل امتناع

جارتينا من المجيء ظهر يوم السوق، الساعة الحادية عشرة، والتناوب على هرس نحو نصف كيلو اللحمة، لكيلا يقال الأوقيّتين ونصف الأوقيّة استصغارًا، من لحم الخروف الطري والمقتطع من السلسلة أو الرقبة أو الكتفين، أو إلى تصوّر تخلّفهما فجر السبت الباكر عن التسلل في غلس العتمة إلى حيث كوّمتا مساء الجمعة، البلّان وأجزاء الأغصان اليابسة وبعض الحطب، وإلى المطبخ حيث عجنتا الطحين وقطّعتا تلك العجينة قطعًا متساوية، وصفّتاها على قماشة الشاش في قاع اللكن وغطتاها بقماشة سميكة طوال الليل. فلا تنظف اللحمة من العروق البيض الدقيقة، ولا يبلّ برغل ناعم أبيض ولا خشن أسمر بماء تمهيدًا لمزجه باللحم الزهريّ الطريّ. ولا يوقد تنور، ولا يسخن صاج، ولا يلوح بمخدة مليئة بخرق القماش المقصوصة بالطول وعليها العجينة المستديرة والمرقّقة والمتهدّلة الذيل. فماذا يبقى من الحياة ومعناها ومتعتها إذ ذاك؟ يسأل جمال وكأنّه يزف إلى سامعيه خبرًا سعيدًا، بينما يزداد فمه اختلالًا. وإذا لم تتردّد في فضاء دار الشيخ أبو جواد أصوات طَرْق المدقّة الخشب على البلاطة المعمّرة والمقعّرة الصفحة في اليوم الموعود، واستبدلت الكبّة النيّئة وتوأمها الفراكة باللحم المشويّ أو الكفتة المشويّة، على ما يصنع أهل البيوت المتواضعة؟ وهل يبقى طعم للحياة إذا حلّ محلّ المرقوق خبز الحاج محمود الكماج الرخو وأرغفته الباهتة المكدّسة على نحو بذيء في كيس نايلون زَلِق المنظر ومن غير رائحة؟

والاستخفاف الظاهر بنبؤات جمال القاتمة، وهو يلوح بفظائع وويلات يفعلها هو وغيره في البلدة القريبة من المدينة الكبيرة حيث يقضي معظم وقته، لا يتستّر فعلًا على خشية من خسارة خديجة ونازك وحملهما عن عمّتي أعباء لا قِبل لهما بجزء ضئيل منها. فتداولت فاطمة وزينب – وإليهما رضا العمّ الشاب، على رغم منه، وأمّ جواد، على حدة وتقطّع، وجدّي الشيخ مستمعًا من بعيد ومعلّقًا بحركات رأسه وإخراج وجبة فكه الأسفل – تداولوا في المسألة همسًا، وفي خلوات عابرة تنعقد مصادفة حين غَرفِ ماء من البركة، أو عند تفويح كؤوس الشاي على قدم الجدار الفاصل بين الدارين، أو تعليق قطع ثياب مغسولة على الحبل. فتسرّ العمّتان الواحدة إلى أختها بكلمات قليلة، أربع أو خمس، تتمتم بها وهي حريصة على ألّا تتصوّر كلماتها في أوضاع فمها وتلفظها بها، وعلى ألّا يتصفّح الوجه الوجه. وتمضي الواحدة وكأنّها لم تحدِّث بشيء

أحدًا، وليست الكلمات بقايا الكلام التي تجري على لسانها إلّا شيئًا من محادثتها نفسها فيما يشبه منامَ يقظة أو وسواسًا استقل عن رقابة الموسوس به.

وبعد نحو أسبوع من المناورة، وقبيل الانفضاض عن مائدة الغداء وفي أثناء نقل الصحون والجاطات إلى المطبخ، بادرت فاطمة إلى شرح الحال من غير أن تتوقّف عن الرواح والمجيء البطيئين. فقالت إنّها تنوي تخفيف عبء البيت وأشغاله عن بيت أبو حسن كريم، والاستعانة بين وقت وآخر ببنتي الجمعاني، جارنا الإسكافي، نجمة ونورة، الفتيتين والشقيقتين اللتين تتحدّث الألسن بحلّتيهما وصفتيهما وتشهّر بهما، ولا تكذّب هيئتهما خبرهما الذائع. ووجم أبو جواد وجدّتي معه، وراقبت زينب خفية الانفعالات على الوجوه. ولمّا عادت فاطمة من المطبخ، ورأت أمّها وهي تضع راحة يد على معصم اليد الأخرى، تحت الطاولة، وخمّنت في الحركة السريعة تسليمًا مكرَهًا ومنكِرًا لما تعلنه، طاف على وجهها غضب تصفه جدّتي بالمسمّ فتقول لابنتها المنتفضة: «إيه! نسمّي بعد! شو لح يبْئى منك!» وتسميه زينب بالاسم نفسه على وجه معنى آخر، فتقول: «حاج تِنْسَمّي يا اختي!». فوقفت فاطمة في مكانها، ووجهها إلى الطاولة وإلينا، وبين يديها آنية معدنيّة مستديرة، وتوجّهت إلى أمّها المطرقة والنادمة ربّما على ما بدا منها، وقالت:

– شو بعمل... يا بنت سيدي! شو بدهن يضلوا الناس يجوا بكير، أبل ما اسم الله ولادك وولاد ولادك يصبّحوا اللي خلأهن، ويحطّوا ما بَدِّش أول شو على حافة السطبل، ويبرموا رأبتهن تيسمعوا منيح شو بدها فاطمة وزينب وأمّ جواد منهن، ويفرحوا ويزلغطوا لأنّه حسابهن وشغلهن وتعبهن وتعتيرهن لوج أبو هادي وألله يرحمها خالتي، وألله يطوّل بعمرك يا أمّي، لوجّك؟ وبعدين؟ حأّها أم حسن كريم تسأل عن ابن اختك، وعن شغل ومعاش البلديه!

ولم تُخرج حدّة فاطمة جدّتي عن إيثارها تمتمة متقطعة، يطفو على سطحها حرن ولّادي، على قول فاطمة، على مناقضة لسان تقرّ بخوفها من مفاجآته اللاذعة. فردّت فاطمة على فتات الكلمات بدعوة جدّي إلى نجدة امرأته العاجزة عن الجواب، فهو أقدر منها على الإفهام، ولا بدّ أنّهما تبادلا الرأي طويلًا، على طريقتهما، في المسألة، قبل النوم وفي أثنائه وبعده، ما دام لا يسمعهما أحد يتحادثان في أثناء النهار بلغة الناس. وطمأنتنا إلى أنّها عائدة

للتوّ، بعد نقلة الصحون الأخيرة هذا المساء، فلعلّ الوقت يتيح لأصحاب الذهن السريع، واللسان الطلق، فرصة التأمُّل في ما يرونه مناسبًا وقوله. ولمّا عادت لم يبدُ أنّ أحدًا، لا جدّي ولا غير جدّي، أعدّ جوابًا، أو انشغل بمثل هذا الإعداد وحرص على إظهار انشغاله. ولم يُر على فاطمة أنّها تركت لمن لم ينفضّوا بعد عن المائدة موضوعًا يهمّهم ويشغلهم، ويعود إليها رفع الهمّ عنهم والتحكّم فيه. فتفقّدت كدسة الفرش وراء الستارة، ومرّت بنظرها عليها وكأنّها تحصيها وتتثبت من كفايتها عدد المقبلين على النوم في الحجرة العالية. وسألت عمّن ينوي النوم في غرفة رضا، عدا رضا وعداها هي وزينب، من الأولاد، إلى جنبها وفي فرشتها هي، لسوء حظ النائم المضطرّ، وإلى جنب زينب، لحسن حظّه. وذيّلت الملاحظة بسؤال: «مش هايك يا عمّتي؟» لا يتوجّه على أحد ويتوجّه على كل من ينادونها وتناديهم بعمّتي.

ويضمر السؤال معرفةً بما يحسّه بعضنا، والراوي من هؤلاء، نحو جسمها الكبير ولحمه المنفلش، وفخذيها المدموغين بأحمر زهريّ، ورائحة أمعائها وطعامها في أنفاسها، وبما يضمره نحو عينيها المغمضتين إغماضة أخيرة من محجريهما العميقين، من نقمة وقرف يجافيان النوم ويطلبانه طلبًا يائسًا، وهي معروفة بالهلع الذي يثيره جسمها ليلًا في الفراش وتحت الغطاء الذي تتلاعب به أقدام النائمين. فإذا استفقتُ في بعض الليالي بمحاذاة بطنها المنتفخة أو قريبًا من مؤخرتها الضخمة، وأحسستُ بجلد فخذها أو عظم ركبتها على خاصرتي، أو أسفل بطني أو ظهري، وانتبهتُ إلى اشتمال الفراش الضيّق والليل الصارم علينا، روّعني يقين خاطف، قبل أن يستعيدني النوم، بأنّني وفاطمة في قبر مهجور من القبور التي يصطحبني جدّي الشيخ إلى صلاته على أصحابها، ويُروى أنّهم أقرباء هاجروا قبل ولادة معظم أعمامي، ولم أسمع بهم قبل موتهم، إلى قرى صغيرة حول البلدة الكبيرة. وتعلم زينب، وربّما لا يغيب عن فاطمة أنّ كلّ ما لا تحول سنّه بينه (بينها) وبين النوم في فراش إحداهما، وهي حال جمال وحال جميلة أخته، يرغب في النوم بجنب زينب، وينتظر اشتمال حضنها عليه من غير أن ينتبه أنّه في حضنها، وهو بين يقظة ربيعية ونوم شتائيّ ويودّ لو أنّ هذا البين لا ينقضي ولا يحول إلى طلوع الصبح.

ولم أعلم لا حين كان الدور يقع على غيري، على سناء أو مها أو عارف، وهو من كانت تفضل زينب أن يبيت إلى جنبها في فرشتها، فتهبّ غيرة حادّة

في ثنايا رأسي وعلى أطرافي، ولا حين يقع الدور عليّ فيعلّقني الوعد به في انتظارٍ صعب، لم أعلم ما سرّ اختيار زينب من تختاره ولا ما يهيّئ له اختيارها. فهي تبقى ساكنة طوال الليل، ولا تردّ على حركات الفيء إلى جسمها، أو إلى ثيابها، بغير تنهيدة قد تعني شكوى وقد تعني متعة، على ما رجوتُ رجاءً قويًا. وبينما يدلّ ما تقوله فاطمة، شأنها في معظم ما تقول على رضوخ عاتب لما تحدس فيه من نفور يثيره قربُ جسمها، اقتصرت زينب مرة على قولها لأحدنا: «يا عمّتي! فيك اليوم تريِّح ستّك وجدّك من الشخير... تعا شخّر أد ما بدك بالأوضه عندي!»

وربما شذّت عمّتي عن عموم قاعدة ستّتها زينب عمدًا، وتركتها تحوم على ظنوننا. فيومها، احتاجت إلى صباغ شعر، وأوصت جلال بشراء الأنبوب من مخزن الحيّ، دكان الحاج محمود، وهو عائد من مقهاه اليوميّ في الساحة الشرقية. فأجابه الحاج أنّ الصباغ انقطع من دكانَيْ حارتنا منذ مطلع الأسبوع قبل يومين، وربما وجده في محلّ من محالّ ساحة السوق قبل الساعة السادسة. وأخبر جلال عمّته زينب آسفًا ومعتذرًا بما قاله الحاج. فعاتبته عتابًا خفيفًا على اكتفائه بجواب الحاج وإهماله طلبها. وليس الإلحاح من عادات زينب، أو هي لا تعلن تمسُّكًا عنيدًا بما ترغب. وإذا خاب انتظارها تحاشت إظهار خسارةٍ تحرجها وتُحرج من كان سببًا فيها. فتتغاضى عن خيبتها، وتعلّل الأمر بالقول إنّها كانت تحسب الصباغ بضاعة مثل الخبز أو السكر لا يستغني عنها أهل حاراتنا، وهي لا تتصور أمّ حسان، أرملة الشيخ كاظم أمين، ولا شعرها الأشيب واللصيق برأسها تحت غطاءي رأسها، أو تحت الأغطية الثلاثة إذا خرجت بعباءتها، من غير صبغة متجددة. ولا تتصور رأس سكنة، بنت عمّي الشيخ عبد المحسن، وهي أقل النساء تشاوفًا وأكثرهنّ تواريًا، تحت العباءة السوداء الملتفة على خصرها، يجول في الطرقات والساحات ولا يصبغ شيبته سائل أسود فاحم، ولو لم تعلم سكنة فائدة ذلك وهي لم تعرف الغواية يومًا. وإذا كانت هذه حال سكنة فبالأحرى أن تحتاج إلى الصبغة النساء اللاتي يظهرن عراء الذراعين إلى الكوع، وينبت على جلدهن شعر أسود قبيح يُستحسن قلبه إلى الشقرة. وقد يقتصر تعليق زينب على نظرة جانبيّة وساهمة ترفقها بقول خافت: «إزا هايك!...» لا تتعدّاه.

وأدرك أنّ النظرات والابتسامات التي يتبادلها الإثنان، عمّتي وجلال، وهو في الخامسة عشرة ثلاثة أرباع رجل على قول الأهل في تعريفه وفي تسويغ تدخينه السجائر علنًا وإن من غير رغبة، وتَقْطَع في تواطُئِهما على خفايا عجيبة، تحرّك غيرتي وبعض النفور منه، ومن عمّتي، حين أتمادى في ظنوني. ويشفع لهما، ويدعوني إلى إطفاء غيرتي ونفوري، أو يحول دون تفاقمهما، حرص جلال على قفل ممازحته زينب بابتسامة يزيدها انفراجُها المفرط عن أسنانه الكبيرة، وإبرازها التواء شفته العليا وتقويسها الأعوج، خفّة وبلهًا. فيتردّى ثلاثة أرباع الرجل، وهو يدلّ بابتسامته ويحجّرها، إلى ثلث رجل في نظر زينب، على ظنّي ورجائي. فلمّا اعتذر ابن عمّي عن تخلّفه، لم أُعمل فكري في المسألة مرتين. وحملني ما تراءى لي إلهامًا أُلهمته إلى اقتراح الذهاب إلى ساحة السوق وشراء الصباغ قبل السادسة. فأشتري معه الفوز بـ«عمّتي! فيك اليوم...»، وبانتظار ساعة الاستلقاء على فراشها في عتمة شفيفة تنير ولادةُ ابتسامة زينب حاشيتها بتبرٍ حَيِيّ، وإصاخة السمع إلى أنفاسها النهريّة المنتظمة ثم المتقوِّضة، فجأة، قبل أن تعود إلى سويّتها في ركاب كلمة متخلعة الأجزاء تتلفظ بها في نومها.

وحدّقت زينب فيَّ بعينين واسعتين وسوداوين، وغضّنت جبينها الضيّق تحت لمّة شعرها العبيّ والمنتشر على كتفيها، وانحنت وهي تشدّ على كتفي بيدها، وتستند بيدها الأخرى إلى ركبتها تحت تنورتها، ووشوشتني: «بدّك تروح عَ الساحة تتجيب الصبغة لزينب؟ بتحبها ةَ الأَدْ لعمتك؟» وقرّبت خدها من وجهي وألصقته بفمي وأنفي، ولوت باطن شفتيها الرطب على أذني، وقبّلتني وهي تلقي فيها نفسًا بلغ أثره أدنى فقرات ظهري. وحين عدت من رحلتي على جناح طير مستعجل، حاكيتُ وقوفي قبل مشواري، ودعوتها إلى تقبيلي على شاكلة المرة السابقة والقريبة. ووسعني أن أرى عمّي موسى وهو يحدجني بعينين متّهمتين، ويهزّ رأسه ويديره ممتعضًا. وظهر جليًا أنّ الدعوة إلى فراشها، هذه المرة، تجزي المدعو على فعله ورغبته، وتستجيب هذه الرغبة على وجه غامض. ولكنّها لا تفصح عن معنى الدعوات الأخرى ولا عن تجاهلها رغبات لم تَقِلَّ عن رغبتي الآن حدّة ولا حمّى.

وأعقبت اقتراح فاطمة الاستعانة ببنتيِ الجمعاني الفتيّتَيْن مناقشة طويلة. ودُعينا نحن الأولاد، إلى الرواح إلى النوم في أثنائها مراتٍ كثيرة. فهذه الأمور

لا يفيد الاهتمام بها، وهي توحي بمعانٍ وأفكار يحسب الواحد، إذا كان ولدًا على الأخصّ، أنه يفهمها حين هو فعلًا يعوم على خيالات من صنعه. وكان موسى، القادم من ضيعته الشماليّة البعيدة، متحمّسًا للكلام، وللخناق فوق الكلام وأكثر منه، على قول أبي جمال. وهمَّ مرّتين بمباشرة قول ما يريد قوله وتوقف منفعلًا ومُشهِدًا الحضور على غرابة الحال، وفاتحًا فمه من غير أن يتلفّظ إلّا بما يشبه الهمهمة:

– ... منيح اللي الكل هَوْن وما حدا يخطب بكره إنّه ما معه خبر وما سمع... هول البنات اللي بدكن تفوتوهن عَ البيت، ويسمعوا كل شي بينحكى، وبتطال إيدهن الساعات والمصاري...

– ... نسيت الدهبيات العسماليات اللي مش عارفين وين ننخبيها... حبيبي يا خيي! قاطعته فاطمة.

– ... والعلكة بتم الوحدة وبتلبس التنورة على اللحم... شو لح تشوفي شوفات، يا أمّ جواد!...

عقّبت فاطمة وحاطت أمها بنظرة تترجّح بين الرعاية وبين التوعّد المازح.

– ... تصير جَد لازم الواحد يحكي دغري...

وتوجه موسى وهو يرتجف إلى زينب، وسألها وكأنّه ينهرها:

– صحيح أنّه خليل الحاج زيد عم يترك بنت خالنا، وابنهن عمره ست تشهر، والناس عم تشوفوا لخليل ناطر عَ باب دارنا المعلمة زينب تَتِعْطيه لايحة غراض بتوصيه عليهن، وبيضل عَ فتحة البوابة تَ الناس ما تحكي وتئول شوفوا الشيخ أبو جواد مش عارف شو بِيْصير ببيته ومع بنته المعلمة؟ وبتعرف زينب إنّه بالليل، يوم نجمه يوم نوره بتلبس عباية سوده وبتروح عَ الكروم وبتضل لنص الليل ببيت خليل، وبيكون سكر الشبابيك والبواب الزرق وزَعَب بنت خالنا عَ بيت أهلها يومين تلاته...

فلملمت زينب ثوب نومها الطويل والفضفاض، ووقفت وأطلت على الجالسين حول الطاولة الواطئة، وعلى موسى، من فوق، وشخصنا إليها من حيث نحن، ما عدا جدّي الممتعض والمنتظر على حرج مضيّ الموقف. فبدا، بعض ثانية، أنّها تحوِّم فوق رؤوسنا وأعيننا، وأنّنا ننتظر نزول حكمها علينا. وربما انتبهت مها، المتيقّظة عادةً إلى مناوشات الأهل قبل أن تصير مشادّات، إلى الموقف وبالغت في التمثيل المصطنِع الجدّ على الانتظار والتلهف لمعرفة

الفصل التالي. فلم يسع زينب الامتناع من مجاراة مها والضحك الذي سرعان ما لجمته. وعادت عن الخطوة التي خطتها صوب الباب، وجلست مكانها وهي تشزر موسى، ولا يتستّر فمها على ازدرائها أخاها، وأنّبت مها على تجاوزها الحدّ: «لهاون وبس الولدنه! شو خصك إنتِ؟»

وندّت ابتسامة ضعيفة وساخرة من عمّي كريم، أبي جمال. فقطّب جبهته العالية والمهمومة، ودلّى فكه الأسفل قليلًا فظهرت أسنانه وكأنّه على وشك النطق، ومالت جفونه إلى الإطباق على ما تفعل حين تداري أشعة الشمس القويّة. ويعلم أبو جمال أنّ من هم حول الطاولة جميعًا وبعض من هم غائبون موقّتًا ينتظرون رأيه في المسألة العارضة وفي غيرها من مسائل الأهل، على رغم فراقه البلدة والدار منذ عقدين. وهو تقريبًا الوقت الذي مضى على تفرّق أولاد الشيخ أبي جواد، وغيرهم ممن هم في سنّهم، في أقطاب الأرض القريبة والأبعد فالأبعد. ويَطلب تحكيمه، ويحتجّ بمكانته، من إخوته وأختيه – وهو، وموسى، أقلّ الإخوة تعليمًا، وأكثر أصحاب البيوت والأسر منهم أولادًا – من يرونه أقرب إخوته إلى هموم البيت الصغيرة، وأحرصهم على اعتبار مصلحتهم الواحدة. واستقلال معظم المسافرين والمهاجرين، وبعض المقيمين مثل رضا وزينب، بأنفسهم ومشاغلهم لم يحبط تطلّع عمّي إلى مرتبة صاحب رأي، ولا رغبته في اعتراف اخوته وأختيه به مرجع مشورة، وإن اقتصر الرأي والمشورة على دائرة ضيّقة من الأمور واقتصر المستشيرون على أقلّ الأهل اختلاطًا بالناس وأكثرهم بيتية. وتناول أبو جمال عن الطاولة فتاتًا من دائر رغيف مرقوق، وطوى بعض الفتات على بعضه بين أصابع يديه الإثنتين، وأمال نظره متجنّبًا القصد به أحدَ من يكلّمهم، وكلّمهم من حلقه وكأنّه يحادث نفسه:

– خيي موسى، يوجّه له الخير ويعجّل فرحته...

– ... ويبعده بعيدٍ من هاون... والتنَيْن سوا...

قال رضا، وعلى وجهه أمارة سرور مسترسلًا لا يشاركه فيه أحد ولا يبالي هو بانفراده به. وسكت قبل أن يلقى اعتراضه انتباهًا. ولم ينقطع في الأثناء كلام أبي جمال:

– ... فكره وهوه عَ سفر ساعات بالبوسطه من هاون إنّه أهله... يعني زينب ورضا مع جرتين الزيت ومدّين العدس اللّي بعدن بيجوا من أرْضَيات الجدّين...

فيهن يعوضوا بيت أبو سلمان كريم المعاش اللي وعدهن أبو هادي فيه من سنين...

– ... عم تحطّ زينب ورضا والأرْضَيات مع بعضهن ونسيتني... عم تنسى إنّي جايي مع مرتي على الأوضة التحتانيّة، ومعي معاشي وحصتي من المصروف متل حصتهن... يعني لما بحكي عن خديجة ونازك، ونجمه ونوره، وعن خليل، بحط حالي مع الكل...

وبينما يبدي موسى مشاركته أهله أعباءهم، مغط أبو جمال فمه، وهو كان أطبقه إطباقًا محكمًا. وتعاقبت على وجهه من غير فاصل تقريبًا عبارة عزمه على الجواب وإسكات موسى وعبارة يأسه من جدوى الجواب وتسليمه بحجّة موسى. وغلبه حرجه وانسحابه، واتكأ على كفّيه مستقرًّا في جلوسه وهامًّا بالقيام معًا. فخرج رضا عن حدّته وسيجارته وكلّم موسى:

– لايش عم تدخّل خليل بالموضوع؟ شو بيعمل خليل بالليل مش شغلتك ولا شغلتي... ولا شغلتنا شو بينه وبين بنت خالتنا، وبس يحكي بزينب، لما يحكي فيها، وسألتك زينب رأيك أو سألك بيي بتعطي رأيك يومها وساعتها، ويللي بيحب يسمع واللي ما بيحب، وأنا من هلأ مش حابب... وحَكْيَكْ عن خليل بيصيب نجاة، وكتابنا مكتوب عَ بعض من نحنا ولاد، وأنا سافرت وغبت سنين وأنا وأخت خليل عَ كتابنا... ورأي حضرتك إنه معليش خلّي رضا ونجاة يفكوا كتابهن حتى يتربى خليل ويتأدب... مش لح جاملك رأي... سخيف، والبنتين بيفوتوا عَ بيوت الحارة، بيوت مشايخ من العيلة، لا الشيخ محمد حسين ولا الشيخ عون شغّل البنتين ببيوتهن غلّث عليهن وضرهن عَ علمي شغلهن... بيت الشيخ أحمد أبو جواد غير بيوت الشيخين؟

– ... الشيخ أبو جواد من غير شرّ بالضيعة... حردان...

قالت فاطمة وهي تشيّع جدّي الذي لم يسمع ما قاله رضا على الأرجح، ولا تستّر على ضيقه بما يدور بين أبنائه من أحاديث، بنظرة فيها لوم ونفاد صبر. وآذن نهوض فاطمة، وتبادلها هي وزينب وأبو جمال نظرات متعارفة، بانفضاض الجالسين، وتولّى الثلاثة البت في الخلاف من غير مداولة، ومن غير إشراك رضا في البتّ، على رغم مخالفته موسى ومجادلته إيّاه.

وفي الأسابيع القليلة اللاحقة تزامنت حوادث متفرّقة لم يكن يسيرًا ولا ظاهرًا فهم ما منها سبب وما منها نتيجة وجواب. فسفر موسى بعد ثلاثة أو

أربعة أيام من المشادة ربما كان موقّتًا قبل سفره. وإقامته، على ما قال يوم مجيئه وردّد مذ ذاك، جاءت تمهيدًا لعودته عريسًا في سن الأربعين تقريبًا، ومعه عروسه التي تصغره بربع قرن، على قول رضا غير قانع برقم الخمس وعشرين سنة، وهو يطرق سيجارته اللف على غطاء آلة اللف المعدنية ويشعلها، وكأنّه يتكلّم في شأن بعيد لا يعني أحدًا. وقدّم موسى بلدة الأهل الكبيرة مستطلعًا حال منزله الوشيك، الغرفة التحتانيّة الكبيرة والقديمة، وضامنًا أيلولتها التي لم يشكّك أحد فيها، إليه. ولم يتناول أحد من الأهل على مسمع من الأولاد مسألة تقسيم إرث جدّي المختصر: الدار وقطع دونمات الأرض الثلاثة أسفل الرابية قبالة الدار من الشرق. ويقال إنّ هذه سدّدت مهورًا عينية، ثمّنت فوق سعرها الحقيقيّ، لزوجات أولاد جدّي، أعمامي وأبي، في كتب العقود، ودونم منها لا يعلم أيّها سدّد مرّتين. ولم أسمع أنّ أحدًا طعن في تملّك عمّي موسى الحجرة التحتا وسكناها أو فاوض عليها. والإقرار له بها، كان ثمرة مداولة أم حقَّ له من تلقاء الأمور وتداعياتها الصامتة، سببه الأول هو هرب الإخوة إلى حيث الدنيا عامرة وبعيدًا من حياة الخلد في حفرة حجره، على وصف أبي جمال متفاخرًا تركَه البلدة إلى المدينة خاوي الجيب وفقيرًا إلى ورقة توصية. وفي المناسبة، معرّضًا بأخويه، جواد البكر الذي سافر طالب علم وفقه إلى مدرسة وشيخ يعيلان طلابهما، وأبي رابع الأخوة الذي أهّله فوزه في مسابقة عامة للاستعانة بمنحة ثابتة على قضاء حاجاته. والبنتان كان مصيرهما مبتوتًا، فقدَر فاطمة الذي ارتضته هو التنقل شاكية بين بيوت إخوتها حيث ينزلون، وحين يثقل عليهم عبء الأولاد أو تكاليف المرض، وتفقّد الأهل ومؤانستهم بين الوقت والوقت. بينما زينب تعلم علم اليقين أنّ نصيبها مقسوم ومعلوم منذ عودتها من بلاد أخيها جواد، بل قبل سفرها إليها وهي في الثامنة عشرة، على ما ألمحت بعد زواجها من خليل وهي تروي، ساهمة ومغمضة عينيها شبه إغماضة، حكاية زواجها، وتقدّم رغبتها في رجلها إلى زمن سبق عقده على أسماء، ابنة خالنا السيد، وتترك التكهّن في رغبته هو إلى السامع المترجّح بين الافتتان وبين الغيرة.

وعلى خلاف توقّع موسى، ورغبته قطعًا، لم يقتصر توقّف خليل بدارنا، في طريقه من داره بالكرم إلى محله الملحق بدار أبيه الحاج زيد، على الدقيقتين الخاطفتين اللتين يرى في أثنائهما زينب بين درفتي البوابة الخارجيّة فتستقبله

ضحكاتها اللعوب والمستحية ويتحادثان همسًا متقطّعًا وخافتًا، وتعطيه خلسة قصاصة ورقة كتبت عليها، على قولها، حاجيات اليوم، فيتولى إرسالها بواسطة ولد يستخدمه وتسميه فاطمة، وهي تهمس لزينب، مرسال خليل. فصار في يوم السوق الأسبوعي يدخل الدار منحنيًا من الباب الصغير الواطئ، ويسلّم بصوت عالٍ وهو يقصد الحجرة العالية بخطوٍ متمهّل، ويحسر نظره ويقسره على الالتصاق بالأرض، والاقتصار على الالتزام بخطوتين أمامه لا يتعداهما. ويقف بإزاء الباب مديرًا جنبه إلى الباب ومطرقًا كأنّه يرصد إشارة آتية من الداخل ليعمل طوعها. فإذا دعاه جدّي إلى الدخول أجاب بالسلام عليه، وسؤال خاطره وخاطر أمّ جواد، وتجاهل الدعوة شاكرًا صاحبها عليها، وقال إنّه جالس مع رضا وفاطمة وزينب، ومع من قد يكون حاضرًا من الأولاد، في الغرفة الجديدة، وعلى الشيخ ألّا يكلّف نفسه تعب الاستقبال فخليل يبلغه سلام الحاج زيد ابن عمه والحاجة أم خليل، ولن يعدم إبلاغهما وإبلاغ حَسَن أخيه سلام الشيخ وسؤال الحاجة عن صحة بنت عمّها. ويعود بعدها أدراجه إلى غرفة الاستقبال الجديدة التي فتحتها فاطمة أو زينب في الأثناء، فامتلأت بضوء مسائي ناعم، ووافاه إليها أهل الدار. واسترخى سعيدًا، وأمسك عن شكوى تعبه، ومج من بز سيجارته، وروى أخبار اليوم ممازحًا الأولاد، وغامزًا الكبار، ومتنقّلًا بين هؤلاء وأولئك مجيبًا عن سؤال سابق ومستبقًا سؤالًا معلّقًا في نظرة أحدهم.

ولم تتأخّر نجمة ونورة عن التردّد إلى الدار بعد المشادّة. وكان موسى لم يسافر بعد، فتعمّد ألّا يُرى عليه أنّه يلاحظهما. ولم تحلّ البنتان محلّ خديجة ونازك اللتين أقامتا على القدوم في الصباح الباكر، ولم تتخلّيا إلّا عن غسيل الثياب مرّتين في الأسبوع. وتولّت الصبيّتان الجديدتان عملهما ظهرًا. ولم يُظهر أحد السرور باستقبالهما أو الترحيب بهما، على خلاف إبدائهما سعادتهما وحماستهما حال وضعهما قدمًا في الدار. وفسّرت العمّتان السرور الصريح على الوجهين الرقيقي البشرة، والشّافَّيْن عن عروق زرق طافية على صفحة الخدين، بخفة البنتين وغفلتهما عمّا يترتب على إبداء الناس عواطفهم. وحين قدمتا أوّل مرّة، تلفّتتا شمالًا ويمينًا وحطّتا نظرًا زائغًا على ما يعرض أمامهما: باب بيت الماء والقنّ وقفران النحل إلى يمينهما، وباب الغرفة المحدثة النيلي الزرقة وتنكات زرّيعة الفلّ والحبق على حافّة شباك الغرفة الجديدة الثانية،

وزوجا مشاية رضا الشتائيّة على العتبة إلى يسارهما. ووقفتا، وعينا الواحدة تغزلان، على قول فاطمة، بموضع يسعهما النظر منه إلى داخل الغرفة الجديدة وإلى باب الحجرة الكبيرة الفوقى ومراقبة مدخل المطبخ، معًا. ودارت نورة، صغرى البنتين، على عقبيها بحثًا عمّن يكلمها أو استتمامًا لجولة عينيها في المكان. وبدت، في ثوبها البرتقالي السادة والطويل إلى صندليها البلاستيك، أقصر من نجمة بما يفوق الفرق الذي يثبته النظر بين كتفيهما ورأسيهما. وأطلّ رأس نجمة وشعرها الأملس، السابل والأسود، على المكان حولها معلمًا عائمًا. وقطع خروج فاطمة من باب الإسطبل، مطبقة عينيها الضيّقتين والمغالبتين النعاس حيرة الصبيّتين وانتظارهما. وجمدت الصبيّتان تحت نظر فاطمة الفاحص والمداري استعراض فحصه. فبادرت نجمة إلى مخاطبة فاطمة:

– ... هيانا جينا يا معلمتي... آل بيي حكيه الشيخ خليل...

وانتظرت فاطمة تتمّة قول الصبيّة وهي تسحب إلى أعلى جبهتها ومقدّم شعرها المصبوغ غطاء رأسها الشفاف. فلمّا تأخّر مجيء التتمّة، توجّهت فاطمة إلى البركة وإلى باب البئر، وراءها، ولمّت حبل الدلو الخشب تحت حنفية البركة، وأجابت:

– ... إيه يا صبايا! أهلا وسهلا! منيح اللي سمّيتيني بس معلمه... سميتي خليل شيخ، فكرت لح تبعتيني عَ الحج وترجّعيني حجه...

ولم تنظر فاطمة إلى البنتين اللتين وصفت حالهما في رواية لاحقة بالبلكمة، وقالت إنّها كانت تعوّل على زينب لتفهمهما وجوب التقيُّد بآداب البيت الذي تعملان فيه، والتخلّي عن خفّتهما وطفولتهما غير الخافية. وشرحت لهما، وهي على حالها من الملل والسهو الظاهر عنهما، ما عليهما أن يفعلا تباعًا: رفع الماء من البئر بهذا الدلو، وجمع أربعة دلاء في إناء التنك الكبير، وإشعال بابور الكاز بعد خضّه والتأكّد من كفاية كميّة السائل فيه، والانتباه إلى إدخال رأس الإبرة في الفتحة الدقيقة، والاقتصاد في السبيرتو وانتظار حماوة رأس البابور قبل حقنه، وإبعاد الرأس من الآلة في المراحل كلّها، وتسخين الماء في الأثناء، وملء لَكَن الغسيل بالدلو نفسه إلى نصفه قبل رمي قطع الثياب قطعة قطعة فيه... وانقطع صوتها، وانتقلت إلى الإشارة بيديها وذراعيها، وبعلامة قرف على ملامحها، إلى الزاوية التي تكدّست فيها الثياب

المخلوعة. وسألتهما، مشكّكة، عمّا إذا فهمتا شرحها كلّه. وعلّقت على سؤالها، بإزاء بكم الصبيّتين، بالقول إنّ صبيّتين في الرابعة عشرة والثانية عشرة من عمرهما لا تروحان إلى المدرسة لا ريب أنّه سبق لهما أن بلّتا اليدين في ماء الغسيل وصابونه. وأمرتهما ببسط الواحدة يديها راحة وقفا. وانتهت وهي تكاد تلهث إلى نصحهما بالانتباه إلى حركاتها وإشاراتها هي، وترتيب هذه الحركات، والتفكير في توزيعها، وتوزيع العمل كلّه بينهما. وشالت غطاء البئر، وأمسكت بحبل الدلو، ثم وضعت الحبل بيد نجمة. ونزلت عيناها، في الأثناء، من رأس الواحدة إلى صندلها، واستقرتا مغضبتين على نجمة، وقالت لها إنّها لا ترى، فوق صندلها، قماشة سروالها تحت الفستان، فإذا جلست للغسيل، وفرشخت فخذيها وركبتيها، وقصَّر الفستان عن ستر ما بين الفخذين وما بين الركبتين، انقلب الغسيل إلى ما لا يليق ببيت الشيخ أبي جواد، ولا يليق ببيت والد نجمة ونورة. فأجابت نورة أنّ أختها لم تلبس السروال، على خلافها هي، لظنّها أنّ الزيارة الأولى زيارة أولى...

– ... توجيب يعني... علّقت فاطمة... بلا شاي ولا أهوه ولا ملبَّس... مأصّرين بحأكن يا صبايا!

فانسلّ من وجه نجمة الحليبي بياضه الذي يحاذي لونَ الإغماء، وتوجّهت إلى أختها عاتبة ومستشيرة. فأومأت الأخت بإشارة إلى الجنب من رأسها، أرجعت بعض الصلابة إلى الضوء الذاوي في عيني نجمة. فاستأذنت فاطمة، وجزء منها يكاد يغادر المكان:

– هيّاني رايحة إلبس تحت الفستان، وبكون تكّة رجعت... وركضت هاربة. وبعد ثوانٍ عادت في ثياب لا تشبه تلك التي كانت تلبسها لتوّها. ويتصبب عرق جبهتها وعنقها تحت صدريّتين سميكتين وداكنتين تغطّيان الجزء الأعلى من جسمها، وفي تنورة مستديرة وواسعة تحت سروال عريض الكشكش ويكسو القدمين من غير بقيّة. وعرضت نفسها، مبتهجة وفاغرة فمها إلى عمق حنجرتها، في لباسها الجديد. وانتظرت، وذراعاها مستقيمتان ومشدودتان إلى جنبيها، إظهار فاطمة رضاها عنها. فقالت فاطمة، وهي تنبّه نورة إلى الكف عن حقن البابور، وتلفّ نجمة كلّها بنظرة متعبة وجاحظة:

– منلِّك برزة ستك، هاي؟ وين كانت إمك مخبيتها؟

وأتمّت فاطمة درسها على الصبيّتين إلى آخر مراحله. وأشرفت على البلّ والتسبيح والدعك الأوّل والدعك الثاني من غير جلاء الفرق بينهما، وعلى الطيّ طيًّا مستوفيًا بين طرفي قطعة الثياب، والعصر ثم الإمعان فيه إلى حين بلوغ القطعة حدّ الجفاف والنَفَس حد اللهاث، وتفويح القطع الشريفة، وأخيرًا النشر على الحبل بين عمودي خيمة العريشة، وبينهما وبين جذع شجرة الزنزلخت في وسط الحاكورة، وتأمّل الثياب المتدليّة بين طبقتي ضوء والمُقتطِعة جزءًا من الحاكورة على حدة، بعينين حانيتين لا تنكران على الأيدي التي صنعت هذا حقّها من الشكر.

وانحسرت صرامة التعليم التي صبغت تلقين نجمة ونورة علم الغسيل في دار الشيخ أبي جواد. وتركت فاطمة مراقبة البنتين. وأظهرت هاتان تحفّظهما وإمساكهما عن الشَهْورة، على قول جدّتي وعمّتيّ معًا. فصارتا تنصرفان إلى عملهما، وتلتفتان أقلّ الالتفات إلى جوار هذا العمل. وجوار العمل هو الأولاد، نحن. فالصبيّتان محل فضول تتناسل موضوعاته بعضها من بعض، ولا ينتهي تناسلها إلى حد. فابتسامة نجمة تبتدئ هادئة ناعمة، وتنقلب في أقلّ من لحظة خاطفة ضحكةً تهزّ جسمها الليّن والناحل كلّه، وتُخرج إلى العلن أسنانها ولثتها ولسانها ولعابها وأنفاسها وكأنّ دواخلها وغددها وسوائلها معروضة على شهوات النظر والشمّ واللمس باليدين والشفتين، وبصفحة الجلد ومسامّها. وهي تجيب الارتباك الذي يصيب شاهدها، ولدًا أو بنتًا، حين تقبل عليه وتمرّ به وتخلّفه وراءها، بإمالة رأس وعنق حييّة، وبخطو عريض ومترنّح، ينقلانها إلى ضفة أخرى من الأرض التي كانت تجمعها هي والشاهد. وتشتبه دعوتُها إلى نفسها، وهي بدت غير مقيّدة بوقت أو شرط، على من حسب نفسه مثلي مدعوًّا، وتتبدّد في سراب يلفّ نجمة، ويزيد حاشيتها رقّة، ومشتهيها شهوة. فهل المرأة التي قال موسى غاضبًا وجازمًا إنّ ناسًا من الحيّ رأوها تتمايل عشيةً في عباءة سوداء، على الطريق البرّيّة والمنعزلة إلى بيت خليل، هي حقيقةً نجمة؟ وحين تخفّفت من عباءتها، بعد دخولها البيت من الباب الخلفي، في ظلمة بلون التربة الحمراء التي فرشها خليل أو والده الحاج بين تصوينة الكرم الشرقيّة وبين جدار البيت الحجريّ، ووقفت في دائرة ضوء مصباح الكاز الزجاجي الذي يملك بيت خليل اثنين منه، فرآها خليل في الضوء الضعيف هذا، هل مرّ بمعصمه الكثير الشعر على حرير خصلاتها، وعلى خدّها، وتبع برؤوس

أصابعه الوسطى الثلاث والصُّفر خط الشريان الملتوي على وجنتها، وابتسم ابتسامته الحائرة بين عينيه الغائرتين والفاحصتين وبين فم الهرّ السمين الذي ابتلع لتوّه عصفورًا لم يمضغه بعد؟

وتردّدهما المعتاد مرّتين في الأسبوع إلى الدار، وتسلّلهما بين وقت وآخر، ومشاركتنا اللعب دقائق قليلة أحيانًا وكثيرة أحيانًا من غير أن يعلن أحد امتعاضًا صريحًا، أدخلت نجمة ونورة في عصبة الأولاد أو عصابتهم، على قول بعض الأهل متملّقين وقاصدين مديحنا وجمعنا على حدة. ولم يَخْفَنا أنّ الصبيّتين تتظاهران، ونجمة على الأخصّ، بالرغبة في مشاركتنا لعبًا، مثل الغمّيضة أو أنا الأعمى أو مين عروستك أو الباصرة، لا يخلّصنا من ضجره إلّا التذرُّع به إلى مخاطبة مضمرة. وتؤدّي البنتان حركاتنا، وتحذوان حذونا متأخّرتين قليلًا عنا، ومقلّدتين. وحتى ضحكهما أَشْبَهَ العدوى اللاحقة. وحين تجلسان إلى الغسيل، وتبعد الواحدة ركبتها عن الأخرى، وتحيط اللَّكَن المليء بالثياب المبتلّة والرغوة من الجهتين بسور فخذيها المنفرجين وساقيها، إلى العقبين والرسغين وأطراف الأصابع العارية، وتتنافسان على دعك قطع الثياب، وتصيب الواحدة أختها برذاذ الماء المتطاير وتشبِّه الصدفة، وتخرج قطعة من الماء تراها مدعاة ضحك، فتردّ عليها الثانية بقطعة تجاري الأولى إضحاكًا – جلوسهما هذا كان مسرحهما غير المقيّد بنا ولا بأصحاب الدار، ومشهدنا المنتظر والصاخب.

واضطرّت فاطمة وزينب إلى الطلب إلى الاثنتين العودة إلى ما كانتا عليه قبل قلبهما العمل حفلة هرج ومرج، أي إلى صمتهما وسكونهما وجدّهما، وتجنبهما الرد على استفزازنا بتمثيلياتهما وبإيحاءات ليست كلّها بريئة. وظنّت العمّتان أنّ وقوفنا على جهتي الباب شاخصين إلى اللَّكَن، وحوله نجمة ونورة، معلّقي الأعين البارقة فضولًا وحماسة على محاورات الواحدة الأخرى، وتبادلهما الردود بالإيماء والمحاكاة والتمثيل، من دواعي هرج البنتين، وأنّ حرمانهما إقبال جمهورهما الحارّ قد يخمد فورتهما. فنهرتانا ونصحتانا بالانصراف إلى ما فيه منفعة تفوق مراقبة الوسخ وهو يذوب في الماء والصابون، ويحيل الماء عَكَرًا تفوح منه روائح نتنة لا نريد شمّها حين تختلط بماء المجارير، ونسدّ الأنف ونحبس النفس حين نضطرّ إلى المرور بجوارها.

وربّما لم يبلغ العمّتين ما كانت نجمة ونورة تفعلانه خفية عنهما، وما سكتنا عنه نحن الشهود، وتدعواننا إلماحًا إلى رؤياه، وتتجنّبان تسميته بالاسم إذا كان له اسم يومذاك. فبعد أسابيع قليلة على مباشرتهما الغسل، وحال دخولهما قبيل الظهر الدار، نجمة أولًا وتليها نورة، تصنّعت نورة وجهًا جادًا غير معتاد، وهمست حين ركض بعضنا إلى استقبالها وأختها، ومواكبتهما إلى مصطبة البركة وباب البئر وعتبة المطبخ، أنّ لدى نورة خلفها شيئًا مهمًا تقوله لنا في أثناء انصرافها هي إلى انتشال الماء وتسخينه. وكادت نورة تتعثر لمّا تحلّقنا حولها وانتظرنا، ونحن على صمتنا، إفصاحها عن الشيء الموعود. وتمهّلت قليلًا إلى حين إزاحة أختها مربع الخشب عن سطح البركة، وفتحها باب البئر الحديد المخلّع، وجرّها الدلو على الأرض في وقت واحد تقريبًا. فقالت إنّ في الغسيل اليوم قطعًا لم نشاهدها من قبل هي الفوط، وليست فوط الأكل، وأوصتهما فاطمة وهي تنظر في عيني الواحدة منهما بغسلها على حدة ومن غير أن يراها الأولاد. ولما مرّت بعض الخيبة على وجوه بعضنا قالت إنّ أختها تنوي أن ترينا أين توضع وكيف توضع الفوط التي لم يسبق أن رآها أحد منّا، وينبغي ألّا يراها من في سنّنا وعلى الأخصّ الصبيان. وهالنا منظر خرقتين مدبّبتين ومكوّمتين مرميّتين وراء اللَّكن، أخرجتهما نجمة الواحدة بعد الأخرى من مخبئهما، وفردتهما قفًا ووجهًا، وهي تراقب ظهور الدهشة والإعجاب على وجوهنا، وأشهدتنا على بقع حمر، سود الحمرة، يبست على الخرقة المنبوذة وخلفت فيها دوائر يتفاوت اصطباغها باللون وامتصاصها السائل. وقالت مها إنّ ما تعرضه نجمة يبعث على القرف ولا يستحق الوقوف والاهتمام، والأحرى بنا أن نبحث في لعب لا يؤدّي إلى المغص. وسكتت سناء، وفحصت الخرقتين بانتباه وحذر أغضبا مها التي أدارت ظهرها، وأسرا نجمة. فاقترحت أن ترينا، سناء وأنا، كيف تستعمل النساء في أوقات معلومة الخرقة وأين يضعنها. ومدّت يدها إلى طرف تنورتها. فقالت سناء إنّها ستغمض عينيها ولن تشهد ما تفعله نجمة، وحين تتمّ ما بدأته، وترجع التنورة والخرقة إلى موضعيهما، تعود هي إلى فتح عينيها.

وأصابني تعبٌ بسبب البقاء متنبّهًا وأنا أرى نورة في مقابلتي منجذبة في ما يشبه الغيبوبة، وراء ستارة رقيقة من أبخرة الماء الساخن، وروائح صابون ضعيف العطر، وأتتبّع أصابع نجمة الشاحبة وهي تمضي جادّة ومتهيّبة على

سحب تنورتها، والكشف عن سروالها العنابي إلى خصرها، وعيناها معلّقتان على باب المطبخ، وأراقب عجز سناء عن الوفاء بوعدها إغماضَ عينيها اللتين زاد اضطرابهما ورفيفهما حال باشرت نجمة فعلها. وأحسستُ بقرب الدوخة منّي حين أمالت نجمة فخذها، وتناولت إحدى الخرقتين بأطراف أصابعها، كأنّها تحاذر الإطباق بيدها كلّها على حيوان حي يختبئ داخل الخرقة، أو كأنّ الخرقة اليابسة هي قوقعة الحيوان الحي الصلبة. وأمسكت سناء ذراعي ثم ساعدي بيد رطبة. فقالت لها نجمة ألّا تخاف، وما تشهده أوّل مرة ستعتاد عليه، ويصبح من سيرة حياتها النسائية بعد سنوات قليلة. ودعتنا إلى الانتباه إلى ما تفعل. وبإصبعين أمسكت موضعًا من طرف الخرقة، وهزّتها وتركت بقيّتها تتدلّى وتنبسط إلى أسفل على شكلٍ مستطيل واجم وتقر على الأرض وراء فخذها وساقها المنتصبين سدًا بوجهينا. وطوت الخرقة طيًا كرّرته مرّتين، ورضيت به بعد أن تستّر على القاع الأسود الحمرة داخل الخرقة. وحملت الخرقة على كفّها، على نحو ما تلوّح خديجة أو نازك بعجينة الخبز المستديرة على مخدّة الخبز، وتمهّد بتلويحها إلى رمي العجينة على صاج الموقد المشبوب. وطوت نجمة الخرقة، وعيناها ساهمتان ولامعتان تُنقِّلهما بين الوجوه الثلاثة الشاخصة إلى أسفل بطنها. وشدّت عليها وهي تلوي شفتيها النديّتين، فيتقدّم صفّ أسنانها التحتيّ، وتظهر هذه صغيرة، مثلومة الرؤوس، يحشر بعضها بعضًا آخر، شأن أسنان الحليب في أفواه الأولاد. وصحبت «هايك» صريحة وخافتة شدّ اليد على الموضع الذي أفرجت الصبية الجالسة ركبتيها وفخذيها عنه، واهتزّت له أجزاء جسمها كلّها، وكأنّ مَسًّا مسّها وكاد يخلخل أجزاءها ويفرّقها.

فلم أشكّ في أنّ نجمة إبليس من الجنّ وأختها مساعدتها، والمشهد الذي حضرته من إعداد أسرتها الخفيّة. وربّما هذه الأسرة هي عائلتها الظاهرة التي ألمحها في مروري ببيت أبو حسن كريم وسلامي عليهم، وذهابي إلى بيت عمّتي بديعة، أم أسعد، أو إلى بيت خالي الشيخ. ومن غرائب الأمور أنّ منزل أهلها، القائم على زاوية الزاروب المفضي إلى دارَتي الشيخ عون، والشيخ محمد حسين، وقبالة بيت أهل خديجة ونازك، من حجر مقصّب وليس من طين وحجارة وتبن، وسطحه من الإسمنت، وتعلو أعمدته قضبان حديد معقوفة وصدئة. ووالد البنتين، نجمة ونورة، لم تلد له امرأته إلّا البنات، وولدت له إلى اليوم أربعًا صغراهن لا تزال تحبو بينما بلغت البنتان الأوليان. وهو لا يغادر

مستطيلًا ثابتًا وضيّقًا من درفة واحدة في وسط الجدار المطل على الطريق. ويجلس قبيل صلاة الفجر، شتاءً وصيفًا، إلى طاولة الإسكافي وسندانها، وآلة خياطتها وعلب مساميرها وأدواتها. ويعطي جنبه إلى الرائحين والجائين، ويردّ السلام على ملقينه عليه من غير أن يلتفت. فهو لا يتعرّف المارّة من أصواتهم أولًا بل من وقع مشيهم، على زعم ابنتيه. فيرى المقبلُ من ناحية دار جدّي في إطار نصف باب، رجلًا لفّت جسمه الهزيل وزرة جلد حلّت محلّ الجسم كلّه وفاضت عنه، يحني رأسًا أقرب إلى مجسّم جمجمة يكسو مؤخرتها شعر منفوش أغبر وبنّي حائل، على خلاف الشعر الذي نبت طويلًا ومتفرّقًا وأسود كالدبابيس، على وجنتيه وعنقه وذقنه وشاربه وأنفه وفي أذنه، وعلى أرنبة أنفه حمالة نظارتين من عظم يُرى منهما زجاج حجري ومحدودب. وهذا الرجل الذي لا يغادر كرسيّه الصلبة والواقفة الظهر إلا دقائق قليلة يخلِّف في أثنائها فراغًا ماثلًا، ويعود بعدها على الحال التي كان عليها طوال دهر سابق، لم يقفل باب محلّه، أي درفة الباب، يومًا قبل نزول الظلمة. ويحتال على نزولها بواسطة مصباح كاز يضيئه دقائق ولا ينفع في تبديد زاوية من بحر العتمة المخيّمة على الجدران والسطوح والطرقات والمارة والدجاج والقطط. الإسكافي الجمعاني هذا، أو إسكافي حارة بيت الجمعاني، على ما سمّاه من سموه وقصدوه بالاسم ولم يلمحوا إليه إلماحًا على ما يفعل معظمهم، ظنّ من تكلّموا فيه أنّه مليء بالخبايا.

وليس عمّي موسى وحده من يحسب ويرجّح أنّ بنتَيْ جارنا الإسكافي، وليست نجمة وحدها، تتسللان في العتمة الحالكة إلى بيوت رجال شبه عازبين يقيمون بظواهر البلدة، في انتظار البناء بنسائهم أو الزواج بامرأة ثانية، وإلى شجرات زيتون معمرة، ينتظرهما على أغصانها العالية والعبيّة شبان لا يسعهم التصرّف بجزء من بيت أهلهم. وعمّي لم يعزُ هذا التسلل إلى أخلاق بيت الإسكافي، إلى أم غامضة لا تزور ولا تزار، وأب لا يعقل أن يعرض نفسه على الأشهاد، يظنّ أهل الحيّ، إلا لأنّه يتستّر على شيء فادح. أمّا غير عمّي فأبدى شكّه في الرجل وزوجته، وحمل افتقار ذرّيّته إلى الشرف، واقتصار هذه الذرّيّة على البنات عمدًا، أو صدفة، على اعوجاج الأصل وخبثه. فشاع، عَرَضًا وبين وقت ووقت، أنّ أحد أهل الحارة، قريبنا البعيد، ياسر الملقّب بالأعرج اختصارًا – فهو يعرج بساقيه المقوّستين، وعيناه وراء نظّارات سود عمياء تنزّان عمشًا،

ولا تريان أبعد من مترين ويكاد لا يرد السلام ولا يبادر إليه، ويعمل عتّالًا شرط ألّا يزيد ثقل ما ينقله على كتف واحدة عن خمسة كيلوات، ويعيَّر بغضّ نظره عن بغاء امرأته المأجور واشتهارها باحترافه – شاع أنّ ياسر ردّ على قريب له يسكن بجواره وجوار دار جدّي، أسمعه وهو يمرّ به أنّه زوج من سمّاها وهو يكاد يصرخ «المأفونة» ويرضى بما لا يجوز أن يرضى به ليس الزوج وحده ولا الأهل وحدهم بل جيران الحارة كلّهم وربّما أهل البلدة. فوقف ياسر في موضعه والتمس بحركة رأس دائرية مصدر الصوت اللئيم، وأخّر حاشية كوفيته البيضاء وأرخاها وراء كتفه، وقال:

– أنا عرص ومرتي عرصة، مأفونه متل ما عم تؤول يا ابن عمّي، منيح هايك؟... لا هيي جابت ولد ولا أنا جبت... لو اللي عم تؤولوا أنت وغيرك صح خِلِئ لحد اليوم عجّال ولاد... وين راح خير الرجال اللي عم يزتّوه فيها؟ لا تكون المعتّره منخل من خرومه بيظمط الحبّ والزوان والبحص؟ نسوان كتير بالحاره وبرات الحارة ولادهن لا بيشبهوا بيّاتهن ولا بيّات بيّاتهن، لايش لسانكن أَصَّر عنهن؟ هيدا إبن الجمعاني، مش بعيد، خلّف بنته وبيأجّرها عَ الطالع...

ولم يَسَع ياسر الأعرج أن يتمّ قوله. فرماه أحد المتحلّقين على مدخل الحوش العريض – وراء دور جدّي وعمّي الشيخ وابن عمّهما الشيخ كاظم أمين شمالًا، وينزله خليط من فقراء عائلات الحارة – بفردة مشاية أصابت كتفه وأزاحت كوفيته. وانهالت عليه دعوات إلى الخرس، وطَمْر نفسه بالتراب، وترك أعراض الأقارب والناس، والالتفات إلى عرضه الملوث، حرصًا على اسم عائلته، وهو يحمله رغمًا عنها ولا حيلة لها في أمره.

وألمح آخرون إلى الظنون في نجمة، في المرتبة الأولى، وفي أختها استطرادًا، على وجه التوقّع والترجيح. فروى ابن عمّي مهدي في معرض أخباره، عن شابين أخوين من البلدة في مثل سنه قصدا المدينة الساحلية القريبة والصغيرة ليدرسا في مدرستها الثانوية، وأجَّرا غرفة ببيت ربّ عائلة محلّيّة يعرفه والدهما ويتردّد منذ أعوام على سوق البلدة وينسب أباه أو جدّه إليها. ووقعت، بعد بعض الوقت، بنتا صاحب البيت الفتيّتين والجميلتين في عشق الأخوين، وصارتا تطعمانهما من طعام العشاء المتبقي من صينية أهل البيت المشفقين على الغريبَين، والمبيّتين نيّة تلوح على وجه الأم، وتقضيان معهما، بذريعة رد الصحون إلى المطبخ وغسلها، جزءًا من الليل. وتختلي

الواحدة من الأختين بأخ من الأخوين المتقاسَمين على معيار السن. ويتبادل زوجا الأخت والأخ اللمس والتقبيل والضم، على شرط ألّا تتخطى هذه منتصف فخذ البنت تحت قميص النوم القطني، إلى البطن وأسفله، وألّا تمتد اليد إلى داخل الصدرية والنهدين العاريين والحلمتين. ويقتصر المقبِّل على ملامسة الشفتين المطبقتَين والجافتين بشفتيه قبل انقطاع النفس المنبهر، فلا يقحم أسنانًا أو لسانًا أو ريقًا وراء الشفتين المتاحتين، ولا يُمِرّ شعر الشاربين النابت على الشفتين. فإذا لم يلتزم الواحد – والشرط يسري على الواحد، ويغفل الاشتراط على الواحدة على ما لاحظ مهدي ونبّه مرات مقهقهًا – فروع الشرط الكثيرة، عاقبت الأختان، متكافلتين، العاشقين المولَّهين والممسكين المعذبين، بالانقطاع عن الزيارة الليلية ليلة واحدة، وبأداء المخالفين القسم على الامتناع من العودة إلى الإخلال بالعقد الصارم.

وخلص مهدي من روايته إلى أنّ ما حصل عليه شاب مثله في البلدة، وفي الحارة، من نسائها وبناتها لا يقاس بما يتمتع به صديقاه ويكابدانه. وقد تكون نجمة فرصة أو صيدًا، ولكنّ من سبقوه إليها لا يحصون عددًا. وامرأة الأعرج سرعان ما تُنزل حين يجامعها سائلًا أصفر لا تكفي محرمة واحدة لجمعه، ويربكه حشر المحرمة في جيبه، وغسلها من بعد أو حفر قبر لها بين شتول الذرة في حاكورة الدار. وكيفما سارت الأمور، فعليه الحذر في الحالين، حال امرأة الأعرج وحال بنت الإسكافي. فالمرأة والبنت، إذا صحّ أنّها بنت على غير معنى افتقارها إلى ذكر وخصيتين بين فخذيها، قد تنقلان إليه وإلى أمثاله الكثيرين لا محالة، أمراضًا فاضحة كسيلان المني الدائم، والمرض الأخبث، السيفيليس، الذي يفرخ دودًا متناسلًا بين عظام الجمجمة وبين تلافيف الدماغ، على ما شرح له صديق يدرس الطب في جامعة بلد قريب.

وانتظرنا، سناء وأنا من غير شكّ ومها على وجه التخمين، عودة نجمة ونورة إلى دورة الغسيل التالية، غداة ثلاثة أيام على الدورة السابقة. وفي الأثناء، سكتنا كلّنا عن مشهد الفوطة الذي أشهدتنا عليه نجمة. فلم تسأل مها أحدًا منا عمّا حدث بعد انصرافها. ولم أسألها، ولم تخبر سناء أنّها سألتها هي عمّا فعلته بعد انصرافها. واستعدتُ صورة نجمة، الجالسة منتصبة ومتحفّزة على الطبلية الصغيرة، تحوط بطوق فخذيها وساقيها لَكَنَ الغسيل المستدير وأبخرته ورغوته القليلة وماءه الرماديّ، ووجهها النحيل والطويل ينمّ ضوءًا

بلون بشرة رقبتها العالية، وبيدها اليمنى الخرقة المدمّاة عَلَمٌ على أنوثة غائرة تبطن حممًا باردة وميتة، على نحو ما تحضن بشرًا ينتظرون وهم لا يعلمون، الولادة. وحين أرادت التمثيل على استعمال الخرقة وصدورها عن منشأ مهول وطاغ، هَدَم الفرق بين الوجه المنتشي وبين حركة اليد الآلية، الرغبة الجامحة. فتداعت عماراتها وقببها الشامخة، وملأ الرماد كهوفها ووديانها. ولم تخفَ نجمة خيبتنا. فرمت الخرقة بيدها إلى جنب الخرقة الأخرى. واستدركت على تطويقها الّلكن وإدلالها به، فغطّت بتنّورتها رسم بطنها وفخذيها في سروالها. وانحنت إلى أمام، ودعكت يداها ذراع قميص أخرجتها، والإعياء بادٍ عليها، من الماء، وكأنّها لا ترى ما تفعل.

ولم تأتِ الأختان على الموعد. ففي أواخر صباح يوم السبت، أو منتصف قبل ظهر ذلك اليوم، وأهل الدار يبدّدون آثار اليقظة والترويقة المتقطّعتين، دخلت نازك وحدها الدار، ولاقتها فاطمة وكأنّها تنتظرها. وبعد محادثة سريعة بين الاثنتين، معظمها توسّل بحركات الوجه وإشارات اليدين والإيحاء بالكلمات والاقتصاد في لفظها، تولّت نازك، مستعجلة ومبتسمة، الإعداد للغسيل، وأنجزته ونشرته قبل أن يفطن أحد منّا لغرابة حلولها محلّ الأختين، المنتظرتين على رجاء أن تتمّ نجمة ما بدأته قبل أيام قليلة، وتعوّض ربّما الخيبة التي ختمت الفصل الأخير من مشهدها. وثبَّت الأسبوع التالي، ثم الأسبوع الآخر بعده، دوام غياب نجمة ونورة عن دارنا. وحلّت الأخوات خديجة ونازك ونعيمة محلّهما. وتعاقبت الثلاث، من غير انتظام وقت ولا دور، على القيام بالغسيل. وجيء، مرّة، بامرأة مسنّة لم أرها في دار جدّي من قبل، ومررت بها مرّات في الرواح إلى الجهات التي أقصدها غربًا وجنوبًا. وكان محالًا ألّا أذكرها. فهي كانت تظهر عليَّ من باب خفيّ في جدار طويل من لِبْن وقش يصل بيوتًا متعاقبة من زاوية شرقيّة، بجنب بيت نجمة ونورة، إلى زاوية غربية عند مفترق طرق، وبين الزاويتين أربعة بيوت أو خمسة لا دليل عليها غير أبواب الخشب الواطئة، والمحكمة الإغلاق معظم الوقت بمحاذاة الطريق المعبّدة بحجارة مقصّبة.

فالجدران الفاصلة بين الحجرات العميقة لا تخلّف أثرًا ناتئًا في جدار اللِّبن الطويل والمستوي الذي يقوم من البيوت مقام الواجهة الضريرة. وتقتصر القرينة على الفرق بين البيت والبيت، على باب شبيه بطاقة كبيرة فُتحت في

موضع كيفيّ من الجدار الأماميّ، وقد لا يلاحظها إلّا المارّ بإزائها. وإذا رفع هذا نظره قليلًا إلى حرف السطح القريب، وزاويته المكوّرة مع الجدار، رأى ربّما طرف مزراب مفلطح من تنك علبة حليب يبلغ سنتيمترات، حُشر في جهة الزاوية المؤتلفة من السطح والجدار، والمنحنية انحناءة طفيفة نحو الطريق.

ويقيم وراء الباب الذي ظهرت منه المرأة القصيرة، المختصرة على قول فاطمة، ذات الأنف الأفطس، في لباس من قطعتين هو من غير شك بيجاما نومها ولباس سعيها النهاريّ، ولدٌ في سنّي التقيته في صف المدرسة الذي أتممتُ فيه عامي الدراسيّ. وكتبت عن هذا الزميل، أي نقلت عنه فرضَيْ حساب عجزت عن حلّ مسائلهما. فذهبت إليه وكلّمته في الأمر. ففتحت المرأة الباب، واستقبلني هو خارج البيت، على الطريق. ورأيت بين الدرفتين، في الظل، ردهة ضيّقة مثل اصطبلنا، هبّ منها هواء حارّ، تملأُها أزواج الأحذية والمشايات المبعثرة، ودرجتين تؤديان إلى أرضية أولى فُرشت بحصيرة سمراء خشنة. ووراء الأرضيّة الأولى أرضيّة ثانية تُبلغ من أربع أو خمس درجات درج جانبي، كدّست فيها بقج بالة. واستعجل الزميل الجاد القسمات الهندسية طمأنتي إلى أنّ عمّتي كلّمت أمّه، وهو لا يردّ طلب أمّه، ولا يقتضي ذلك منه إلا إعارتي دفتره، ووظيفته في الدفتر، وليس عليّ إلّا أن أنقل أجوبته الصحيحة كما هي، ويتولّى بنفسه تسليمي الدفتر في دارنا، ثم استعادته فلا أتكلّف تعبًا لم أعتده، لم يعتده أمثالي قال، عابرًا ومقررًا رأيًا لا جدال فيه ولا يصدر عن نقمة ولا عن إنكار، بينما هو اعتاد عليه منذ نشأته.

وصرف تردّد الجارة المتقطّع علينا بعض الوقت، ونحن سمّيناها الفطساء فيما بيننا بصوت هامس أرفقناه بابتسام متواطئ لم ينكره الأهل ولم يعلّقوا عليه – صرف اهتمامنا بالغسيل. وحده مهدي ابن عمّي الشيخ عبد المحسن علّق على مجيء الفطساء عوض الأختين الصبيّتين. وهو سمّاها امرأة المنيَّر، باسم عائلتها وعائلة زوجها، فقال، هو يطلّ وراء الحائط الفاصل بين دارينا وينتظر قدوم فاطمة التي حللت محلّها في الأثناء، إنّ إمرأة المنيّر مؤاتية لصحة الشباب والصبايا في عمرنا، وعلى الأخص حين تغيب، ويُسْلم واحدنا نفسه إلى مخيّلته وخيالاتها وصورها، على خلاف نجمة ونورة في حضورهما وغيابهما معًا. واستدرك على قوله، متحفّظًا وشاكًا فيه:

– شو بتحلم بالليل يا ابن عمّي؟ بتشوف نجمة بمناماتك؟ كيف شكلها بالمنام؟ بتكون لابسة؟ مزلطة؟

وأنذرني بإيماءات شفتيه وحاجبيه أنّ فاطمة قادمة وعليه غلق السيرة التي ابتدأها لتوّه. ولم أقارن بين نجمة ونورة وبين أمّ زميلي، ولم أفطن إلى جواز المقارنة، لا في اليقظة ولا في المنام. واسترعى فضولي مركَّب العائلة المثلث والفريد. فوحدها اقتصرت على ثلاثة: الأم والأب والولد. ووحدها لم تشاركها عائلة أخرى في اسمها ولم يشاركها بيت آخر فيه. وعلى رغم فتوّة الأب الظاهرة في وجهه الحليق وحمرة خدّيه، وعدَّها بعضهم علامة على حمّى تصيب المصدورين، وتبرزها المقارنة بوجه زوجته وتجاعيده الغليظة وصفرة بشرته المرضية، ويبرزها الفرق بين قامات الرجال وبين طول قامته الذي يفوق طول معظم رجال الحيّ ويفاقمه لباس الرجل على الدوام بنطلونًا ضيقًا يبرز مؤخرته واجتماع خصيتيه وذكره في جانب واحد، ويعلو جزءًا من ساقيه عند الكاحلين وسترة قصيرة الكمّين – على رغم هذا لم ينسب أحد البيت إلى الرجل. ومن عَرَضَ للبيت في كلامه نسبه إلى المرأة. وابنهما لم يشذّ عن هذه الحال. وتجارة الزوجين، وهي شراء البالة من تاجر جملة من القرى المجاورة الغربيّة، وبيعها بالجملة إلى قرى الجهة المقابلة الشرقيّة من البلدة، ولا يعلم أحد كيف أقنعت امرأة المنيّر التاجر باعتمادها وسيطًا، ولا كيف التقته. وقيل إنّها صاحبة هذه التجارة وتخبّئ رأس مالها في حزامها. ورجلها يتولى حمل الصرر على ظهره من السوق، صرّة صرّة، وهو بادي السرور بما يصنع، ويبادر على رغم التواء رقبته تحت الصرّة، كلَّ من يلتقيهم بالسلام. وروت فاطمة أنّها حين أرسلت في طلب امرأة المنيّر، ووسّطت خديجة، جارة البيتين والاثنتين، وطلبت مشورتها في الاستخدام، منعت الدهشة الوسيطة من ابداء الرأي. ولم تلبِّ المرأة دعوة فاطمة إلى الدخول، وأمرتها تقريبًا بقول ما تريد قوله الآن، قبل أن توصيها بالسلام على أمّها، وتفكّ بعض تجاعيد وجهها وتحبس أسنانها الصفر والمتقدّمة وراء شفتيها المشقّقتين. وأطالت النظر إلى وجه مكلّمتها عند سماعها الطلب المرتبك إلى أن أشعرتها بالخجل. وأجابت أنّها قد تساعد بيت أمّ جواد أسبوعين أو ثلاثة أو أربعة، ريثما يعثرون على واحدة مداومة لا تكون على شاكلة البنتين وتليق ببيتهم. وقالت، قبل أن تدير ظهرها، أنّها لا تريد أجرًا، وحسبها خدمة بيت الشيخ الكبير ورضا والدها في قبره.

وبقي فيَّ من رحيل نجمة ونورة فجأة، غداة مشهد نجمة وهي تفرج، متمهّلة، عن فخذيها وتشد الفوطة المدماة على موضع لقاء الفخذين وانفراجهما أسفل بطنها، وتوشك عيناها الهلعتان على الغور في محجريهما، وترتجف شفتاها الملتويتان والمتشنّجتان، بقي منه ترقّب غامض. فلا أعرف ماذا أترقّب وماذا يكون، إنسانًا أم شيئًا أم طيفًا أم حادثة أم خبرًا، ولكنّني على يقين من مجيئه، وإن على شاكلة لا علم لي بها. فكان في حسباني أنّني أقصد شبّاك الحجرة التحتانية، حيث يُبرّد الماء بعد الظهر في كوز الفخار، أو أقصد الأواني التي تستقي طيور القن منها، وغالبًا ما تجفّ مرّة أولى من النهار قبيل الظهر، فأنسى قصدي بعد خطوات قليلة. ويتراءى لي أنّني أتهادى، لا ألتفت إلى شيء ولا يدعوني إليه صوْب، في ناحية خلاء لا معلم فيها من زرع أو كروسة ممهّدة، أو عمران وبناء يثبت حدًا، ولا أرى أنّني ضائع أو أحتاج إلى دليل.

وأعود قبل أن أبلغ محلًا أو محطة، راضيًا وخاوي الوفاض. ويتهادى إلى جنبي، طائفًا على صفحة سائلة وبارقة، من ضوء ومكان خالصين، وجه نجمة وعنقها الطويل، وجسمها الأبيض والليّن في غلالة لا تكشف ولا تستر ولا تصف، تشفّ عن مادة جسمها. وأرى ابتسامها، وانحسار شفتيها عن لثتها وصفّيْ أسنانها، والناب الناتئ في الصف الفوقي، وحَوَلَ عينيها القليلَيِ الشعر على الجفنين الزهريّين والدامعين، من غير أن ألتفت جهتها أو أضطر إلى ليّ عنقي. وأشمّ الهواء الساكن، وجزيئات منه تدبّ في أنفي وتَعْلق بجداره الداخلي وبأصول الشعر التي تغطي الجدار. ولا أخلص من الشمّ إلى رائحة بل إلى ما قد يكون عصارة نجمة، أو رحيقها الأخير والمركّز إذا هي طويت بعضها على بعض، واختصرت أجزاؤها في نوى تحوي ما تشتمل عليه الأجزاء من نُطَف، وأُذيبت النوى إلى أن تبلغ نواة أخيرة. وأرى من أيّ مسالك دقيقة وملتبسة تمرّ الخرقة ودوائر امتقاعها وبللها، قبل أن تبلغ النواة الأخيرة. فهي ليست خرقة نجمة، ولا تحفظ دمها النافل والفائض عن دم يروي أنسجتها، وغددها، ووظائف الغدد الحيوية، ويطّرح الزوائد. ومن الزوائد ما كان ليكون مادّة حياة لو وافى موعدًا لم تَتَّعِدْه رغبتان تسكنان جسدين محمومين، لا علم لواحدتهما بالأخرى، ولا علم لها بنفسها وبوجهها أوّلًا.

ونجمة ولدت من الرجل العاري الرأس، والأعشى النظر وراء زجاج نظاراته السميكة، المهلهل الجسم العظمي في وزرة جلدية خَلِقة، والجالس على شاكلة دمية حيّة ومتراقصة الأوصال في المستطيل الضيّق والمشرف من علوّ درجتين حجريّتين على الطريق إلى يمينه. وهي لا تشبهه على أي وجه ظاهر. وقد تشبه من ناحية خفيّة أمًّا لا تكاد تُرى وقتًا يكفي من يراها ليثبت لها شكلًا يتذكره ويصفه. ويختلف الناس، العمّتان ومهدي ومريم أخته وسناء ومها وخديجة ونازك ومن أنساهم من غير قصد، في تعرّف الأمّ حين يرونها أو يحسبون أنّ من يرونه هو أمّ نجمة ونورة. فإذا صادف ومررنا في موكبنا، فاطمة في المقدمة في تايور من قطعتين، وغطاء رأسها الأبيض الرقيق يكشف نصف شعرها الأسود المالس والأشيب، وبطنها المنتفخة تدوِّر قامتها الطويلة، ووراءها صفنا المتعرّج، ونحن نقصد أهلًا يقع بيتهم على خط زياراتنا المألوف، واعترضت الموكب من مسافة أمتار أمرأة في فستان قطني رافل وعريض، وتلفّ رأسها ورقبتها وذقنها وفمها إلى أدنى أنفها بغطاء سميك البياض، وسلّمت علينا بإيماءة رأس مختصرة وتمتمة غامضة ورقّة أجفان، لم تجمع العمّتان، وهما تجتهدان الرأي فيمن تكون المرأة المسلِّمة، على من تكون هذه.

فقالت زينب إنّها امرأة الإسكافي جارنا ووالد نجمة ونورة. وشهقت فاطمة منكِرة، ووصفت أختها، المرتبكة والمتأتئة تحت وقع الإنكار الحاد، بالعمى والخلط بين نساء الناس والسهو، على شاكلة من أخذ لبّهن استحواذ شاغل واحد عليه. وترضى زينب بالرجوع في دِلالتها لقاء نسبة فاطمة المرأة وتسميتها. فلا تتردّد فاطمة وتقول إنّها بلا ريب فلانة، امرأة الرجل الذي ينزل على بعد منزلين من بيت المنيّر على طريقنا. وهو ترك البلدة منذ سنة إلى المدينة الكبيرة، ولم يزر في إثنائها أهله، ولكنّه يواظب على إرسال المصروف. ويشاع أنّه تزوج على امرأته، ولا يجرؤ على مصارحتها. والعلامة على صدق ما تقول، تحتجّ فاطمة، وعلى غلط زينب، هي عقد الذهب المقلّد الذي تلبسه المرأة فوق أطواق الغطاء على عنقها، ويتدلّى منها حجر أزرق على شاكلة كفّ منبسطة ومقطوعة عند المعصم في وسطها عين. فأنّى للإسكافي وامرأته الخفيّة أن يدلّا بشيء مثل هذا مصدره إمّا المدينة الكبيرة وإمّا عتبات الزيارة. والوجهتان بعيدتان وليستا في متناول الرجل وامرأته.

ونجمة، حين لوّحت بالخرقة وعرضتها على فضولنا ولهفتنا ثم طوتها، أو هي حاكت طيّها وأهوت بها على مفترق فخذيها وأسفل بطنها، كانت تعرض دم امرأة ليست هي، ويرجح أن يكون دم واحدة من النساء اللاتي يقمن بدارنا إما إقامة ثابتة أو إقامة زيارة، على شاكلة جميلة بنت عمّي أبي جمال البكر، أو أمّها أو بنات عمّي الزائرات شطرًا متقطعًا من تموز وآب، والمتنقّلات بين دار جدّهن لأبيهن ودور جدّتهن لأمّهنّ وخالاتهنّ وأخوالهنّ في بلدات متفرّقة. والتحرّي عن المصدر، عن تلك التي استفرغت بعض دمها في الفوطة، قبل أيام قليلة من يوم الغسيل أو صباح هذا اليوم، وهي فكرة لمعت لحظة خاطفة طوفتُ في أثنائها بالطيّات الحميمة وبالنتوءات البضة من أجساد نساء أهلي، مرَّ التحرّي على صورة رغبة بارقة أطفأها بلوغها غايةَ برقها. فكأنّ نجمة، وبجنبها وفي مقابلتها صداها الآتي واحتياطُها، نورة أختها، استعارت دم امرأة أخرى، لا يهم من تكون، ووهبته نفسها، ودعتنا، من غير تمييز بنت من ولد، إلى قبول الهبة المجتمعة والمتعاظمة، وإلى الغرق في تضاعيفها المتناسلة وفيضانها الوشيك.

ولم تكن هذه دعوة إليها وحدها، إلى جسمها الرقيق كالطيف، وإلى الموضع الظاهر والمتواري منها. فالظنّ أن إسكافيّ الحيّ تمدّد، لاهثًا ومحمومًا، ليلًا على طرّاحات نومها، بينها وبين أختها وأمها، وأنّ أصابع خليل الحاج زيد الممتلئة والكثيفة الشعر، تتبّعت غضون عنقها ومكثت بها، هذا الظنّ غمس مواضع نجمة وجسمها في مياه نهر مضطرب من النظرات والالتفاتات والتثنّيات والكلمات لا يرى الواقف على ضفّته الأولى ضفّته الثانية. فمياه نجمة ترتمي في مياه النساء الأخريات، وعلى نحو ما استعارت هي دمهن، لا شك في أنّهنّ استعرن، في الخفاء، دمها. ولا شك في انتقال عدوى دعوتها، أو ما تصوّر في صورة دعوة، إليهن. وهنّ، في هذا المعرض، بنات عمَّيَّ وبنات الأعمام، على أوسع معنى تقبله العمومة أو ينسب إليها. فبنات أبناء الأخوال، أخوال أبي وأعمامي، وهنّ من العائدات أيامًا قليلة في الصيف غالبًا من المدينة الكبيرة إلى البلدة، وإلى دور أجدادهن، صرن بنات عمّ في المخاطبة أحيانًا قليلة، وفي الخبر والرواية، أحيانًا كثيرة. ويتبادل الأقارب النوم بعضهم عند بعض.

وشاء حساب غريب، أو شاءت صدفة أشد غرابة أن يقع عليَّ قضاء ليلة أو ليلتين في بيوت الأقرباء، بيت خالي الشيخ أو بيت عمّتي بديعة المتزوجة في آل جمين، عائلة ابن خالتي أبو هادي ولا يدعى أحد من أولاد بيت جدّي، لا من الصبيان ولا من البنات، إلى المبيت في بيوت الأقرباء. وإذا بات عندنا ليلًا أحد مرّة صادف فكان واحدة. وكانت الواحدة حفيدة أحد الأخوال، وهو سيّد هذه المرّة وليس شيخًا وليس الشيخ بالأحرى. وعمّت شبهة الخرقة ودمها، الشهريّ على الدوام في الكلام الشائع، كلّ البنات اللاتي تزيد سنّهن عن سنّي، ويدعوني ميل إليهنّ. والعلامة عليه شوق يكسر القلب ويعصره، وخواء أليم في الصدر، إلى تعظيم خباياهنّ وتصوّرها على نحو كهوف في سفوح الجبال العارية تلجأ إليها أنهار غائرة. والنساء التامّات النسوية لا يحوم شكّ في نزفهنّ من غير انقطاع دمًا قليلًا، ربّما لا يرى عادة، وربّما يختلط بسوائل أخرى، مثل اللعاب والعرق، ويذوب فيها وينتقل إلى قشرة الأرض ويشيع في جوفها، ويغيب في عتمتها.

الفصل الخامس

لم يبدُ على أحد من خليط الرجال والأولاد والنساء الخارجين في لباس النوم من بيوتهم القريبة، والمتجمهرين في وسط حارة بيت الجمعاني، عند فم زاروب فرعيّ يقيم به أهل خديجة ونازك، متثائبين، يملأ عيونهم ويثقل أجفانهم العارية نومٌ أودع في زوايا مآقيهم عمشًا أصفر ودبقًا، ولم يقرّ بعد في أبدانهم ورؤوسهم – لم يبدُ أنّ أحدًا يعلم متى أفاق، وترك فراشه وسأل عن مصدر الصراخ والعويل، وكأنّه يكلّم نفسه، وركض خارجًا قبل أن يعلم شيئًا عن داعي ركضه، وإحدى قدميه تلتمس موضع الشحاطة الثانية، ويلهث وهو لم يبذل جهدًا ضعيفًا بعد. فأنا لم أفرّق بين وقت حسبت نفسي فيه أخوض في مياه بحيرة آسنة وحالكة، تحفّها جذور أشجار غليظة تتسلّل كالحيات على الضفة الموحشة، وبين تخلّلي، في عتمة يجدّد ظلمتها فانوسان أو أكثر يختنق نورهما الضئيل بين أقدام المحتشدين، جمعَ أهل الحارة المضطربين.

وبينما أركض العشرين مترًا أو أقلّ، من فراشي إلى ملتقى زاروبَيِ الحارة المعوجّ، نبّهتني طراوة الهواء إلى استعجالي المشي، وإلى قصدي مكانًا لا أتصور بدقّة موضعه، وأستدلّ عليه بحلقات المتحلّقين، وهمهمتهم، وعبارات قسماتهم. وحين بلغت، في الجمع المائج، محلًّا قلت إنّه يمكن منه معاينة الحادثة التي هزّت أهل جزء الحيّ الواقع على باب دارنا، ورؤية أصحابها رأي العينين، وحضور فصولها منذ أوائلها وابتدائها إلى ختامها، وانفضاض الناس وتفرّقهم وإيابهم إلى فراشهم وتبدّد أصداء الواقعة أو الفضيحة، وهو الاسم الذي علق بها، في رؤوسهم. وحين أردت الإحاطة بالمشهد الذي أقف في ناحية منه، قريبًا من باب أبي حسن كريم وعلى بابه هو وابنه وزوجته ونعيمة

صغرى البنات وفي مقابلته بيت الإسكافي وبنتيه، رأيت أنّنا أثاث حمله الليل معه في انتقاله من بيت إلى بيت جديد، وينتظر في الأثناء ترتيبه وتوزيعه على المحالّ المناسبة.

وحسبت حين أبصرتُ الجمع ودخلت فيه، وشققت طريقًا إلى مهدي ابن عمّي الشيخ بين المتجمهرين واللاغطين بنتف كلمات وحروف متفرّقة، أنّ ما وافيته لتوّي ليس ما ركضتُ لاهثًا ومضطربًا لأراه وأرتمي فيه. ومن خلتهم حشدًا غفيرًا وأنا أفيق من نومي وتضجّ في رأسي حشرجاتهم المخنوقة، وأنّاتهم الكسيرة، لم يفق عدد العشرتين، وسبق أن رأيت معظمهم في يوم من الأيام، رائحًا أو غاديًا، منعطفًا أو شاخصًا، موليًا ظهره أو مستقبلًا بوجهه. وتقريبُ المجتمعين رؤوسهم بعضهم من بعض، الحاسرين وهم الكثرة، والمناديل على شعور بعض النساء، وقلّة من طاقيات الحجاج أو الكهول، شبَّههم بقطيع ماعز متحلّق حول ماء قليل، على ملاحظة مهدي الخافتة. ومعظمهم يشخص إلى سطح البيت الذي يجاور بيت أبي حسن كريم، إلى الجنوب منه، وإلى سلّم الخشب المخلّع المستند إلى حرف السطح.

وهو ليس بيتًا واحدًا، بل بيتان وربّما ثلاثة، على رغم اتصال واجهة حجريّة، لوَّن المطر بالأسود المائل إلى خضرة خفيّة مثلثات رسمها نزوله على الواجهة، قاعدتُها قريبة من السطح وقمّتها المقلوبة بمحاذاة النوافذ. والبيوت تقع في صدر الزاروب، على الجهتين اليمنى واليسرى وفي الوسط بين الجهتين. ويخالف حجرُها المستوي والأملس، ونوافذها المحكمة الغلق بالمزاليج، وأبوابها التي طُليت بدهان قاني الزرقة، طينَ حائط أبي حسن كريم المتعرّج والكثير التبن. ويقوم البيت إلى جهة الشرق، بجوار دار عمّي الشيخ. ويحدّ البناء الذي صبّت أساساته في الدار، وارتفعت بعض جدرانه، ولم ينجز، واستُعيرت إحدى غرفه اسطبلًا تبيت فيه بغلة عمّي الشيخ. ويرى الداخل إلى دار عمّي، في زاوية الحديقة الجنوبيّة الغربيّة، جزءًا من حائط رُصف بمستطيلات الإسمنت، ويقول عمّي كلّما وقعت عيناه عليها إن «بيت الحامول داروا لنا ضهرهن»، ويطرق، كأنّه وحده يعلم معنى قوله.

وجوار بيت الحامول القريب لم يقترن يومًا بزيارة، ولم يتخطَّ السلام. ولم يرِد اسمهم، وهم ثلاثة إخوة، في خبر عن عزاء أو أخذ بالخاطر أو مشاطرة فرح. وأظنّ أنّ اسم العائلة اقتصر عليهم. وانفراد أسرة واحدة، تقيم في

منزل واحد بحيّ الجمعاني أو بالدائرة القريبة من دارنا ودار عمّي الشيخ، حال شائعة. وإذا استثنينا عائلة عمارة، أي عائلتنا، حال غالبة. والحامول بيت واحد، على رغم الإخوة الثلاثة. ويتقدمهم بكرهم ومثالهم، صورة ولباسًا ومكانة. فهم واحد، محمود، والاثنان الآخران أو الباقيان هما أخواه، ولا يُذكران إلّا منسوبين إليه. والثلاثة، أو محمود وأخوا محمود، تجار خضار. وكبيرهم معلم خضرة، وهذا لقب يكاد لا يُسمع ولا يُقال. ويتوسّط محلّهم الكبير في ساحة البلدة، والبسطة العريضة أمام المحلّ المهيب وذي الأبواب الحديد المتحركة الثلاثة والمطلّة على ثلاث جهات الساحة، المكانَ الطويل والضيّق.

وغطّى الإخوة البسطة التي تحوط أبواب الحديد المرفوعة بخيم من خيش وكرتون وبلاستيك. وصفّوا بأيديهم خضار المواسم وفاكهتها، إمّا في صناديق الخشب، أو السحاحير، المليئة إلى وجهها، وإما أخرجوها من سحاحيرها وفردوها، عارية وفي متناول الأيدي والعيون مباشرة، على رفوف أو مصاطب بعضها من خشب وبعضها الآخر من تنك. وفرشوا قطع قماش، من خيش الشوالات السمر، عليها، على سبيل التوفير، على قول جدّي الشيخ متهكّمًا وعابرًا. ووحده جدّي في وسعه أن يتكلّم في أهل بيت الحامول، ويجعل منهم موضوعًا. فهو تردّد أعوامًا طويلة، وقياسًا على الأعوام التي شهدتها تردّد عقودًا، على معرض خضارهم وفاكهتهم، وليس على دكانهم، على اعتراض فاطمة حين يسمّي أحد المحلّ دكانًا وتصحيحها: «ليش هوه محل؟ معرض!».

ومحمود، وهو حاج في أحيان، وخالٍ من الحجة في أحيان أخرى. وعلى كلا الوجهين لا يصوِّب محمود، أو أبو سليمان، أو الحاج محمود اسمه، كيفما سمّاه من سمّاه – استقبل مجلسَ بعض معمّمي البلدة، أي شطرها الشرقيّ، وحاجّها ومتقاعدي تجّارها ومتأدّبيها اليومي. فقصد هؤلاء، وهم يعدّون نحو العشرة في المجلس الواحد، المحلّ في وسط الساحة، وجلسوا على كراسيه الواطئة والمخلّعة، المنتشرة في الممرّين أو الثلاثة بين أجزاء البسطة وفروعها. وأبقوا الممرّ العريض الذي يتوسّط الأجزاء المتفرّقة خاليًا. فيجلس عالم البلدة الأول، وعمامته الخضراء الكبيرة على رأسه الحليقة وفوق جبهته البيضاء العريضة التي تعلو وجهًا شديد البياض، ولحية رق شيبها وشفّ عن ذقن الرجل – في صدر مجلس لا يُعلم أين يبدأ ولا أين ينتهي. ويلمّ ذيل عباءته السوداء إلى حضنه، على ما رأيته يفعل في المرّات التي صحبتُ جدّي فيها

إلى المجلس. ويجلس الجلساء حيث يسعهم الجلوس، وحيث تتّفق مواضع الكراسيّ المتنقلة على هوى المشترين والمعارف الذين يمرّون بالأخوة الثلاثة، وبكبيرهم. ولولا محادثة الجلساء بعضهم بعضًا، ومجيء أضعفهم مكانةً وفي ذهنهم أسئلة سهروا على صوغها، ويتوسّلون بها إلى رفع صفة التطفّل على المجلس عنهم، لما حسب أحد أنّ هؤلاء المسنين يعقدون حلقة أو تجمعهم ندوة أو مداولة.

وحين عودة جدّي من مجلسه ظهرًا، ووراء نظّارتيه اللتين تغشى الظلال والأضواء زجاجهما، غالبًا ما يلتمع في عينيه بريق سخرية شامتة يمهّد لروايته بعض أخبار المجلس. وتتناول هذه الأخبار العالمَ المتصدر وزلّاته أولًا، ثم المتطفّلين على المجلس. فجدّي يرى أنّ السيد يخطئ في الإعراب، وفي فهم نحو الألفاظ في الجمل وتقديرها، أخطاء يتجنّبها تلميذ فهيم في الصف الابتدائي الخامس. فيتعمّد سؤالي، أنا القريب من هذا الصف، عن مسائل واضحة، ويسارع إلى الإجابة عنها، حَذَرَ إخفاقي وتكذيب زعمه، قبلي. ويخلص من إجابته إلى تحقيق رأيه في علم العالم، وكأنّه أمام البرهان على جهل الرجل. ويوسع الرأي من اللغة إلى الفقه والفتوى والدين عمومًا. ويعزو جدّي مكانة عالم البلدة ويختصرها إلى أخوّته بأخ له في حاضرة أهل المذهب، في الصلاة على الموتى وتحرير عقود الزواج، والإفتاء النادر في قسمة الإرث، وقبض الخُمس، والجلوس في مقدمة الصفوف في مجالس العزاء، والتزام حضور المجلس في محلّ محمود الحامول انتظارَ السيد قبل تداولهم الكلام. ولا أثر من حسد في ملاحظات جدّي على السيد. وهو لا يجمل ملاحظاته التي يضمّنها أخباره في رأي، ولا يقول إنّ السيد لا يستحقّ مرتبته. ومثل هذا الرأي ممتنع قوله بل التفكير فيه على جدّي. فهو لا يرى لقب عالم البلدة، ويقول الرجل الذي عِلْمُكم به، ولا حالَ صاحب اللقب، مرتبة أي أمرًا يعتدّ به. ومثل هذا الرأي، وقد يكون أقرب إلى تعليق الرأي، يصف تناول جدّي أمورًا عاديّة وكبيرة أو استثنائيّة كثيرة. وتحفّظه في معظم المسائل، وتردّده حتى في النطق بجملة مباشرة، وتطويله تركيب جملته، واعتراضها ما وسعه الاعتراض بجمل فرعيّة واستطرادات متداخلة يعصى سامعه تعقّب متعلّقاتها، هذه كلّها كانت تدعو فاطمة غالبًا، وجدّي في بعض الأوقات، إلى اليأس من فهم ما يريده، والشكّ في إرادته شيئًا أو في رغبته في الإعراب عن إرادة. فتطيل

عمّتي تأمّله وهو يتكلم، وتشخص إلى حركات شفتيه وكأنّها تقتصّ أثر بهلوانات طائرة ورق في مهبّ ريح صروف، قبل أن تصوب التواء رأسها وتستعيده وتقول: «عليك خير يا بيي... وعلينا!».

ولم يشر جدّي مرة، وهو يروي أخبار مجلس محلّ الخضار في الساحة، ويسخر برفق من أدعيائه وأسئلتهم الكبيرة والعويصة مثل لماذا خلق الله الإنسان يا مولانا، ولماذا يمتحنه يا شيخنا، ولماذا يؤجّل جزاءه يا أستاذنا – لم يشِر إلى كلام تكلّم به محمود، وهو اسم الرجل الوحيد الذي يسمّيه جدّي به، أو أحد أخويه. وعندما صحبني جدّي في المرة الأولى، ومازحني قائلًا إنّ مجلس المعمّمين والحجّاج والتجّار من أصحاب الطاقيّات، وثرثاري البلدة، يستقبلون اليوم جليسًا جديدًا وموقتًا على ما يأمل. وقعدت بقربه، واحتميت به وبعصاه. لم يفتني أنّ أحدًا من أصحاب المحلّ لم يجلس مع الجالسين، ولا حادثهم أو زاد على تبادل السلام وإيّاهم. ومضى الثلاثة على تصريف عملهم. فحيّوا مارّةً، وبادلوا آخرين التحيّة، وردّوا على مفاصلة زبائن وزانوا في أكياس الورق مشترى زبائن وفحصوا بضاعة جديدة وفرشوها وودّعوا رائحين. وظلّوا في الأثناء شاخصين إلى جوار المحلّ، ونقّلوا العين بين بسطتهم وبين مطلات الطرق التي تصبّ في الساحة. وصنعوا هذا وسواه من غير تخصيص الحلقة المنعقدة في محلّهم بانتباه، ومن غير برمٍ ظاهر.

وكان يغلي على بابور غاز نائص، تحول يد أحد الإخوة بين الوقت والوقت دون لفظه نَفَسه، على طاولة خشب عالية داخل المحلّ المسقوف، إبريقا شاي، واحدهما، أزرق كحلي من السيراميك، يعلو الآخر، الرمادي الوسخ، ومن ألومنيوم تحوّل تنكًا. وحول البابور كؤوس زجاج صغيرة. ومرة واحدة عُرض على السيد، وعلى الشيخ، جدّي، شرب الشاي، والاثنان شكرا الدعوة واعتذرا. وفي طريق العودة، يومها، سألني جدّي، مباسطًا وممتحنًا، عن رأيي في كرم آل الحامول وضيافتهم، وعن اشتهائي شيئًا من فاكهتهم. فلم أفهم قصده ولا ما يجمع الكرم والاشتهاء. فسكت على بعض عتب على خذلاني افتراضه في حفيده نباهة بقيت هامدة، ولم يلحّ ولم يشرح.

وفي المرات التي صادفت فيها الحاج محمود، في الطريق إلى محلّه أو إلى بيته ومعه أخواه أو وحده في أحيان أخرى، غلب تجهّم وانقباض شديدان على وجهه العريض والحاد السمرة، تحت كوفيّة وعقال أسودين قاتمين. وثيابه

كلّها، وعلى شاكلتها ثياب أخويه، لا تخلط الأسود بلون آخر: لا سترته ولا قميصه ولا شرواله ولا ما يظهر من كلساته ولا حذاؤه اللامع الجلد. فكأنّ الثلاثة يتقيّدون، على قول فاطمة، بزَيٍّ مدرسي، أو كأنّهم، على قول مهدي، درك غطسوا في الزفت، أو في الحبر. ويستدرك مهدي: الزفت أشبه بغلظتهم من الحبر الذي يليق بالمتعلمين الناعمين من أمثالنا. ويضحك على أمثالنا، وينبّه إلى ذريعة ضحكه، ويضحك على تنبيهه، ويتمادى إلى أن تجرّ قهقهته العالية إلى الابتسام زينب ورضا، إذا لُقيا مصغيين إليه ولم يهربا من ثرثرته، على قولهما، وجدّتي من طريق العدوى ربّما.

ومهدي وحده – في أحاديثه على الحائط بين دارينا، وفي مسارّاتنا على حدة أو مع ابن أخته فريد وابن الشيخ كاظم أمين وآخرين، وهو يخطب فينا مجتمعين ويعدّنا للانضمام إلى حزبه أو حزب أخيه الأستاذ – ألمح إلى الحاج محمود. وأرفق على الدوام إلماحه بالقول إنّه لا يقصد محمود الآخر، الحاج الحقيقيّ، صاحب الدكان الذي ندين له كلّنا بشيء من لحم كتفنا. وما يلمح إليه ابن عمّي من محمود، ويتعلق به، هو زوجته.

والإلماح إلى الزوجة، زهرة، وحده، من غير شرح ولا تداع أو قصّ أخبار، ما إن يبادر إليه أحد بالإسم أو بالصفة، مثل «الدوّارة»، أو «الحيّة»، أو «المكحلة»، أو «أمّ سبع وجوه»، حتى يخيّل لمن لم يخفَه الإلماح، وفهم الإشارة، أنّ أبوابًا مغلقة على أسرار عصيّة فُتحت له. فيحسب أنّه يستفيق على عتمة سرداب عميق تتلألأ في جوانبه أنوار هاربة، يتراءى للرائي أنّها تثبت جزءًا ضئيلًا من ثانية بموضع لا يقرّ على حال. وذلك على شاكلة الشطر الأعلى من امرأة ترشح ملامحها وبشرتها ألوانًا تذوي سريعًا في دوائر ظلمة تتمدّد وتنتشر كالغيم في السرداب، وفي رأس الناظر وعينيه. وإذا غالبتُ عيّي وحيائي من جهر بعض ما أحسّه نحو نساء يجثمن عليّ بكل وطأة رغباتي الأليمة والجامحة إلى حدود جسمي، وقد لا تتخطّى معرفتي بهنّ لحظة صَعْقي وأنا أتصفّح نظرتهنّ الوليدة والمليئة بالسؤال – وقلت لمهدي وحده أنّي أرى امرأة محمود جنّية من الجنّ، وتسكن رجلها وهو مجنون بها، ولولا جنونه لم يبقها زوجة له، ولتزوّج امرأة غيرها تلد الأولاد، أجاب مهدي، غير مصدّق أنّني أعني جنّية حين أقول جنّية، متردّدًا: هذه أوهام عمّتك زينب أو خيالات بنات عمّك المهاجر وكتب الشعر التي يقرأْنَها.

وحين أفقتُ على تبادل عمّتيَّ وبنتيْ عمّي وأمّهما الاستفهام، في الغرفة الواحدة وبين الغرفة والغرفة، عن مصدر الصراخ والعويل وراء بوّابة دارنا، أبدى بعضهم الهلع خوفًا من أن يكون السبب مكروهًا وقع لعمّي الشيخ، على رغم حمرة خدّيه ورواحه في كلّ يوم إلى أرضه على التلّة المقابلة راكبًا بغلته ومجيئه منها مع ذهاب الضوء، على ما ذكرت عمّتي مُطمئنة روعها في هذه المناسبة وفي مناسبات أخرى. وقمنا كلّنا من فراشنا. وخفتت الأصوات حرصًا على نوم جدّتي وجدّي. وقلَّب جدّي خدَّيه، وطاقيّة النوم على رأسه الحليق، يسارًا ويمينًا على مخدّته، ووجهه ينمّ بالامتعاض فوق ما ينمّ بالألم. وعلّلت فاطمة تقطيب جدّي حاجبيه وتغضينه جبهته، وانكماش فمه تعويضًا عن فراغ وجبة أسنانه، وغمغمته أجزاء كلمات متقطّعة، بشكواه أوجاعًا واشتراكات معدية قد تكون القرحة السبب فيها. ونسينا، حال خروجنا متثائبين إلى المصطبة، الداعي إلى ترك النوم. فأوصت زوجة عمّي ابنتيها بالاحتراس من ندى الليل واستظلال العريشة، ثم بلباس ما يقي البرد. وسمعت من تسأل همسًا عن موعد مجيء عمّي من المدينة، ومن يحاول أن يحزر محلّ قدّاحته الأخير قبل نومه ويسأل عمّا إذا كان إشعاله سيجارة في هذا الوقت جائزًا. وأوصاني عمّي وأنا أهمّ بالركض وثنّت عمّتي على التوصية بالانتباه إلى البرد، وإلى حالي، وبالبقاء قرب الدار.

وعند مدخل زاروب بيت الحامول، اجتمع رجال ونساء شاخصون، وأولاد يروحون ويجيئون بين أهلهم، ويلاحق بعضهم بعضًا ويضحكون. وانبعث نور مصابيح الكاز المحمولة والمتأرجحة من بين أقدام الجمع، وأضاء عَرَضًا طرفًا من ثوب، أو كتف، أو ذقن، قبل أن يخبو بهذا الموضع ويظهر بموضع آخر. وفي صف متقدّم من الجمع، أبصرت من الخلف ابن عمّي الشيخ، مهدي، في دشداشته. وهو كان يتكلّم كثيرًا عليها، ولا يلبسها إلّا في النهار، مكوية، ويعدّها علامة على دخوله في مجتمع الرجال ذوي الاعتبار. وبدا طويلًا بعض الشيء، يعلو رأسُه المنحني أغطيةَ الرأس والطاقيات والكوفيات وشعور الفتيان حوله. وحاذيتُ الجمع إلى أن بلغت الصفّ الذي يقف مهدي فيه، وشققت طريقي القصير إليه، ووقفت إلى جنبه ووراءه قليلًا، من غير كلام ولا تنبيه. فبقي مستغرقًا في تأمّله، شاخصًا إلى موضعٍ أمامه، لا أعلم إن كان ينظر إليه ويفحصه أم يطوف على غيم، ويدير رأسه نصف استدارة صوب مصدر صوت

إذا علا أو نشزت جلبة. وحين مال بوجهه إلى قدميه، في مشايته، التفت إلى جاره اللصيق به، وكنت بينهما تقريبًا، اتّسعت حدقتاه الخضراوان وهو يحزر الواقف إلى يمينه ويثبته بعد تردّد دام جزءًا من ثانية. ولجمت سروري للقائنا حيث نحن، ومع سروري رغبتي في سؤاله عن الحادثة. لكنّه وضع يدًا خفيفة على كتفي وهمس في أذني:

– بْيِسْوَشْ نحكي هلأ... بعدين بخبرك...

فسَكت خائبًا وكارهًا مهدي الثرثار الضاحك عادة، والعاجز عن ضبط استرساله، ومحاكاته من يروي مساخرهم، ويتعدّد على عددهم، حين يباشر رواية حكاية تتناول تفصيلًا ضئيلًا من حادثة سخيفة وقعت لمجهول أو مجهولة نكرة. وهو، الآن، في موقف أخرج أهل الحارة بعد منتصف الليل البارد من مأواهم ومناماتهم، وحلَّقهم جمهورًا ينهبه الفضول إلى معرفة أخفى خفايا بعض أهل الحارة، يتذرّع بما يجوز الكلام فيه وما لا يستوي أو يستقيم فيه خبر. فما عدا صدور صراخ وعويل عن بيت الحامول، ومنزل محمود على وجه الضبط، وترجيح زهرة زوجته الجميلة والعاقر سببًا، والظنّ في دور للسلم الخشب الطويل المسند إلى حرف واجهة بيتهم، والمفضي إلى سطوح بيوت كثيرة ومتصلة إلى جوار ساحة أو حاكورة تتوسط بعض حارات البلدة الشرقية، ويقيم بمعظم بيوتها آل جمين – ما عدا هذا، وهو من تخمينات فاطمة وزينب ورضا ومن شبهات تطوّف في طرقات الحيّ وبين دوره، كنت أجهل ما قد يقود إلى علم بعلّة التجمهر والشخوص إلى البيت الساكن.

وعلى حين ساد صمت مكره وواجم الصفّين الأوّلين أو الصفوف الثلاثة الأولى حولي، سرى وراءنا لغط مائج. واختلط في اللغط خطوُ قادمين جدد يسألون بصوت عالٍ في أوّل الكلام، لاهثٍ أو متهدّج أو عميق، من سبقهم، عمّا رأوا أو حصل قبل وصولهم، وجلبةُ مغادرين نفد صبرهم، أو ضعف اهتمامهم وهم ينتظرون في الأثناء، ويشرحون للقادمين المستفهمين ما استنتجوه في أثناء وقوفهم وشهودهم. وسمعتُ حيث أنا امرأة تولول وتضرب بكفّها صدرها، وتقول:

– صحيح إنّه الحاج محمود أوَّص بالجفت على زهره؟ وماتت؟ وأرادت المضيّ على رثائها وانتحابها على زهرة:

– ... والله مضلومه يا زهره...

فقطع صوتان أو ثلاثة مطلع الندب:

– ... لاه! لاه! شو ةَ الحكي يا أم أحمد!

– ... بيجوز الواحد يسدّئ هايك... شو ما انحكى؟

– ... فيها دم الحكايه! يئوم يجي خي زهره أو ابن عمها...

فهدّأ أحدهم قلق المتكلّم، وأخبره همسًا أنّ زهرة وحيدة والديها المتوفَّيْن، ووالداها ليسا من أهل الحيّ وربّما ليسا من أهل البلدة. وكنّا، من في الصفوف الأولى، استدرنا لنرى من يتبادلون القول، واستدار الجمع كلّه. فمال مهدي عليّ وعرّف بالمرأة المولولة. وعلى زعمه هي أخت ياسر الأعرج من أمّه، وما بينها وبين زهرة قد لا يتعدّى استضافتها زهرة مرتين أو ثلاثًا في بيتها بالحوش، في أثناء طواف زهرة على وجهها في بعض نهاراتها. فلماذا تتنصّب بهذه الحال للمطالبة بثأر زهرة..؟ فسأل مهدي:

– تار شو؟ حدًا سمع صوت سلاح؟

ومن غير أن تلتفت نحو مهدي أو نحوي، شهدت امرأة سمينة بقربنا، حسبتها لوهلة أم خديجة ونازك على رغم قصرها:

– ... زهره هيّاها جوه مع الحاج محمود ومع إخوته ونسوانهن. فبدأتُ سؤالها:

– شو عم يعملوا؟ شو صار؟

ولما لم يُجب أحد، لا المرأة ولا مهدي، وهذا مَلَك انتباهه صوت رجل مبحوح بدا أنّه يصدر عن بيت الحامول، خلصتُ من انصرافهما عن الجواب إلى أنّ الخوف على زهرة من شيء يتهدّدها – ليس أقلّ من موتها الذي ينمّ به جمالها المتبرّج والآخذ في الذواء – قد لا يشغل الكلّ. وقد لا تكون العبارة عنه في صيغة سؤالي مناسبة. ولماذا أخاف أنا أو يخاف غيري موتها؟ فالصوت المُعوِل الذي دعا من سمعوه، أو خيّل إليهم أنّهم سمعوه، إلى استجابته، والحضور إلى باب بيتها، هو من غير شكّ صوتها، وندّ عنها وهي حيّة. وانقطاعه أو خفوته معناه أنّ فصلًا آخر من المشاجرة بينها وبين زوجها، وأهله معه، ابتدأ. وهذا الفصل قد يقتصر على الكلام، اللئيم والجارح على الأغلب. ولا يتعدّى الكلام إلى لكمة بالقبضة، أو الأصابع المرسلة، على الكتف أو الساعد، أو إلى صفعة بقفا اليد على الخدّين البارزين اللذين تغطي زهرة شحوبهما ببودرة حمرة ظاهرة، أو على الفم الواسع والرقيق الشفتين الزهريّتين ووراءهما،

صفّا الأسنان العريضة والمتّصلة البياض. وهو لا يتعدّى الكلام إلّا في حمّى الغضب والعتب.

وآذن الصوت المبحوح بتتمّة تخرج على الجمع الصغير والمتفرّق بما يستجيب رغبته في معرفة السبب الذي جمع أهل الحيّ على التحلّق والانتظار. ولم يكتم متحلّقون منتظرون وقتًا طويلًا فراغ صبرهم على جهلهم بما ينتظرون. فجهر بعضهم مضطرًّا، حدستُ، على خجل واعتذار، مغادرة تشبه الانسلال. فألقوا «السلام عليكم»، وكأنّهم يلقونها على من يعلمون أنّه لن يسمعها، وعلى سبيل رفع العتب، ومشوا مطرقين إلى منازلهم. والتتمة المرجوّة من الصوت تأخرت، ونُسيت في ثنايا الحوادث الضئيلة التي ائتلف منها انتظار المنتظرين، ووصل بينهم، وجمعهم بعض الوقت تحت عباءته. وجدَّد الانتباهَ تمايل ظلال مائيّة على سقف بيت محمود، لم أره ولا أظنّ غيري رآه مباشرة. فما شاهدته هو التماع شُعَب الأخضر فالأحمر فالأصفر في الشبّاكين اللذين يعلوان جدار الدار، على شاكلة نصف دائرة تزيّحه أضلع تصدر عن مركزه.

ولم تكن هذه النوافذ، وهي ثلاث على الواجهة التي تستقبل الشرق واثنتان إلى الجنوب، في أصل الدار حين أُنشئت، بل أضافها محمود قبل أربعة أو خمسة أعوام وربما سبعة، غداة سفر طويل دام أشهرًا، قال إنّه زار في أثنائها العتبات والمراقد. ولم يقتصر على تلك المتعارفة والرسميّة. فزار مدنًا أخرى يزعم بعضهم أنّ تربتها تواري عظام المطهّرين. ولم يمتحن أحد صدق رواية الحاج. وهو حين يلقّبه بعضهم بالحاج إنّما يقرّون له بصدق الرواية أو يظهرون الإقرار. وبعض آخر لاحظ عابرًا أنّ الزائر المفترض لم يعد من رحلته الشاقة والطويلة بما يعود به أمثاله. فلا وزّع المنّ والسلوى، ولا مسابح استخارة صحيحة، ولا سَجْدات جبلت من التربة المقدسة وتعفّر عليها الجباه المتلهّفة. ولا تَخَتَّم بخواتم الفضة وفصوص العقيق الشريف. وعلى هذا لا يعلم أحد، يزعم المتشكّكون، لماذا طال سفر الرجل هذه المدّة. وهو كان تزوّج بزهرة قبل أربعة أعوام أو أكثر، ولم ينجب الزوجان ولدًا، ولم تحمل زهرة ولم تسقط في الأثناء، على رغم أخبار راجت، تروي فاطمة وابنة عمّي الشيخ جميلة معها، عن حمل لم يتخطَّ الشهرين، وانتهى في المرّتين بطرحها، على معنى حرفي،

من أحشائها المعتمة الخليط المتنافر الذي لم يعلق بها، واستعجل مفارقة رحمها.

وقد لا يكون لبناء الشبابيك المزججة والمزركشة، والباهظة التكلفة، تعلّق بالسفر، ذهابًا وإيابًا ووجهته، ولا بزهرة وعقمها. ومن يجزمون بحقيقة التعلّق، وهي محلّ خلاف بين فاطمة وجميلة في نتف أحاديث سابقة ولاحقة، يقرّون بافتقارهم إلى دليل. فيذهبون، وهذه حجّة فاطمة، إلى أنّ الزجاج الملوّن يستقبل الشمس شطرًا من النهار، ويحيل داخل البيت، حيطانه وسقوفه وأثاثه وحصره وسجّاده وخزائنه ومرايا الخزائن والستائر، إلى كروم ربيعية. فإذا سخرت جميلة من التعليل الولّادي، وسألت فاطمة هل تظنّ أنّ ألوان الزجاج تضيء أحشاء زهرة، وتغري الجنين بالإقامة المديدة إلى حين تِرْمِه الناجز، تبرّأت عمّتي من تصديق هذه السذاجة، وقالت إنّها تعني الجو الذي يخيّم على الناس وعلى نفسيّتهم، ولهذه أثر في الجسم والصحّة يقول العارفون، وهي ليست من العارفين، إنّه أثر قويّ. وربّما هي تبالغ في التخمين، وقد يكون الأمر كلّه إرادة محمود إرضاء زهرة، وشدّها إلى بيت بدأت تعافه، وحسب هو أنّ تزيينه بالزجاج والألوان يحيي رغبتها في بيته وفيه.

وعلى مثال مهدي، ومن ينتظرون في مقابلة مصطبة محمود وأخويه، ويراقبون الدار المنطوية على أصواتها المكتومة وظلالها الضعيفة، تعلّقتُ بتمايل الضوء والظل وراء الزجاج، وحسبت، ثواني قليلة، أنّه قد يُنبئ بخبر أو يمهّد لظهور شيء أو أحد. وحملتني خيبة أحسست سريانها فيَّ أنا وفي المتحلّقين، فارتخت أجسامنا معًا، وقصُرت أعناقنا، على لكز كوع مهدي وتنبيهه، ودعوته إلى المشاورة فيما نصنع ونتوقّع. والتفت مهدي صوبي، وعلى ملامحه انفراج من أفاق من غيبة منام خفيف. وابتسم ابتسامته التي تمهّد لضحكته المجلجلة والداهمة، وتملأ عينيه الخضراوين، والمتسلّلتين إليه من امرأة عمّي، بضوء صباحيّ وتطوّف بشفتيه الزهريّتين والبنّيّتين، وسأل:

– «بعدك هون؟»، وهو يلتمس إثبات بعض من يحوطنا، متصفّحًا ومتعرّفًا ومجيبًا التعارف. ومدّ يده، وأخذ بيدي يدعوني إلى حشر نفسي بينه، في الصف الأول من جمع المتحلّقين، وبين شاب بجنبه قال إنّه ابن عمّنا، من غير تخصيص ولا تسمية. وكرّرت سؤالي الشاغل عن الحادثة، وعمّن يكون أصحابه، وعمّا حلّ بهم. فسألني مهدي:

– شو جابك لهون؟ ليش جيت؟

كأنّه يمتحنني. فخجلت من الاعتراف، في وسط الناس، بأنّ اسم زهرة، في ثنية الصوت النسائي الذي انفجر ناشجًا، وبدّد نومي كما بدّد نوم من سبقوني إلى موقفنا ولحقوا بي، أوحى إليّ الرّكض وأقلقني. فتلعثمت في الهمس باسمها وأنا أحاول التستّر على التلفّظ به، وكأنّ في وسعي حبس صوتي عن سمعي، فأقول زهرة وأُسمع مهدي وحده، وأستثني نفسي من السمع رجاءَ ألّا يسمع أحد أو أن يغضّ المتحلّقون سمعهم وبصرهم. ولم يسمع مهدي ما غلفته باللعثمة والهمس. فترك يدي، ودار في شبه العتمة بوجهه المرفوع، وصدره نحو سطح الدار وأعلى السلم المتّكئ إلى حرف السطح. وهناك، انحنى وهو يستدير رجل ملفّع بالسواد، توارى وجهه في استدارته، وكسرت قدماه العاريتان والبيضاوان، وعقباهما الظاهران من خلف، وحدهما، السواد المتصل. وبينما تطأ قدم الرجل عارضة السلم الثانية، في وسط صمت مخيِّم وأنفاس معلّقة، ويمسك برأسَي العارضتين الطويلتين، سمعته يلهث:

– فلت العرص ابن العرصه...

وقال مهدي وكأنّه يجيب:

– خي محمود... أحمد...

ونزل أحمد السلم العالي ودرجاته العريضة مواربًا، مديرًا ظهره وقفاه إلى الجمهور، ومتمسّكًا بقوة بالدرجات التي خلّفها أمامه وهو ينزل، وفاحصًا بقدمه الموضع الذي يزمع إقرارها عليه. وخرجت المرأة الجسيمة قربي عن مراقبتها وانشدادها الصامتين إلى المشهد:

– عم يرجف... خي الحاج...

واتّفق قولها مع رأيي، في اللحظة تلك، كاحلَ الرجل ومشطَ قدمه يخسعان في الأثناء، ويعمد هو إلى الالتصاق بدرجات السلم ومعانقته. فأردفت المرأة على النحو نفسه:

– مسكين... موهول...

فالتفت مهدي صوبها، ثم صوب أحمد الذي استأنف نزوله المتأنّي. وتعمّد مخاطبتي، وهو يربّت على كتفي، دون المرأة:

– ... أيمتى فاء يلبس أميصه وإنبازه بهالحشرة؟ ويركض؟

لم يقنع مهدي المرأة بأنّه لا يريد مخاطبتها، فقالت:

– ... كان نايم بتيابه... اللي كان لازم يفيء هو الحاج... أبصر وين كان الحاج...

واستدار أحمد، وأولى جمع الواقفين، حال بلوغه الأرض، وجهًا شاحبًا زادته المصابيح التي رفعها أصحابها أمام وجوههم، وتمايلت نار ألسنتها مع تحريكها، امتقاعًا. واتّكأ بجسمه العريض على السلم وراءه. وتقدّم المتحلّقون نحوه، واجتمعوا في صفّين متراصّين وشبه دائريّين حول قدم السلّم، وبإزاء المصطبة وواجهة الدار الشرقيّة. وربّما أدرك متحلّقون أنّ إحاطتنا بأحمد على هذه الشاكلة أشبه بالحصار، واصطفافنا في مواجهته ومقابلته يجعله في موضع المدان أو الممتحن. فتعالى من طرف الصفّين صوت هادئ وأجش:

– خلّوْ بسبيل حاله... يهدا شوي باله...

فعلّق مهدي معرِّفًا:

– أبو حسن كريم...

فكنّا وجهًا إلى وجه، جمهور المنتظرين كتلةً بإزاء أحمد، وأحمد اللاهث المرتبك والحائر بين وقوفه في مركز انتباه المتحفّزين لسماعه، وبين دخوله بيته، وبيت أخويه الذي ينتظره فيه أهله. وكأنّ أحدًا من الجمهور لم يتجرّأ على مبادرة أحمد بسؤاله عمّا صنع ورأى، لا على الانفراد بالكلام، وترك السكوت الذي يوحِّد بيننا. وعاد الصوت الطرفيّ إلى الرجاء:

– شو بدكن في... بعدين بتحكّوه...

وانقلب هدوء النبرة هذه المرّة ضعفًا وتعبًا، وسمع الصوت آتيًا من خارج الجمهور، ومن بعيد. وبدا على أحمد أنّه انتبه إلى ما يقوله الرجل، فالتفت في العتمة التي خلّفها نزول المصابيح إلى يمينه، ثم إلى يساره، وعلا نشيج نحيل ومديد يشبه العويل النسائيّ الذي أفقت قبل دقائق عليه. وشككت لحظة في صدور الشكوى الخافتة عن صدر أحمد المتين والثابت. وخيّم ذهول أخرس، ونظر بعضنا إلى بعض، وواحدنا إلى الآخر يسأله عمّا يسعه أن يصنع في هذا الموقف وهو يتجنّب النظر إليه، وربما تعرُّفه. وهذا التعرُّف سبق إليه من تعارفوا فأنكروه أو علّقوه في انتظار الخروج من حرج طوَّقهم فجأة من الجهات كلّها وكبّلهم. وجمّد الذهول والانكفاء والحرج وقتًا بدا لا مخرج منه.

فخلتُ أنّنا وقوف في صفّ مدرسيّ، يتفحّصنا ناظر الملعب المتّقد العينين الواسعتين والبارزتين، والملتوي الشفة السفلى التي شقّتها ضربة موس

حلاقة ذائعة الصيت في البلدة، وتركت فيها أثر قُطَب لم تلحم الجرح تمامًا، ويستعرضنا واحدًا واحدًا وهو يناوب القبض على طرفي مسطرة غليظة ومقشورة. وتسلل القيد إلى جفوننا. فلم يبقَ واحدنا حرًّا، في النظر إلى من يريد وحيث يشاء، إلّا اختلاسًا، كيلا تفهم حركة عينيه انتقاصًا من هيبة الناظر وعصاه، أو شِرْكًا بسلطانه. وحرصت، وأنا أرفع عينيّ المسمّرتين على منحدر المصطبة المشحوف، والعشبة الجافة في ترابه، أمامي، صوب مهدي، ألّا تتجاوز فتحتهما ما يتيح لي التثبّت من دشداشته الواسعة والقصيرة فوق مشايتيه الجلديّتين والبنّيّتين، والاطمئنان إلى دوام وقوفه بجنبي.

ولولا تناهي وطء أرجل وأحذية تجتاز الطريق بين منعطف بوابتينا، جدّي وعمّي، وبين بيت المنيّر وزوجته الفطساء، وراء جمع المتحلّقين المديرين الظهر إلى بيت نجمة ونورة، في وقت متأخّر ينبغي أن يسمع فيه مواء القطط الساهرة ولهاث الكلاب المتمطية – لولا الوطء المتباعد لما بقي خيط يصلنا بالليل والحيّ. فبدونا، حين عود واحدنا إلى نفسه وإلى الجمع حوله وعلى ما أيقنت من حالي، طاقمَ صحون سيراميك خرساء، على رغم رسومها الهندسية وخطوطها الزرق، معلّقة على حائط أملس وأجرد قد لا يصلح إلّا لدبيب نمل كبير الرأس عليه. أو يصلح لرؤوس حيوانات برية، ثعالب أو ذئاب غالبًا يتوسّطها وعل كبير، صادها صيادون محظوظون، وابتاعها منهم وجهاء متوسطو الوجاهة، أعرف منهم زوج عمّتي بديعة، أبو أسعد، يرغبون في تزيين جدار إيوانهم المتصدّر، تحت الستارة الحمراء القانية، المتدلّية والمنفرجة على شاكلة بوابة قلعة أو مجلس عرش، من زاوية السقف العالي، بطرائد صيد. وكان الوالد أعدّ العدّة للصيد، بعد مشاورة إخوته، يوم بلغه أنّ الوالي قد ينزل دارته بين منازل ينزلها في زيارة إلى الناحية، ولم يلبث الوالي أن صرف النظر عنها يومها. فبقي من الوعد الرؤوسُ المقطوعة والمصبّرة التي اقتُنيت على عجل، وعهدُ الوالد على نفسه ألّا تخلو داره من قرائن باهرة على مزاولته الصيد في البراري الجنوبيّة.

وكانت الرؤوس فيما ورثه زوج عمّتي، وأبقاه على حاله أو بقي الإرث، أي الرؤوس، من تلقائه، على الحال التي تركها والده عليها. غير أنّ الزمن لم يعفّ طبعًا عن إرث الوالد الثقيل الاحتمال. فهو ترك بيتين كبيرين متّصلين، من طبقتين، بُني كلاهما بالحجر، وجُلّل بالقرميد، وفرشت صالات استقباله

المتعاقبة بأثاث من الموبيليا اللامع، والصدور النحاسية والطنافس المنتفخة. وتدلّت من سقوف صالوناته ثريات كثيرة الشموع. وأفرد البيت ببئر جَمْعٍ تتسع لمئات الدلاء والجرار، ورصف ممشى حديقته الصغيرة بحجارة ملتوية ولولبية. ولم يرث الإبن ما يعينه على تعهّد هذا الإرث الباهظ. وأنا أقول جازمًا في ما لا علم لي به، لا علم يقين ولا علم تخمين.

فقد يكون أبو أسعد، القصير والمدوّر والأقرع تحت طربوشه والجالس على طرف سريره لا يغادره واللابس البدلة الإنكليزية من ثلاث قطع، واللاهث أنفاسه في شاربيه الكثّين والعابقين بالتبغ والعرق والكولونيا والمبلّل قُبله الطويلة على خدّي بالريق – قد يكون ورث ما يقوم بأود ميراثه. ولكنّه ربّما تخفّف منه في السوق العموميّة بالمدينة الكبيرة، أو في البيوت الخاصّة التي لا تقتصر على النساء، وتزيد عليهنّ الشراب والمقامرة والأولاد. فانزوى هو وأولاده التسعة، بقيّة ثلاثة عشر أو خمسة عشر ولدتهنّ عمّتي أخت جدّي في بيت من ثلاث حجرات، واحدة على حدة بُنيت بالحجارة، ويقيم بها زوجها وحده، واثنتان طينيّتان، سقفهما من لِبن وتبن وبلان مثل بيت جدّي. والحجرات الثلاث بالكاد تصلح لإقامة حرس الداريْن. وفي أثناء الانزواء، صار أولاد عمّتي، وبنتاها اللتان أسَنّتا الواحدة بعد أختها على طلب رجال شباب يدهما، تجنُّبًا للقرابة بأبو أسعد، على قولهما، لا يتردّدون على البيتين المهجورين إلّا لنشل الماء من البئرين الواسعتين والمليئتين صيفًا وخريفًا من مطر تصبّه مجاري التنك أسفل القرميد فيهما، وتحفظه من الاستنقاع والامتصاص والتبخر. وقد يتفقّد أولاد عمّتي الدارتين على طريقة أدلّاء سياحة، والتفقّد وقف على الولدين الأخيرين الشابّين، فيسمّون المواضع والأشياء بأسماء جافّة وواقفة، ولا تفارق ابتسامة تشبه قطعة أثاث ثابتة في محلّها زاوية فم واحدهما. وإذا استلقيا على أريكة أو في مقعد، خلّف استلقاؤهما في ساقَي السائح وفي ركبتيه تعبًا وملًلا مصدرهما، على أغلب الظنّ، الغبارُ الشائخ الذي يكسو الأثاث والجدران والسجّاد والستائر والأبواب والنوافذ، وبيوت العناكب المنسدلة من زوايا السقوف والجدران والمترجحة بين الستائر.

وتردّدتُ بين حسباني نفسي، ومهدي وابن عمّنا الآخر وأهل الحيّ الذين أتعرّف بعضهم ثم يُخْلي التعرّف المحلّ لغرابة ودهشة مفاجئتين، رؤوسَ صيد برّي تغلب عليه الوعول هذه المرّة، وبين الميل إلى تصوّرنا في صورة طاقم

السيراميك، وضوئه المنقبض والمتجمّد في عروق الأطباق المسدودة. وخطوتُ خطوات خارج الجمع وشبه الدائرتين المتحلّقتين. ويمّمتُ وحدي، في عتمةٍ يرشح من جنباتها الممطوطة نور مكتوم، وفي صمتٍ معدنيّ، نحو باب بيت الحامول، ودرفتيه المغلقتين في إطار واجهة الحجر المطليّة بالكلس المشعّ، وزجاج الشبابيك الملوّن. وعلى شاكلة غيمةٍ تتعرّى في ثوب امرأة صيفيّ، تخلّلتُ الباب والجدار طيفًا عائمًا، ودخلتُ الدار على أثير من غير صهوة. وتمدّدت من تلقائي إلى جنب نساء علمتُ أنّهنّ هنا ولم أُخبَر بأمرهنّ، وهنّ بإزائي، فأبعد صغرى خالاتي وأقربهنّ سنًا إليّ ورفيقة لعبي، وخالتي التي تفوقها سنًّا، وخالتي التي تلي السابقة سنًّا، وجدّتي، أمّهنّ، على طرف صفّ النائمات. واستلقيتُ على أرض صلبة لم تليّن قساوتها الحجريّة فرشة ضيّقة من غير حشوة قشّ. وشعرتُ بنومهنّ ثقيلًا وهنّ غارقات فيه على نحو دخول سمك الحبّار في الحبر ينفثه ويختبئ فيه. ولم تغفل خالتي بجواري عن قدومي فانقلب نَفَسها المنتظم إلى تنهيدة طويلة قبل أن يعود إلى استواء إيقاعه، ورحّبت بي على هذا النحو بالوكالة ربّما عن اللاتي أقمن على نومهنّ ونَفَسهنّ، ودعتني إلى الدخول في النوم والنفس. ونمت على هذه الحال وقتًا لا سبيل لي إلى معرفة ما إذا كان مديدًا أم خاطفًا، في المنام أم في اليقظة حين هزّ طرق عنيف باب الحجرة الذي قد يكون باب بيت الحامول من داخل: الدرفتان المستطيلتان والمجوّفتان تجويفًا قليلًا، والدهان البنيّ المحروق، واللسانان المعدنيّان الدقيقان في ثقبين، السفليّ في البلاط والعلويّ على شكل خاتم في برواز الباب. ولم يفق أحد على الطرق العنيف. ولم أجزم أنا أنّني أسمع الفرقعة الناجمة عن خبط ثقيل وقويّ على الباب الخشب الموشك على التحطم، بأذنين حاضرتين، أم أنّني حللت في الأثناء في ولد أو رجل يقيم بموضع ناءٍ يرجّ في دماغه لوحا خشب مثبّتان بستّة مفاصل وغالٍ وسُكرين إلى الإطار والجدار، ومشرفان على الانفلاق. وبقيت في الأثناء متنقّلًا بين نفسين متفرّقتين. وأعقب الخبط الأول، بعد وقت يشبه الوقت الذي يؤذن بالبلاء ويسبقه، خبط ثانٍ أشدّ من الأول، وثالث مزلزل تلاه من غير فاصل وصحبه صراخ من قاع الصدر «يا عرصات! افتحوا!» وتلجلج الصوت وماع وبلّله رذاذ لعاب لزج قبل أن يكمل «... بدي افتحكن... وينها العكروته...». وأوجعت كتفي عظام أصابع غرزتها خالتي القريبة في لحمي تريد الاحتماء بي كلّي من إعصار

يصفر، بينما أفيق أنا على اصطفاق الأرض تحتي والسقف فوقي، وعلى قول خالتي «... رجع السعدان... السكران...» الخافت، والعاديّ النبرة تقريبًا، وكأنّها تروي خبرًا تأمل من جهره طمأنةَ نفسها، ومن تروي عليه الخبر على خلاف أصابعها الحادّة. واستوت خالاتي الثلاث وأمّهنّ جالسات صفًا واحدًا في عتمة حالكة تعلوها طبقة عتمة عكّرها خليط من سواد رحم الليل، ومن نذر فجر مريض تلوح من أقواس الشبابيك فوق الباب وتحت السقف. وصرخت خالتاي صرخة قوية واحدة زعزعتني «... مش هوْن...» ونظرت الواحدة إلى الأخرى مثنية على اتّفاق التوقيت. وردّ الطارق صاحب اللقبين المتداولين على ردّ الخالتين بطرق قَنِع بإعمال القبضتين العاريتين، وبالتماس الإذن بالنوم في الحجرة. وتناهت جلبةُ أقدام وكلامٌ من الحلق يعلو ويخفت، وحفيفُ ثياب من وراء الباب حيث يقف الرجل الذي حالت ملامحه في ذاكرتي، ولا أستعيده إلّا جزءًا من صورة فوتوغرافية قاتمة ومطبوعة في ذهني، ثابتَ الوقفة وجامدَ الشعر الأجعد، ولون البدلة الأبيض، وانفراجةَ الشفتين والنظرةِ المستشرفة والمتشكّكة إلى العدسة، ومقطوع الذراع اليسرى التي أحسب أنّه كان يحيط بها كتفي أمّي، وأنا بينهما قبل طلاقهما وقصّ الصورة صورتين.

ومن غير تمهيد، رفع المتحلّقون رؤوسهم معًا تقريبًا صوب موضع يعلو قليلًا طرف السطح قبل أن تتفرّق وجوهنا على جهات كثيرة بحثًا عن طيف دلّ عليه بإصبعه، وصرخته الممزّقة، أحد المتحلّقين:

– هَيِّيه... عَ السطح... عَ السطوح...

ودرت إلى حيث تراءى لي أنّ الصوت ينبّه، والقناديل المرفوعة من جديد تستجلي وتتعقّب. والتمسَت أعين المتعقّبين الجهات التي ظننّا أنّ الطيف يركض صوبها أو خلّفها وراءه. وصدّقتُ، مع الصيحة واستدارة الرأس، أنّ حركة جسم متلفع بالسواد برقت وهي تسابق نفسها، بينها وبين المكان وراءها فرق قليل كالذي يَبينُ به اللون من لونه. وأقام بعضنا على التحديق في حافة السطح الذي هرب إليه، ثم منه، خيالٌ يظنّ فيه أهل الحيّ المجتمعون الظنون. وسَرَت في الحضور همهمات تعرّجت بين موضع وآخر:

– ... لوين بدّه يروح؟ حدن بيلقّي...؟

– هـ ... لو كنت ابن بيُّه وإمّه... ابن عمُّه اللزم والله برأبته...

– ... ليش أحمد جامد... يطلع...

– ... ما حدا يحط بدمّتُه... ناس ساكتِه وبتعرف...
– ... أو ما بتعرف... تتحمل...
– ... خلّوا أحمد بحاله... مثل ورئت سيجارة...
– ... حاج تتطلعوا... حبة ملح بالماي...
– ... حدن بينطر شبح... خيال... جن...
– ... ركض مثل هونيك زلمي...

سكتت الهمهمات والهمسات. وأقلع من يتبادلون الإيماء والاستفهام عن التوسّل بنظراتهم وقسماتهم وأنفاسهم والإشارة بها. واستدرنا كلّنا، واحدنا إلى جاره الواقف بقربه أو بعيدًا منه، وإلى الخلف، يبحث عن مصدر الكلام الواعد بتسمية الرجل المتسلّل، على ما نخمّن كلّنا على الأغلب بعلم أو بغير علم، من بيت زهرة والحاج محمود. ومضى وقت على تصفّح بعضنا وجوه بعض تصفّحًا لا يتخفّى على الارتياب من هذه الوجوه، ولا في كونها الشخص الذي تكهّن فيمن هو المتسلّل، أو زعم مقارنته بواحد يعرفه هو، ولا بدّ غيره يعرفه. وانفرط الصفّان شبه الدائريّين حول المصطبة، واختلط من يدير وجهه إلى آل الحامول، على ما كان معظمنا يفعل، بمن يدير ظهره له، أو يدور على نفسه طامعًا في الوصل بين نبرة ما سمعه لتوّه وبين أصدائه وآثاره المفترضة في عبارة الوجوه المستفهمة. وتفرّق المتحلّقون على الجهات كلّها، في دائرة متماوجة الداخل ومتعرجة الأطراف.

واجتمع منّا، في خيمة ليل امتلأ خفية ببؤر تومض البؤرة منها على حدة، حيوان ميكانيكيّ كبير، متخلّع القطع على شاكلة ديناصور، بين كتلة فواصل من ضوء وظلمة وظلال. ودار السؤال على شفاه من دعاهم إلى البقاء هنا، بمدخل الزاروب، فضولُهم الخالص إلى تحقيق ما يشاع عن سيرة زهرة، أو تكذيبه. وهم قد يميلون إلى التحقيق. وبعض ثانٍ أبقاهم خوفهم ممّا لم يدر ببالهم جوازُ حصوله، وحسبوا أنّهم، شأن الآخرين، بمنأى منه. وبعض ثالث عوّلوا على التمتّع بمشهد زهرة ورجلها يهانان على الملأ. وبعض رابع ألمهم لما يصيب جيرانهم من ظنون جارحة قد لا تقتصر على الزوجين وعلى أخوي محمود ويرجّح أن تعمّ الحيّ كلّه فيقال منذ الغد الباكر أنّ فلانًا هو من أهل الحيّ الذي وقعت فيه فضيحة المرأة وزوجها وزائرها الليلي.

وأنا الراوي، تنقّلتُ بين الظنون الأربعة. والسؤال دار عن المستشبه بأحدهم. وسئل «مين حكي؟»، و«وينه اللي لمَّح؟»، و«ليش ساكت بعد ما حكيت؟»، و«يللي ساكت!»، و«إذا بتعرف حرام تخبي...»، و«إنت إلْت؟»، «منين طلع الحكي؟ منْ حد مين؟»، و«هيي بتتسدأ إنه الواحد يسمع هيك حكي وما ينتبهش مين اللي ألّوا؟، و«المسَبّي بهالحالِه حلال...»، و«السكوت أحسَ م الفضيحه...».

وسألت المرأة الجسيمة أحمد الحامول، المنشغل في محادثة اثنين يحوطانه، ووجهها إليه وصدرها وثدياها الضخمان إلى طرف الحلقة، عن شبه بين الهارب الذي حاول اللحاق به وبين قريب أو جار أو عابر يعرفه أو مرَّ شكله بباله. فاستنكر ابن عمّنا، وظهره إلى المرأة ويتوسّطنا مهدي وأنا، سؤال المرأة، وكلّم مهدي على الأخصّ وهو يرد عليها:

– ... كيف يعني؟... اللي حكي وبلع الحكي آل شاف متل حركه... وأنتِ عم تسألي عن حدا... بدك يحط بدمّته ويسمي فلان أو فلان؟ بيصير؟

فهدّأ مهدي بابتسامة رسمية احتجاج قريبنا، ونبّهه ملاطفًا، وعيناه تطوفان متحرّيتين عن أحد أو شيء في الجمع وحوله، إلى أنّه يكاد ينحاز إلى المفقود المجهول الذي نبحث عنه في فرشة قش على البيدر. وتنهّد مهدي تنهيدة عميقة وطويلة وعبّ هواءً نديًا، ومال صدره معها إلى الخلف، وأدخل يديه وبعض ساعديه المستويين في جيبَيْ دشداشته كأنّه يحاول الغوص فيهما. وخرج تثاؤب يشبه الارتعاشة من جسمه. فسألته: هل يحسّ لذع البرد؟ فأدخل عنقه بين كتفيه، وثَنَى ركبتيه ودبّ على قدميه محاكيًا رجفة البرد. واستوى بعدها مستقيمًا ومفتّح العينين:

– هيك بيبرد الواحد وهيك بيبطّل بردان... على كيفه...

وجاز قريبنا نحوي، وقرّب وجهه من أذني ووشوش من غير أن يخفض صوته:

– ... كأنّي عرفت اللي خربطنا وخربط الكلّ وخلّانا نفكر إنه لح يسمي بمين استشبه...

وأتبع وشوشته بدفعي من كتفي إلى حدة من الحلقة، ثم بإحاطتي بذراعه بإزاء حائط الزاروب، وهو حائط دار عمّي الشيخ، دارهم، وأكمل:

– ... شفت دَيْنين ابن عمّنا الطوال، وأم بزاز حدّه، كيف طِوْلوا مثل شيات الحمار؟... الشيخ ابراهيم، إبن الشيخ محمد علي، الزاروب اللي بالوجه، بآخره...

لم أفهم من يعني. فأنا أعرف الشيخ محمد علي وابنه إبراهيم، وأذكر رسغَي اخته، البيضاوين والمليئين، وتحت منتهى عباءتها السوداء القصيرة، تكسو جسمها دون رأسها، ولا تتخفّى بكسوة العباءة على بعض مواضعها.

– ... المصروع... بيغمى، بيصفرّ وجُّه، وبيغوروا عينيه وبيفوتوا لجوّه، وبيتمدّد على طوله وبيصير يرجف وبيكزّ عَ سنانه وحنكه، وبتفور رغوة عَ تمه عَ الجهتين... مش شايف الشيخ ابراهيم بنوبة صرع؟

اعترفتُ بأنّ الحظّ لم يسعفني، وفاتتني مشهد ابراهيم ابن الشيخ محمد علي وهو يتخبّط في نوبة صرعه وفاتني العلم بدلالة الكلمة. فكبير إخوته، المهاجر الزائر والشديد النحل والاصفرار، وأمّه، الحادّة الطباع والسافرة عن سن ذهبيّة في صمتها وكلامها، والمسترجلة الصوت، حالا بيني وبين شهود النوبة وفصولها، وأمراني بالعودة إلى دار أهلي، ولوت أمّ حسن رأسي وهي تزعبني وتدفشني بغلظة وتحجب عني أحوال إبراهيم الذي ربّما كنت في زيارته يومها. وإبراهيم، وهو يكبرني بأربع سنوات تقريبًا، لم يخبرني بمشيخته المبتورة والمقتضبة، ولا بمرضه. وأنا لاحظتُ عليه جمود عينيه تحت جبهته البارزة، في وجهه المستطيل. وأصابتني حركاته البطيئة بعدوى البطء، فأضطرّ إلى تعليق نظري وأنا أراه يستدير، أو يتكلّم أو يمشي، كأنّه في لحظة مضطربة، ابراهيمان أو ثلاثة. وأنتظر أن يلحق ابراهيم الأوّل بالثاني، والثاني بالثالث، قبل أن يستأنف الانفصال والضمّ المتمهّلين.

وتأمّلني مهدي لحظةً رأيته في أثنائها ينتظر بلوغ تداعياتي تمامها، ويرافق أطوار هذه التداعيات وكأنّنا نتشاطرها في وقت واحد. فلمّا استوى ابراهيم في فهمي على نحو ما وصف مهدي، تابع وهو يجيل بصره في أطراف الجمع:

– ... دوّر عليه... شي طلع الصوت اختفى... الصرع بيمرِّض وبيصير المريض عمِّيل حركات وعراضات...

– ... ابراهيم؟ منَيْن؟

اسكثرت من ابراهيم وعليه الحركات والعراضات التي يزعمها مهدي له، وتشبه مهدي فوق ما تشبه إبراهيم بأشواط. ولكن تذرّعَ ابن عمّي الأقرب

بمرض ابن العمّ البعيد، وبما يصنعه الصرع فيمن يحلّ فيه، وتعريضَه بمشيخته الغريبة فبدت صنو نوباته سكّنا حماسة اعتراضي على مزاعم مهدي الضخمة في ما يقدر إبراهيم عليه أو لا يقدر. ومجاورة هذه المزاعم امرأة مثل زهرة، وحوْمها على شيخنا المفترض بينما أهل الحيّ ينسون ما حملهم، في ندى الساعات الأخيرة من الليل على ترك أحضان بيوتهم المعتمة والمليئة بأنفاسهم وريحهم إلى خلاء المفترق المتعرّج والملتوي، الأمران الجوار والحوم يكذّبان على الأرجح ما يريد مهدي أن أظنّه معه. أو هو يختبر ظنونه فيَّ أنا قبل اختبارها فيمن عِلمهم موثوق، وتصديقهم أقلّ من تصديقي. أو هو يمهّد من طريق حيلة يجمع خيوطها – واحدًا يختاره من رؤيا إبراهيم المصروع، وخيطًا ثانيًا يحيكه هو من مرقبه وراء الحائط المشترك بين دارهم وبين الجيب المفضي إلى بيت زهرة، وثالثًا قد يستلفه على قوله منّي ومن كَلفي الذي يحدس فيه ويضحكه بروحات زهرة وجيئاتها وبآثارها في أخيلتي وتآليفي، وهذا قول له كذلك – فيمهّد، على رغم فتوّة وغرضيّة متحزّبة ينبغي أن تقصياه عن المداولات المعتبرة، لحكاية عن ليلة زهرة، مصادرها مجهولة ولا سبيل إلى التحقّق منها.

ولمّا لم تقع استطلاعات مهدي وجولات نظره على شيخه في الدائرة الضيّقة التي يسعنا من موضعنا، تحت مربط بغلة عمّي الشيخ تقريبًا، الإحاطة بنا وبمن لا يزال ثابتًا فيها، استبدّ به ضيق قريب من الحنق. فعتب على فهمه لأنّه لم يخلص من سماعه الخنَّة المصدورة، والشبيهة بنشارة الخشب الغليظة، إلى صاحبها. وبهذه الخنّة قيل وصف الركض الملغّز. وشتم نفسه، وهو يدور عليها ويدقّ بقبضته جبهته، مديرًا ظهره لكي لا يرى. وشدّ على زندي كمن وجد ما غاب عنه لوهلة سابقة، وأراد جرّي صوب رأس الزاروب الذي يفضي آخره إلى دار والد إبراهيم، الشيخ محمد علي أبو حسن.

– تعا معي نشوف وين كان الشيخ إبراهيم هـَ المدِّه؟

وبين حسباني دعوته مزاحًا، لا بأس بمجاراته على سبيل اللعب، وبين يقيني باستحالة دقّ باب دار الشيخ أو دار غيره في مثل هذه الساعة من الليل، غادرنا الحلقة وكتف واحدنا متّكئة على كتف الآخر، وشابكين اليد باليد، وجلد الذراع الحار على الجلد طلبًا للدفء، على ما نصنع ونحن نقصد النزهة عصرًا على الطريق التي تمر بطرف ساحة البلدة الشرقية الشمالية وتنحو إلى

القرى التالية. وكدت أن أتعثَّر حين التوت قدمي وأنا أمشي على حجر في أسفل كومة التراب التي تنزل من المصطبة إلى الطريق المعبّدة بحجارة صوان محدودبة ومبريّة. فاستقالني من عثرتي صوت مصدره رجل قاعد على التصوينة، حول جورة بابه، وهو يدخّن سيجارة يعسّ ضوؤها على مهل ويقول: «اللّه! اللّه!» كان هذا أبو حسن خليل. وبدا كأنّه سها عن الأمر، ولم يعرض له لتوّه، ولم ينتبه إليه.

وكنتُ اتّكأتُ بيسر على مهدي، وأنا لصيق به. فأوقفتنا عثرتي عن مضيّنا الهازل على الرواح إلى بيت شيخنا الفتيّ لنتحرّى، على افتراض مهدي، عن مكانه الآن وفي الأثناء. فنحلّ، من هذه الطريق، لغز المنسلّ من بيت زهرة. وعلّل مهدي التواء قدمي بصفاقة العتمة المخيمة حول حلقتنا. وهو تعليل من جهة أولى، قال مستدركًا وجوابًا عن إعلاني ارتياحي إلى رجوعه عن عزمه الأول، وعن زجّنا في عماية الظلام. أمّا من ناحية ثانية قال، فالسبب هو تأخر اعتيادي بعد أشهر طويلة على أشياء أو جوانب من حياة البلدة وأهلها. وهذا شأن ابن مدينة عصيّ على مماشاة أمر هائل وأساسيّ بحجم الليل، ووضع القدم أمام الأخرى مسافة مترين من مصدر ضوء:

– إزا الضو مشْ مَلو العين ومش غامر الشي وعابطه... لا بتشوفوه ولا بتئشعوه... سبحان...

ومن غير إيضاح تركني حيث أنا، قبالة جمرة أبو حسن خليل التي تخبو وتتوهّج كأنّها تتنفس، وتقدّمَ في وسط المتحلّقين، وكلّم شابًا في مقدم الجمع، وأشار برأسه إلى جهتي القريبة وبيده وسبابته إلى جهة أبعد ورائي. وأخذ من الشاب الذي لم تزح عيناه عن وجه مهدي، وعلمت أنّه ابن الشيخ عون أي ابن عمّ الشيخ إبراهيم، وحائط دارهم على حائط دار إبراهيم، أخذ قنديل الكاز المتدلي من يد الشاب. وشبك أصابعه بأصابعي وهو يرفع القنديل الذي غطى الشحبار زجاجته أمامنا، ومدّ ذراعه ليبعده من دشداشته، ويمّمنا باب نجمة ونورة في طريقنا إلى بيت ابن عمّنا إبراهيم. وبشّرني مهدي بأنّ علينا انتظار غسيلنا بسطل من الماء الموحل الذي تحفظه أمّ حسن من شطفها سطيحة الشرفة، وأرضيّة الباطون الفسيحة، إذا تولّت هي الجواب، على ما يرجّح، وتكاسل الشيخ محمد علي، على عادته، عن النهوض من نومه الموصوف بالثقل، ومن فراشه الذي يراكم عليه، في الشتاء وفي الصيف، ثلاثة ألحفة أو

أربعة يغطّي بها رأسه الأصلع، ويقبر نفسه تحتها، على مزاح يستعاد كلّما مرّ ذكر الرجل في الأحاديث.

وهلّل مهدي وهو يروي ما نحن مقبلان عليه، وما يستحسن بكلينا صنعه، واستدراج أمّ حسن إليه، قبل أن تصفق بوابتها وهي تشتمنا، ثم تسألنا عمن يكون أهلنا، وتلعن المربى الذي ربّانا عليه هؤلاء، عرفتهم أم لم تعرفهم، وأفضى إلى انتهاك حرمات البيوت والنوم. وقال إنّ من ألعابهم الجميلة، هو ومن في سنّه، حين كانوا في سنّي وسنّ أمثالي، وإن لم يعرف غيري منهم، قبل ستّ سنوات أو نحوها، رمي عصابتهم المرتجلة، وهي عصابة كانت تنشأ في لحظة ابتدائها لعبها، الحجارة، حجرًا أو اثنين، على بوابات بيوت بعض أقاربنا. ويُختار هؤلاء، على معيار واحد هو تماديهم في غلق أبوابهم، وتقليلهم الظهور في الحي وطرقه، وانطواؤهم على أسرار تثير ظنونًا في ما يملكون ويخبّئون، وفي بناتهم ونسائهم. وترمى الحجارة بعد اتّفاق أولاد العصابة، الاثنين غالبًا والثلاثة في أوقات نادرة، على اختيار الموضع الذي تُرمى منه. ويفضّل أن يكون وراء حاجز عن النظر، حائطٍ على منعطف يُسْلِم إليه زاروب، تختبئ العصابة وراءه، وعلى طرق هرب الرماة. فمن المتّفق عليه ألّا يهرب المتسلّلون إلى ناحية واحدة، لئلّا يسع متعقّبوهم الاجتماع على تعقّبهم، والاستدلال بوجهة الهرب وقامات الهاربين ولباسهم ولون شعرهم إلى معرفة أبناء من هم، بينما كثرة الجهات التي يلجأ إليها أولاد العصابة تشتّت ملاحظة أهل الدور وتربك ملاحقتَهم الأولاد، وتفرح هؤلاء فرحًا لا يزال ظاهرًا على وجه مهدي وفي نازعه إلى عبارة ساهمة حين يتذكّر ويحكي.

وقطعت «السلام عليكم!»، آتية من أطراف دائرة الضوء الخافتة والمترجّحة وراءنا، ضنَّ بها صوت خارج من صدر طافح بالمخاط، أخبارَ مهدي وتداعيات تذكّره. فتصلّب ووقف مكانه كمن جمد، واستدار ببطء تاركًا بين ذراعه وصدره ذراعي التي بدا ناسيًا أنّها ليست من جسمه ولا تستدير تلقائيًا معه. وقبل بلوغ حركته هذه تمامها، واستقباله وجه ملقي السلام علينا، أو عليه وحده، أجاب بغضب جاف يكبته:

– أيمتى اختفيت؟ وين تبخّرت؟ بغمضة عين!...

– ... لا اختفيت ولا... رحت بوّلت عَ جنب، بالعتمة هونيك...

– ... وعَ السكِّيت!...

– ... متل...
– ... حاشاك مولانا!
وخلت نبرة مهدي وهو ينفي قصده تصغير إبراهيم أو الاستخفاف به، من الغضب أو من المؤاخذة. فكأنّ مهدي فوجئ بردّ ابراهيم الساخر، وباستباقه دورانه هو حول شاغله واستدراجه محادثه، على ما يعلم منه مَنْ حادَثَه مرّة واحدة، وعلى ما شاع عنه. فتهيّب مفاتحته في شأن المحلّ الذي كان فيه قبل بعض الوقت وانصرافه إلى قضاء حاجته. فأخذه من كتفه على حدة، وأدار كلاهما وجهه إلى الجهة التي قال ابراهيم أنّه جاء منها. وتخلّى مهدي لي عن قنديله بحركة جانبية وهو يسرّ إلى إبراهيم، من غير أن يفوِّت عليّ سماع كلمة من إسراره، برؤياه:
– لو ما شايفك يا شيخ بشحمك ولحمك فكّرت حالي خوتت... من شوي كنت بوجّي وسمعتك عم تحكي... وشوي اختفيت... ناس استعلمت عن اللي حكي... يمكن إنت يمكن واحد ثاني... كنت هون وبطّلت... سحر أو إبن عمّك خرف؟ شِفت وغشيت... طمّني!...
لم يسبق أن سمعت مهدي يكلّم أحدًا مستعطفًا أو مستميلًا أو حتى ساعيًا في إقناعه، على خلاف ما أشهده منه، وأظنّه يفتعله، ويظهر أنّه يكلّم ولدًا بسيطًا يدلّس عليه، ويمهّد لانتزاع الحلوى أو الكلّة على غفلة منه. وبقي إبراهيم ساكتًا، وبقي عنقه الطويل والدقيق على ثباته ومسافته من رأس مهدي الذي يطوّق بذراعه كتف إبراهيم ويرجو انتزاع ردّ منه. ورأيت يد مهدي ترخي قبضتها عن الكتف الجامدة، وتفرد أصابعها المنحنية وتنسحب خائبة. وعلى النحو نفسه تخلّى مهدي عن حضن قريبنا المتحفّظ وأخذه تحت جناحه ومونته. ومال مهدي إلى الخلف، ناحيتي، كأنّه يتفقّدني أو يشهدني على خيبته. فخمّنت أنّه يريد إشهادي على الحال، فرفعت الفانوس الذي ازداد شحباره واختناقه في الأثناء، واقتصر أو كاد على بصيص نور يتنقّل في العتمة بين البرتقالي الشاحب والأحمر المضرّج، ويومض بمزيج اللونين الملتوي. وتناهى إلى حيث كنّا على حدة، نحن الثلاثة، قول صادر عن المتحلّقين على مصطبة الدار:
– ليش هول عَ جنب؟ وين كانوا؟
فردّ مهدي فوق رأس إبراهيم:

– هول ولاد الشيخ عبد المحسن والشيخ أحمد والشيخ محمد علي... عم...
– ... فيهن البركة!... العتب عَ...
ومازح مهدي إبراهيم محمّلًا إياه التبعة عن القلق والفضول اللذين يتخبّط فيهما المنتظرون أمام بيت الحاج محمود، ويمنعانهم من الرواح إلى بيوتهم، وترك زهرة وزوجها وحمويها، ومن يهمّه أمرهم، في حالهم. وتهدّد ابراهيم، ماضيًا على مزاحه، بالوشاية به إلى أحمد الحامول، وإلى بقيّة الجمع، وقطع كلام إبراهيم المستفهم عمّا يسع مهدي الوشاية به:
– ... كنت تكون إنت هون محلّ ما عم نحكي، بس لزّ الحيط وعم تتلصّص... عَ مين!... وأنا عم أتلصّص عَ الشيخ ابراهيم من وراء تصوينة السطبل، شايف وين؟... مش عَ الشيخ بس، عليه وعَ زهرة... والشيخ ناطر زهرة... وزهرة بس تشوف الشيخ تكون رايحة عَ اليمين بتكوّع عَ الشمال، وهوي بيرفع إيده اليمين تَ يسلّم وبيضب كوعه عَ صدره، وبتطلع شوية رغوه عَ زاوية التم من هون ومن هون... كل هاي عَ مد العين والشوفه... وزهره بيضحك وجها كلّه بلا ما عاينه، من مَيْلة رأبتها عَ كتفها ومن لَوْية كمرها وخصرها... وبتغطي إيدها بمنديلها وبتصافح الشيخ حلال... وشيخنا تَ ما يترك الإيد اللي عم تصافح بيفتح إيد الشمال ملو أصابعها، وبيشدها عَ صدره وبيرد السلام سلامين... شو عم يصير بصدر الشيخ ابراهيم؟ العليم أللّه... والسكافي بالوج عَ الشَّوْف لح يبلع مسمار بتمه هوه وعم يطّلع بزهره...
فدعا إبراهيم مهدي إلى الخوف من الله والكفّ عن التجنّي عليه، وعلى المرأة وأهلها في محنتها ومحنتهم. قال هذا وكأنّه يسمّع غيبًا وعن ظهر قلب. هل يكذّب إذًا ما رُوي للتوّ؟ ألم ينتظر خروج المرأة من دارها؟ ألم تغيِّر وجهتها إليه حين رأته؟ ألم يبقِ يده في يدها طوال محادثتهما؟ ألم يشيعها بنظر كسير حين افترقا ويبقَ مطرقًا وربّما دامعًا، وإن لا يحلف مهدي أنّه رأى دمعًا، بعض الوقت بعد ذهابها؟ أليس هو من اجتاز الطريق إلى محلّ الاسكافيّ وكلّمه وهو يرتجف، وانصرف وهو يرفع كوعيه كأنّه ينوي التحليق بهما، وعاد إلى دارهم متلفّتًا إلى حين غَيّبَته بوابة الدار؟
بلى! أقرّ ابراهيم بصنعه هذا كلّه، وفوق هذا. فمهدي لا يعلم ماذا فعل قبل الخروج إلى زهرة وبعد أن سلّم عليها وصافحته وودّعته، ولم ير عينيها ورموشهما وكحلهما، ولا لسانها ولعابها وهي تكلّمه وتعلك ويهز ضحكها صدرها

ويرفع كتفيها وينزلهما. ولم يسمع ما قالته له وهي تستدير ذاهبة، وتعلّق على فضول الاسكافيّ الظاهر وتحديقه بهما، وعلى محاولته هو استعادة يده من يدها في كلّ مرّة سمع فيها خطو مارّ أو مارّة، في وقت حار يكثر فيه طنين الذباب والنحل الفالت، ولم يشمّ رائحة المعلّل التي تعطر بها زهرة شعرها وعنقها وتخلطها بمسك تخبّئه في طيّات قميصها وسروالها... لم يتمّ ابراهيم تعداد الأحوال والوقائع التي يعرضها على مهدي جوابًا عن تهديده بفضح خلوة علنية بزهرة. فأخذ يمغط كلماته الأخيرة، ومال رأسه الضخم، وهو أوّل ما يراه الواحد منه حين يلقاه المرّة بعد المرّة ولا يعتاده، على صدره. فسأله مهدي، وهو يمدّ يديه إلى ذراعه وكتفه، هل يشكو شيئًا، وهل هي أعراض نوبة. وتناول الفانوس منّي، ووسّد كوع إبراهيم باطن ذراعه، وسار به صوب دار الشيخ محمد علي وهو يوصيه بالاتّكاء عليه، وبفحص الطريق بمشّايته وقدمه حين يضع قدمًا قبل الأخرى. وسأل هل في وسعي أن آتي بخرقة قماش مبلّلة بالماء، من بيتنا وأعود سريعًا بها. فتردّدتُ في الجواب وأنا على يقين تقريبًا من أنّ عمّتيّ لن تتركاني أعود إذا بقيتا يقظتين واستجوبتاني عن علّة عودتي ورواحي من بعد، وعمّا أصنع خارج فراشي إلى هذه الساعة، وعتبتا على نفسهما لنسيانهما أمر ابن أخيهما... وهذا يطول. فأعود بالخرقة المبلّلة، إذا أنا عدت بها، لألفي إبراهيم ومهدي وزهرة وزوجها وجمع المنتظرين وقد ناموا. ولم يعلّق مهدي على تردّدي وتأخّري عن إجابة طلبه. ومضى على موازنته الحذرة بين إسعاف إبراهيم وبين إضاءة خطوهما قاصدين بوابتي الشيخ محمد علي والشيخ عون.

وحين بلغ الاثنان، وأنا وراءهما ثم على سويّة واحدة وإيّاهما بعد أن دسستُ يدي إلى جنب يد مهدي على حمالة القنديل ونازعته مسكها – حين بلغنا البوّابتين خيَّر مهدي إبراهيم بين دخوله دارهم من غير انتظار أو البقاء ببابها إلى حين استعادته قوّته كاملة. وأكمل: الاقتراح الأوّل جادّ والثاني هازل. فردّ إبراهيم بسؤال مهدي: وهل يميّز هو الجدّ من الهزل؟ فبدّد الردّ قلق مهدي، وحاطت عيناه الملتمعتان في العتمة المتشقّقة والمبتسمتان وجه إبراهيم الكئيب. وساعده على القعود متمهّلًا على عتبة بوابتهم، وشدّ ذيل دشداشته السميكة، وغطى به ركبتي إبراهيم المنفرجتين عن فخذيه وأشيائه. واطمأنّ إلى استقرار جلوسه. وتوجّه بالسؤال عليّ:

– لح نكمل المزح والجد؟ متل ما بدُّه الشيخ... سوا؟

وجاءت أصوات متفرّقة من ناحية الجمع، بعضها عالي النبرة، ينبغي أن يكون صادرًا عن رجال غاضبين، وبعض ثانٍ يتخلّله تشهير نسائيّ حاد وتوقيع قباقيب مكتوم، ما لبثت أن هدأت. وبقي لغط خافت ليس بينه وبين الصمت المخيّم فرق. وتوسّم مهدي من النثرات المتطايرة هذه دعوة إلى استطلاع الحادثة معاينة، على قوله. وحالَ انقطاعِ الجلبة، بعد استراقه السمع لحظةً، عاد إلى الانشغال بابراهيم وتقريره ما قد يعرف عن زهرة، وعن الرجل الذي هرب إلى السطوح ولا يقود إليه أثر. وقد يريد مهدي تقويل إبراهيم أنّه هو من شبّه الهارب برجل يدل عليه بالاسم، وعاد وسكت عنه وعن تشبيهه. وينكر على الأرجح أنّه كان هناك حين ماج الجمع بالأقاويل والتكهنات.

فطمأن مهدي إبراهيم إلى أنّ تلويحه بالوشاية به إلى أحمد الحامول أو إلى غيره، الآن أو أيّ وقت آخر، كانت لعبًا في لعب. وأقسم على إبقاء كلّ ما قد يقال، يقوله هو إبراهيم أو أسمعه أنا الراوي، بيننا نحن الثلاثة ولا رابع لنا يشاركنا فيه. وطالبه، لقاء القسم، بحكاية ما يعرف، كلّ ما يعرف. وإذا رغب في السكوت، وتمسّك بالإنكار، فلن يخبر مهدي أحدًا بشيء، وهذا عهد منه على نفسه. ويقسم قسمًا ثانيًا لا يقلّ إلزامًا بالتقيُّد به عن القَسَم الأوّل، إلى حين لفظ أنفاسه، بعد معاناته الطويلة والأليمة المرض المميت الذي بثّه في كليتيه وكبده ومرارته صمت الشيخ إبراهيم عن فاطمة، ورجلها الخفيّ وعشيقها ربّما، أو أحد عشّاقها الذين يحصيهم ابن عمّنا مرّات كثيرة، من ساعة قيامه للصلاة فجرًا إلى حين قراءته الفاتحة وتشهّده قبل النوم الهانئ والعميق كنوم أبيه. ورجا مهدي إبراهيم ألّا يصدّق ما يدّعيه عليه زورًا، ما عدا العهدين والقسمين طبعًا. وسأل إبراهيم مهدي، من غير تمهيد ولا دستور، على ما نبّه وابتدأ القول:

– اللي بدك تعرفه وبعرفه أنا لح خبرك يّاه بالحرف، لا بْزِلّ عليك ولا بزيد...

وعلى خلاف توقّع إبراهيم الظاهر، وزفّه تمهيده على شاكلة فاتحة ينبغي أن تؤدّي، في حسبانه، إلى تسليم مهدي ورفعه العشرة، هكذا روى مهدي الواقعة بعد أسابيع من حدوثها، تأمّل مهدي وجه محادثه وقتًا طال ما يكفي ليسبب حرج المتعرّض للتأمّل، وحرج الشاهد عليه. وقال لابراهيم، وهو ينظر إليّ، بقسوة تساوي قسوة قسمات إبراهيم الثابتة على نحت صخري:

– عم تستحمر مين؟ لأ... أنا بسأل وإنت بتجاوب... الشرط هيك...

وترك ثوانيَ تمرّ سكن في أثنائها غضبه الذي لم أرَ له علّة، ولا علم لي بسابقة قد تكون بعثته. وخيمت على إبراهيم أوّلًا، ثم عليّ، رهبة دابّة. وباغتني في سرّي إحساس قريب من اليقين، غابت عنّي بداياته، بأنّنا نحن الإثنين، إبراهيم وأنا، شريكان في فعل أو شيء آثم اقترفناه خفية عن الآخرين، وليس في وسعي الإفصاح عنه، ولا أعلم ما هو، ولا أين كان، ولا متى كان. فأَجَلْتُ في ذهني موقفًا أناشد فيه إبراهيم الاعتراف لمهدي بما فعلناه، وربّما فعله هو خصوصًا وكنت أنا الشاهد عليه وكاتم خبره. وفي أثناء تخييلي المجرّد من ملمح مادّيّ خطر لي أنّ ما فعلناه، وينبغي أن نندم عليه، ليس بريئًا من زهرة.

وجرّ اسمُها، وحروفه تتهادى على بياض بودرة يلطّخ توزيع بقعها المتفاوت بشرتها، وزهر حمرة شفتيها المتعرّجة الرسم، وتسبح على كحل عينيها الأسود وروائح النعنع والسكر والتبغ المحروقين والبنّ المختلطة بأنفاسها وعرقها – جرّ خيالات وصورًا تطفو على ضوئها الرجراج أغبرة وإيقاعات وحركات حرّة. فتكاد تختفي العروس المتصدّرة الدار، وكنبتها الوحيدة، في حلقة المحتفلات بزفافها وحاجباتها عن الأعين، ويهتزّ سطح البئر تحت دبك الأرجل والأقدام المتزامن والمستعاد، وتشرق الحناجر والأنوف بخليط محموم تتنفّسه، ويقتحم الرئات والزلاعيم والمآقي. وبينما يدور الملبّس الأبيض والزهريّ والأزرق، والملبن الرخو والأسمر، على الصدور النحاس المرفوعة فوق الرؤوس، ويعرض على النساء والرجال القاعدين والرائحين والغادين، ويمنع من الأولاد المتلفّتين وأيديهم المتطاولة، وأفواههم المليئة بما لاكته ولم تبلعه بعد، تدبّ في مواضع من أجسام المحتفلين، في الصدور والخصور والأكتاف والظهور وأعلى الأقفية، رغبة في مؤاخاة أشباهها والالتصاق بها والذوبان فيها.

وتسنح، حين يستوي قاصدون محلًّا بارزًا ومشتركًا صفّين مرصوصين ومتعاكسين يتبادلان بعض أفرادهما، فرصةُ مؤاخاة والتصاق مسكرين. وتسنح مرّة ثانية حين تلتئم دائرة متفرّجين حول دابك أو دابكة، ينفرد برقص على حدة من قطار الحلقة الحلزونيّة والرتيبة الدوران على نفسها. ويُظهر ناس الصفّ الأول، القريبون من العرض التساهلَ مع المطبقين عليهم من خلفهم، ومع المائلين عليهم متذرّعين بانفراج الرؤيا من هذا الموضع وحسنها. وفي وقتٍ خالٍ من الثنايا، هو غيمة خالصة، يتبدّد ما ينسب الأجساد وأجزاءها

ومواضعها إلى من يملكونها، ويسيّجونها بسياج يمنعها من الميل مع يد أو دعوة. ويسع المنتشي بأحوال العرس، حين تبلغ هذه ذروة من ذراها، الدخول في حمّى المعرّسات، من الأعمار كلّها. وينبغي أن تكون زهرة منهنّ، وربّما من أولاهنّ، على هوى رغبة أتشاطرها مع كثر من الأعمار المتفرّقة. وعلى خلاف كثرتهنّ، المبديات ظاهرًا قبول قربٍ نواميّ ولذيذ منهنّ، كانت زهرة تحجز بحاجز صريح بينها وبين جوار يلوح منه اشتهاء فظّ. ويفضي اشتباه الأهواء والعبارات إلى اختلاط الحوادث وطرق رواياتها. فلا سبيل إلى معرفة ما أرادت قوله كوثر، أخت خليل ونجاح، وزوجة ابن خال لنا نزح من البلدة الكبيرة إلى بلدة قريبة من الساحل كثر المهاجرون منها في العقد الأخير وفتح تحسّبًا محلّين فيها – حين ضمّتني، وكاد ضمّها يوجعني وهي تخصّني بكوب ليموناضة لم أطلبه، وتتبع عطاءها بقبلة قريبة من المصّ من شفتين لم أرهما مرة إلّا وقد بار أحمرهما وشفَّ عن زهر باهت خلّفه تقبيل محموم، على ما خمّنت، مردّدًا ربما همسًا سمعته أو خبرًا عن همس سمعه ورواه من لا أذكر. وحقّق بعض تخميني ما قالته سناء، على شاكلة وشاية، قبل أن ينفضّ الاحتفال:

– كان بيّك، عمّي عبد الله، بدن يخطبوا له كوثر! كنت عارف؟

وكنّا، سناء وأنا، يتعمّد واحدنا الوقوف وراء الآخر أو أمامه، ويلتصق به ويتملّص سريعًا من الموقف قبل ظهوره والانتباه إليه. وكان يمرّ الواحد، الأولاد وبعض من هم في سنّ أقل من سنّ مهدي على ما اشتكى هذا، خلف أكبر عدد متاح من البنات المولّيات ظهورهن، ولا يعلم إن هنّ ملن إلى الخلف قليلًا وخفية وسندن المؤخرة والظهر لحظة خاطفة إلى بطن الواقف وراءهنّ وصدره، هل يقصدن هذه الحركة وما يفهمه هو بها، وهل يقصدنه بها أم غيره، ومن يكون هذا الغير، وهل ينظرن إلى الحائمين حولهنّ، ويميزن بعضهم من بعض، وينتظرن هذا أو ذاك منهم، ويستبقن وقوفه، ويلاقين هذا الوقوف ويرحّبن به ويتذكّرنه... والواحد هذا، على مثال الراوي، ليس في وسعه إجابة هذه الأسئلة، في ما يعنيه، وامتناع الإجابة لا يحيّره. ومهما فعل، لا معنى لقوله: ومهما لم يفعل، فلا محلّ للنفي بهذا الموقف، فما يبقى وما بقي هو أفراح تولد وتعود على تمامها. وعلى هذا لم أرتَبْ أضعف ارتياب في أنّني تسلّلت في خفاء عن جمهور المعرّسين إلى خيمة زهرة، تحت تنورتها، في أثناء عرس من الأعراس الكثيرة والمتّصلة التي أحسب أنّ عمّتيّ لبّتا الدعوة إليها من غير

تردّد، والأولاد معهما، متخلّيتين عن المقايضة، مقايضة تلبية عرس بتلبية، على قولهما. فنحن نفتقر إلى أعراس نقيمها، وندعو إليها، نظير أعراس الأقارب المتكاثرة والمتعاقبة مع طلوع شباب يستعجل الزواج.

وكنت واقفًا متردّدًا بين الدخول في صفّ المتدافعين إلى حجرة الجالسين على الكراسي، حافِّين بكنبة العروس، وبين المشاركة في الإحاطة بحلقة الدابكين مع جمهور المتفرّجين. ورأيت زهرة تفترق عن الحاج محمود وأخويه، وتقصد حجرة النساء حال بلوغهما الدرجة الأخيرة من سلّم الحجر، في صحبة زوجتَي الأخوين. وما كان في أوّل الأمر عينين سوداوين ولامعتين في كهف أسود، تتوسطهما ابتسامة تقتصر على الفم المطبق دون الوجه، شبَّه عليّ شيئًا فشيئًا تشاركًا في سرّ قادم لا يتعدّانا نحن الإثنين. ولم يسبق أن أوْلت زهرة ملاحظتها وقوفي في مواضع من طريق حارتنا إلى حيّ الإسكافيّة أو حيّ الوليّ، ومنه إلى المقبرة، بمحاذاتها، فالسوق فالسرايا، والتذرُّع إلى الانبهار على حدة، بالفرجة على ياسر الأعرج، رافعًا عينيه وراء نظارتيه إلى السماء ملتمسًا تعرّف الولد الذي رماه قبل لحظة ببحصة وشاتمًا من ولدوه منذ بدء السليلة، أو بتعقّب دجاجة تزدرد دودة ألقتها في الهواء كانت تسبح في إسهال طفل. وأنكرتُ حسباني توقف عينيها، الطافيتين على كحلهما، على وجهي انتباهًا وتخصيصًا. ولم أقدّم هذا الحسبان على ظنّي أنّ زهرة، من غير شكّ، في حال خدر تغرق فيها فتغيب عن العرس ومن فيه، وتعود فتفتح عينيها على ما يتعرّض لهما صدفة. وفي مرّة، كانت الثالثة، تعرّضت فيها لعينيها المحرورتين، فأخجلني ذهابي مع خيالاتي، وتلذّذي الحارّ بحشر خدّيّ بين فخذيها السريعي النبض والأملسين، وبشمّي ملحًا ذائبًا يرشح من جدران كهف رطب، وينفذ من مسامّي إلى بؤرة كياني الجوّالة.

وأحسستُ بثقل عينين أخريين، صارمتين وناضبتين، تحطّان عليّ في اللحظة نفسها، وتستفهمان بفظاظة عمّا تريد زهرة منّي. وعلمت أنّ صاحب العينين الحانقتين هو إبراهيم، قبل أن أرى وجهه المستطيل، ورأسه الثقيل والحليق الشعر، تمثالًا متحجّرًا، في وسط الناس الفائرين. فأشركت إبراهيم، مداراة لحنقه أو خوفًا من وشايته وتفاديًا لها، في الفيء إلى خيمة زهرة. وأحرجتني شراكته المقحمة. وضاق المكان بي، ونحن نعوم في ماء يسع جسمينا الرواح والمجيء والتلوّي فيه مثل الأسماك وحيات الماء، على نحو ما

يسعهما تلافي المنازعة عليه. ودبّت في جسم إبراهيم همّة تشبه النشوة، على خلاف غلظة سمته الحجريّ. فانطلق في أرجاء الحوض، وحاذى جدار الخيمة ونتوءاته المضيئة، وغطس إلى القاع ودار حول قدمي زهرة ولعق بلسانه البارز والدقيق أصابع القدمين، والثنايا بين الأصابع، ووخز الرسغين، ونتش الجلد الأبيض والبالي الذي يحوط العقبين ويزنّر بطن القدمين. وفي الأثناء، لم ينفكّ يُخرج حبيبات الماء وفقاعاته من فمه، وأنفه ووجهه، عناقيدَ مضطربة، فتتراكض صاعدة صوب حياء زهرة، وتتجمّع حوله، وتتسلّل إليه من تحت دائر لباسها الداخلي المطرّز كما يسيل الماء الفائض تحت الباب. وطاف السابح مرات حول أعلى الفخذين والجزء الخفيّ والسفليّ من جسمها الغارق في الحوض، واستلقى على ظهره ومؤخرته، ونزل إلى القاع، وسبح معلّقًا بين القدمين فالساقين فالركبتين، ووجهه إلى قبّة القوس ثم لِصْقها. وغاب وجهه في ثنايا القبّة. وخرجت حبّات ماء منها على نحو انفراج رمل النبع الصافي، على إيقاع نبض الدم في الصدر، عن خزينه في الصرر الخفيّة والمعتمة.

ولم يكن إبراهيم قال كلمة بعد أن شرط عليه مهدي التقيّد بأسئلته، والتزام حدود الإجابة عنها. وخطا مهدي خطوتين جانبًا، إلى موضع يلمّ بصرهُ منه ببقيّة الجمع المتحلّق على الباب، وقال إنّ الصابرين أو التيوس هناك لم يزيدوا ولم ينقصوا منذ غادرناهم. وتردّد مهدي بين الجلوس على العتبة العالية والمبريّة بمحاذاة بوّابة الدار، وبين الاستناد إلى البوابة واقفًا، والإشراف على إبراهيم. وبقي واقفًا، ونقل نظره بيني، يشهدني على صواب استجوابه، وبين فريسته المستسلم. وأخبر هذا، على سبيل التمهيد، بأنّه ضبطه أربع مرّات على التقليل في الأسبوعين الأخيرين وهو يحادث زهرة على مفترق الزاروبين الأعوج. ورآه، في المرات هذه، يأتي تارة من ناحية ساحة الوليّ وتارة يأتي من الناحية المقابلة. وفي كلتا الحالين يلْطأ بعض الوقت بجانب من المفترق والبيوت المحيطة، ويوهم أنّه يراقب الاسكافيّ، ولكنّه لا يكاد يحطّ عينيه على جارنا، ويبادله هذا قَلِقًا النظرة حتى يشيح عنه، وينقّل نظره بين الجهات العشر، ويلوي رقبته ولا يستقرّ على وضع. وتأتي زهرة في الأثناء، وتُظهر تفاجؤها بإبراهيم، وتضاحكه وتمازحه من غير كلفة. فتدفع صدره بيدها وهي تكلّمه أو تطوي أصابعها على ذراعه وتهزه. وبين حركة وأخرى، وفي طيّة ضحكة طويلة، تقرّب رأسها من أذنه، وتسكن قليلًا وتشدّ منديلها على ثلاثة

أرباع شعرها الحاسر، ثم تعود إلى الخلف وتستأنف تشبيرها بيديها ورأسها وكتفها وظهرها وخصرها. فيا شيخنا، ما القصة؟ ومن المقصود، غيركم، بغنج زهرة ومصادفاتها الموقتة؟

غلب عجب صادق مال إلى خوف يشبه الذعر، على عيني إبراهيم الضيّقتين، وشفتيه الجافّتين، وهو يسمع ما يقصّه مهدي عليه. وحين أحصى مهدي مرّات خروج زهرة ولقائها إبراهيم بأربع، وصفت شفتا هذا رسم الرقم من دون اللفظ. وحين روى دفع المرأة صدر ابن عمّنا بيدها وحركات غنجها، على زعمه، طأطأ هذا رأسه وبلع ريقًا كثيرًا أفشى سكونُ الليل وانزواؤنا صدى كركرته. وبعد سؤاله الصريح، ختم مهدي:

– بدك تحكي! هلأ أو بعدين، وهلأ أحسن من بعدين...

فأنزل إبراهيم عنقه بين كتفيه وأراد حمل نفسه على الكلام. وسكت، قاصرًا ومنهكًا. وعاد، بعد تنهيدة طويلة وصاخبة، فتلفّظ على عجل، وكأنّه يبصق أبعد ما يقدر، باسم أحمد أرتين. فكاد مهدي، وهو يستدير ويطوي ركبتيه إلى حين بلغ وجهه مستوى وجه إبراهيم، يصرخ:

– كيف أحمد أرتين؟

فردّد إبراهيم مستسلمًا وآسفًا:

– هيك! شو بيعرفني... أحمد أرتين...

لم يدعُني اسم الرجل إلى الإنكار أو إلى التسليم. ولم أرَ فيه سببًا يسوّغ إقدام مهدي على حشر ابن عمّنا المرتبك، وتهديده بالفضيحة إذا هو لم يقل ما يعرف، قبل أن يعود عن التهديد، ثم يستأنف التلويح المبطّن به. فأحمد، والاسم هذا لا أذكر أنّ أحدًا تلفّظ به على حدة من المركّب العربيّ الأرمني أو أنّ أحدًا نسب شقّه الأول عاريًا إلى آل جمّين عائلته – يستحيل ألّا يعلق، منظرًا وحرفة ومخبرًا واسمًا، بذهن من رآه يمرّ بحيّ أهلي مرّة واحدة. وهو يمرّ مرتين وثلاثًا في اليوم الواحد. وقد يمرّ فوق الثلاث مرّات. ولا يُذكر أو يتصوّر ولا يُرى إلّا مارًّا. فيطلّ، منعطِفًا من رأس الطريق المستقيمة والعريضة التي تنزل من حوش أقاربنا، بزاوية دارَيْ جديّ وعمّي الشيخ، ماشيًا مشية عسكرية، ساعده الأيسر موشوم وعار في تي شرت قصير الكمّ صيفًا وشتاءً، بمحاذاة صدره المرصوص، وذراعه اليمنى تشد على قوائم مثلثة وخشبية

نصبت عليها آلة تصوير فوتوغرافي، على شاكلة خوذة ورأس معدنيّين وضريرين، والآلة والخوذة والرأس تشبه بندقية مرجأة الجمع والتركيب.

ووجه أحمد أرتين لا يقلّ عسكريّة عن جسمه المنحوت والبارز العضلات في تي شيرته وبنطلونه الخاكيّين والضيّقين. فوجهه شديد السمرة، وحمرة خدّيه محتقنة. وحين لا يحادث أحدًا، ويطبق شفتيه، يحرص على أن يجمع في عينيه السوداوين فحولة تذرّ فتنة. ويؤيّد هذا الحرص، ويتمّمه، تعهّدُ مصوّر البلدة الأوحد ورعايتُه شواربَ كثة وغليظة، فاحمةَ السواد حتى بعد تخلّل شعراتها، الظاهرةِ القوّةِ والصلابة، شعراتٌ سطحية وقليلة يشوبها بياض لا يفصح وقحًا عن نفسه. ويتخلّى أرتين، من غير إضافة على ما يسمّيه بعض المعجبين والساخرين، مرغمًا، عن السبب في فتنته، حين يحادثه أحد أهل البلدة وتنفرج شفتاه الغليظتان والمالستان عن صفّي أسنان تشع بياضًا كلسيًا ناصعًا، وتزيّنها في الشطر الأيمن من الفكّ الأعلى، سنّ ذهبيّة متوهّجة الصفرة. إذ ذاك تذوب فحولة صاحب الكاميرا وقوائمها، وتتحلّل في بياض أسنانه الساذج وسنّه المذهّبة، وتشفّ الابتسامة عن خجل المبتسِم المهيب، وعن مداراته ارتباكه واضطرابه بقساوة واعتداد ملفّقين.

وعليه، لا يكتم بعض من يمرّ بهم أحمد أرتين، ومروره وعرضه نفسه على أهل البلدة مرّات لا ينافسه أحد منهم على عددها وهو في كامل قيافته من نعليه اللذين ينتعلهما على الدوام من غير كلسات إلى شنيوره المكوّر المقدّمة بالبريلكريم – لا يكتم هؤلاء ارتيابهم في حقيقة ما يرونه منه ويشيع عنه. فيزعم بعضهم أنّه تعلّم من حيث جاء بمهنة التصوير العجيبة، وهو لم يصرّح يومًا بهذا المصدر ولا باسم أو صفة من درّبه عليها ولا ألمح أين، تلميع أسنانه التلميع الذي يرى في صور دعاية المعاجين الجديدة والمشهورة. وبعضٌ لا يستبعد أن يكون ركّب أسنانًا مستعارة كلّها بعد أن كان ركّب السن المذهّبة وحدها، ورأى أنّ جمالها يكتمل بغرزها في وجبة صفّي أسنان تقارنها التماعًا. ومن وَسِعه افتعال هذا كلّه لمَ لا يفتعل، في عقب ذلك، ساعدين منتفخي العضل، ويضخم الشريان الغليظ الذي يطفو على الاستدارتين ويداري هذا كلّه برسم سيفين منشعبين بحبر أخضر لا يحول على الصفحة الصقيلة من كلا الساعدين. وهذه الأخيلة، وإن لم تسلم من الشطح، فالاعتدال يقضي بالقول إنّ فحولة أحمد أرتين اقتصرت على حركاته الظاهرة وربما على موضع لا نعلم عنه شيئًا.

فالفحل المفترض لم تُعرف عنه مشادّة مع أحد كان هو البادئ فيها، ولم يضرب يومًا غريمًا أو مخالفًا بخيزرانة، ولم يطعن أحدًا ولم يطعنه أحد بسكين أو خنجر، لا في الساحة ولا في وسط الحقول والكروم، إذا تخفّى المتقاتلان، ولا على الدروب الفرعية، إذا هما أرادا ترك فرصة لتفريق الشهود بينهما. وهو لُقب بأرتين تشبيهًا بأهل الحرفة الأوائل والأصليين الذين أخذها عنهم، على ظنٍّ غالب يكذّبه من ينسبون الحرفة إلى تطوّعه في وظيفة رسميّة لا يعرفون ما هي على وجه الدقّة. واللقب، يفسر تلقيبَه به من يحملون رجولته على الاستعراض بتستّره المقصود على أشياء فاضحة هي على عكس الرجولة تمامًا.

وهكذا خلص آخرون، أو هؤلاء أنفسهم، من التشكّك في ظواهر أحمد أرتين البارزة إلى التشكّك في بواطنه المكتومة. وهي باطن واحد، ما بينه وبين النساء. والمسألة ينبغي ألّا تكون غامضة. فهو عازب في الثانية أو الثالثة والثلاثين، وربما في الخامسة والثلاثين. ويوزع نظرات غامضة على شبابيك البيوت، المغلقة غالبًا، وبوّاباتها، ومداخل الطرق والزواريب، وعلى من يلتقيهم ويلتقيهنّ في تجوال مزمن تضطرّه إليه حاجته إلى تذكير الناس بصورهم الشمسيّة التي لا تصلح الهويّات أو التذاكر الحكوميّة إلّا بها، ولا تحلو الرسائل إلى المهاجرين المنقطعين عن زيارة أهاليهم المقيمين منذ عشر سنوات أو سنين من دونها. وحامت، في أثناء أقلّ من أيام ثلاثة وذلك في وسط نساء، على شاكلة عمّتيّ وبنت عمّي الشيخ ونساء بيت خالي، يختلطن بمن هنّ مثلهن، ولا يزيد عمر الخبر القويّ السند الذي يتداولنه عن ستة أيام – حامت على المصوّر الجوالة شبهة التسبّب في حرق أم الفضل نفسها، وهي من بنات عمومتنا العازبة والبعيدة، بكاز دلقته على صدرها الضخم وبطنها المكوّرة، وعلى فخذيها السمينين. واختارت أن تلبس، في الظرف هذا، ثوبها المخمل بلون الكرز الغامق والمليء بالنوايا، على تعليق القريبات الزائرات. وجلست في مقعد الأوبيسون، بصدارة صالونهم الحديث.

ومسوّغ الشائعة، وهذا رجمٌ في عماية حالكة، طلبُ أم الفضل من أحمد أرتين قبل أشهر كثيرة أو قليلة أخذ صورة لها بآلته في صالون بيتهم، جالسة في المقعد إياه، ولم يكن في البيت إلا الأمّ الكليلة والخفيفة السمع، على جاري عادتهم منذ سنين قد تبلغ العشر، هي عددها الذي انقضى على سفر آخر

الإخوة الشباب إلى مهجر سبقه إليه الأربعة الأوائل. وغير الصورة الفوتوغرافية التي تَقاسم صفحتَها البائرة الرماديُّ الفاتح والرماديّ المعتم، وبَرْوزت أم الفضل نسختها الأولى بين زجاجتين لأنّها لم تنتصب للتصوير منذ مدّة على رغم طلب الإخوة المهاجرين صورتها – خَلّف التصويرُ أثرًا واحدًا هو رواية صاحبة الصورة جلسة التصوير جوابًا عن استفهام الزائرات. وأبدت، وهي تقصّ، حماسةً لاحظتها ناقلات حديثها وتخالف طبعها، وأرجعنها إلى الاختلاء خلوة جزئية برجل غريب بعد مدّة طويلة، علّق أهلي وهم يتداولون الرأي في فعلة أم الفضل الغريبة، مشفقين ومستبعدين تخطّي قريبتنا الخجولة والكتومة حدودَ الأدب.

وربّما قلّل حظ الشائعة من القبول تكرارها في وقتين متقاربين، وحالين ليس بينهما قاسم مشترك. فقبل أم الفضل بأسابيع ألقت بنفسها قريبة لنا فتيّة وجميلة، كانت تزوجت قبل أقل من شهرين ابن عمّ في الثلاثين، وشهدتُ عرسها في بلدة غير البلدة الكبيرة – في بئر جافة أودع فيها زوجها أسلاكًا شائكة خشي أن يتعثر بعض ماشية المزرعة أو زائر جديد بها. وكان أحمد أرتين مصوّر العرس، أو كان مصوّره الثاني. فالمصور الأوّل استقدم من المدينة الساحليّة القريبة، وآلته أخف كثيرًا من آلة المصوّر البلدي، وينقلها بيد واحدة معه، ويصلها بحقيبة علّقها بكتفه، ويلتمع ضوء التصوير خاطفًا في كلّ مرّة يقرّبها من عينه، وينحني ويصوّب عدستها على من يراهم أهلًا للصورة في اللحظة التي يصوّرهم فيها. وبقي لمصوّرنا، أو سلحفاتنا على تشبيه سُرّ حضور العرس بإجماعهم عليه، تصويرُ الصمدة، حين يقرّب العروسان، الجالسان قلقين في مقعدين عريضين، رأسيهما الواحد من الآخر ويلويان العنق والكتفين، وهما يوجّهان النظر إلى العدسة، ويحاكيان إلفة آتية. ودُعي مصوّر البلدة إلى بيت العريسين، أي مزرعة العرس، غداة نحو أسبوع على العرس. وصوّرهما في صالون بُنِي على حدة من البيت القائم. ولم يكن في المزرعة غيرهما. وأوصت العروس المصوّر، على ما شاع ونُقل، بالسلام على أهلها في البلدة. وكانت شاحبة. وشحوبها في مثل حالها متوقّع. ولم يشأ صهرنا وقريبنا مداراة الشحوب، على ما يصنع بعض الأهل، برحلة شهر عسل. وسكت أهل العروس عن ترجيح داعٍ قد يكون دعا ابنتهم إلى رمي نفسها في البئر الشائكة، ونزيفها دمها كلّه طوال يوم ونصف اليوم، من العشية إلى صباح

اليوم الثاني، قبل أن ينتبه الزوج إلى تفقّد البئر بين المحالّ التي تفقّدها، ومعظمها خارج البلدة الكبيرة وفي دائرة كيلومترات حولها. وفي الأثناء لم يسمع أنّةً أو هو لم يميز هذه الأنّة إذا هي ندّت من البئر، من بين أصوات مختلطة تهبّ من الجوار القريب فالأبعد فالأبعد.